العمر لحظة

يوسف السباعي



يوسف السباعي

العمر لحظة

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

للمؤلف

أطياف	(قصص قصيرة ١٩٤٧)
نائب عزرائيل	(رواية ..... ١٩٤٧)
اثنتا عشرة امرأة	(قصص قصيرة ١٩٤٨)
خبايا الصدور	(» » ١٩٤٨)
يا أمة ضحكت	(» » ١٩٤٨)
اثنا عشر رجلا	(» » ١٩٤٩)
أرض النفاق	(رواية ..... ١٩٤٩)
فى موكب الهوى	(قصص قصيرة ١٩٤٩)
من العالم المجهول	(» » ١٩٤٩)
هذه النفوس	(» » ١٩٥٠)
إنى راحلة	(رواية ..... ١٩٥٠)
مبكى العشاق	(قصص قصيرة ١٩٥٠)
بين أبو الريش وجنينة ناميش	(» » ١٩٥١)
أغنيات	(» » ١٩٥١)
أم رتيبة	(مسرحية .... ١٩٥١)
هذا هو الحب	(قصص قصيرة ١٩٥١)
صور طبق الأصل	(» » ١٩٥١)
بين الأطلال	(رواية ..... ١٩٥٢)
السقا مات	(» » ١٩٥٢)
سمار الليالى	(قصص قصيرة ١٩٥٢)
الشيخ زغرب	(» » ١٩٥٢)
نفحة من الإيمان	(» » ١٩٥٢)
وراء الستار	(مسرحية .... ١٩٥٢)
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
هذه الحياة	(» » ١٩٥٣)

البحث عن جسد	(روايـة ..... ١٩٥٣)
جمعية قتل الزوجات	(مسرحية .... ١٩٥٣)
فديتك ياليلى	(روايـة ..... ١٩٥٣)
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)
همسة عابرة	(» » ١٩٥٣)
رد قلبى	(رواية فى جزأين ١٩٥٤)
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)
طريق العودة	(روايـة ..... ١٩٥٦)
أيام تمر	(مقالات .... ١٩٥٧)
من حياتى	(» ...... ١٩٥٨)
لطمات ولثمات	(» ...... ١٩٥٩)
نادية	(رواية فى جزأين ١٩٦٠)
جفت الدموع	(» » ١٩٦١)
أيام مشرقة	(مقالات .... ١٩٦١)
أيام وذكريات	(» ...... ١٩٦١)
أيام من عمرى	(» ...... ١٩٦٢)
ليل له آخر	(رواية فى جزأين ١٩٦٤)
أقوى من الزمن	(مسرحية .... ١٩٦٦)
نحن لا نزرع الشوك	(رواية فى جزأين ١٩٦٩)
لست وحدك	(روايـة ..... ١٩٧٠)
من وراء الغيم	(مقالات .... ١٩٧٠)
أيام عبد الناصر	(» ...... ١٩٧١)
ابتسامة على شفتيه	(روايـة ..... ١٩٧١)
طائر بين المحيطين	(رحلات .... ١٩٧١)
العمر لحظة	(قصبة ...... ١٩٧٣)

المقـدمة

هذه القصة تقع أحداثها فى أواخر ١٩٦٩ وأوائل ١٩٧٠ ؛ خلال الفترة التى سميناها بحرب الاستنزاف ..

ولقد سجلت هذه الفترة أروع بطولات الجندى المصرى فى معارك العبـور وضرب المدفعيـة وعمليـات القنـاصة وتوغـل الكوماندوز إلى أعماق مواقع العدو ؛ وفى معارك الجو والبحر التى أكدت قدرة الجندى المصرى فى المواجهة ، ومنحت العدو أياما مرهقة ، وأهدته أكبر قدر من الخسائر .

ومن أبرز المعارك التى خاضها الجنـدى المصرى وقتـذاك معركة شدوان ، الجزيرة الصخرية ذات الشعب المرجانية ؛ التى تقع فى البحر الأحمر على مدخل خليج السويس ؛ فى الشمالى الشرقى للغردقة ، والجنوب الغربى لشرم الشيخ ؛ والتى يبلغ طولها ١٦ كيلو مترا ويتراوح عرضها بين ثلاثة وخمسة كيلو مترات .

ولم تكن قواتنا فى الجزيرة لتجاوز المائة ، لحماية الفنار وجهاز الرادار البحرى الصغير اللذين وضعا من أجل إرشاد السفن ليلا ومنعا من اصطدامها بالشعب المرجانية .

ولقد واجهت القوة المصرية قصفا جويا بالفانتوم والسكاى هوك ، كما واجهت هجوما بكتيبة مظلات تزيد على الخمسمائة جندى ؛ وقاتلت ببسالة وشجاعة من خنـدق إلى خنـــدق ، واستطاعت بالقتال المتلاحم بالسلاح الأبيض أن توقع بالعدو

خسائر فادحة

ولقد كنت خارج مصر عندما وقع العدوان الإسرائيلى على الجزيرة . قرأت أنباء المعركة وأنا فى الطائرة فى الجو . وعرضت الصحف الأجنبية صورة للمعركة ذكرت ما قالتـه المصادر الإسرائيلية من أن القوة الإسرائيلية غادرت الجزيرة بعد أن أدت الواجب المطلوب منها وما قالته المصادر المصرية من أن العدو فشل فى السيطرة على الجزيرة نتيجة الخسائر الفادحة التى تكبدها واضطر إلى الجلاء بسبب المقاومة العنيفة التى لقيها ؛ وبسبب إصرار الرجال على التمسك بالأرض .

ذكرت الصحافة الأجنبية ما قاله الطرفان ؛ ثم علقت على المعركة بـأن المصريين حاربـوا بعنف وضراوة وأن الجزيـرة شاهدت من القتال الضارى الوحشى ما لم يشاهده العالم منذ الحرب العظمى بين قوات المحور والحلفاء .

هذا ما شهدت به صحافة العالم وقتذاك .

كانت المعركة رمزا لصلابة الجندى المصرى وجرأته وفدائه .

ولقد أحسست بضمير الكاتب أن تلك الفترة المشرقة فى تاريخنا لا يمكن لأدبنا أن يعبرها فى صمت . وحاولت من خلال الرواية أن أقول عنها شيئا أنصف الجندى المصرى.. والأدب المصرى أمام التاريخ .

ونحن لا نملك إلا المحاولة .. أما التوفيق فمن عند الله .

(يوسف السباعى)

إهــداء

إلى الجندى المصرى
الذى تحمل فوق ـــ آلام هزيمة يونيو ـــ آلام تبعتها .
أهدى بعض ما يرفع عنه الظلم ويرد اللوم .
أهدى بعض الحقيقة .
حقيقة كفاءته وقدرته وشجاعته ..
إليه أهدى بعض عمله .
وهذا خير ما ينصفه أمام التاريخ .

(يوسف السباعى)

(١)

شـائعات

قلبت نعمت مجموعة الصور الملقاة على مكتبها وألقت نظرة عابـرة على الأوراق المرفقة بالصور وأخذت تتلو مسرعة عناوين الموضوعات المعدة للطبع « بيت لك على القمر » « المينى جيب ما زال مسيطرا » . « الزهور من أجل أعصابك المرهقة » . « فتيات الجيشا فى خدمتك » .

وهمست لنفسها « مش بطال »

ثم بدا عليها التردد وعادت تهز رأسها فى قلق .

فقط ينقصها موضوع عن المرأة العاملة ... أو الفلاحة .. شىء للشعب . حتى لاتتهم بالرجعية ... والانعزالية ... وعدم التلاحم . إلخ

طبعا لا أحد يجسر أن يوجه إليها تهمة ما ... لأنها حماية ... إنها ليست مجرد رئيسة قسم المرأة بمجلة « الخبر » ولكنها زوجة رئيس التحرير ..

والصفة الأخيرة تمنحها الحرية فى أن ترفع فى المؤسسة كما تشاء .. فهى مهابة رغم أنفها ... ورهبة الرئاسة تفرض سلطانها على من حولها بغير إرادة منها ولا رغبة .

ولكنها مع كل هذه الحماية التى يفرضها عليها منصبها الزوجى .. تحب أن تكون نفسها ... وأن تتعامل مع الناس بقيمتها الحقيقية المستمدة من ذاتها ..

فشلت بالطبع .. ولكنها حاولت دائما .

وإن كانت تحس أخيرا أن مهابة السلطان قد أخذت تهتز .. وأنها لم تعد تفرض نفسها بالقوة والرهبة التى كانت تفعلها فى أول الأمر .

وهى تعرف لماذا ..

لأن الأستاذ عبد القادر زوجها . ورئيس التحرير يلعب بذيله .

والغجر من حولها ... لا شك يعرفون ذلك .

ولقد كانت بينهما قصة حب أفضت إلى الزواج منذ بضع سنوات ..

وعبد القادر لطيف عندما تكون المسألة مجرد مغامرة حب ..

وكمحررة صغيرة .. أدار رأسها أن يقبل عليها إنسان مشهور جذاب مثله .. ولقد كانت هى دائما عنصرا جذابا .. فى الجامعة للطلبة والمعيدين والمدرسين وبعض الأساتذة .. وفى كل عمل التحقت به أثارت اهتمام من حولها .. اهتماما كان يبلغ فى كثير من الأحيان عروض زواج .. ولكنها كانت تشعر أن الفرصة لم تأت بعد . ولم يكن لديها شعور ما لأحد ما .. والتحقت بدار الخبر ..

وعف عليها .. المحررون والمصورون .. والرسامون .. وحسدتها المحررات .. واتهمنها .. بأنها لعبية .. وماكرة .. ولعلها كانت كذلك ، بالمعنى البرىء ، فلقد كانت تعرف قدر جاذبيتها .. ولم تكن تجد ما يمنع من استعمالها بالقدر الملائم فى الوقت الملائم .

وطب عليها ... الفرخ الكبير .. الكاتب ورئيس التحرير .. ودار رأسها .. واندفعت معه فى مغامرة .. ولكنها كانت مغامرة حازمة .. مثمرة .. انتهت بالزواج .

ومنحها الزواج .. صورة مختلفة .. ولبست هى الثوب الجديد .. ثوب السلطان والمهابة .. لم تعد تشعر أنها فى حاجة إلى استعمال جاذبيتها الشخصية .. فقد كان فى جاذبية مركزها الجديد .. كزوجة رئيس التحرير ... ما يكفى لتذليل الصعب .. وإزالة المتاعب والعراقيل ..

وأبدى مدير التحرير تقديره الزائد لها ... وعينها رئيسة قسم المرأة .

ولم يمض وقت طويل حتى عين هو نائبا لرئيس التحرير ..

ولم يكن هناك غيره .. ولكن كان يمكن أن يبقى مديرا للتحرير .. طول عمره

.. لولا .. دفعة منها .. عند عبد القادر ..

اعترض فى أول الأمر بأنه عبيط .. فقالت له : « أحسن ما يكون سافل »

واستمرت هيبتها كزوجة رئيس التحرير تفرض نفسها .. حتى بدأت تضيق بها ... عندما أحست أن اسمها قد أضحى « الست » وأن قدرها الشخصى قد أخذ يذوب فى قدرها كصاحبة نفوذ .. بل إن قدرها كأنثى جذابة ... أخذ يتجمد أمام رهبة المحيطين بها من هيبة زوجة رئيس التحرير .. وخوفهم من الغلط ولوذهم « بابعد عن الشر وغنى له » .

ومع ذلك وبذكائها .. وحلاوتها .. وخفة دمها .. نجحت بقدر ما تستطيع فى أن تجد مكانا لشخصيتها الأصيلة المجردة .. غير المختلطة برئيس التحرير ... ونفوذه ... وقدرته على الترقية والمكافأة ... واستطاع المحررون — فيما عدا الشديدى الجبن منهم ومن بينهم نائب رئيس التحرير — أن يعاودوا التعامل معها كزميلة لطيفة رقيقة .. مع بعض التحفظ الراسب فى أعماقهم بأنها مهما كان الأمر فهى زوجة رئيس التحرير وقادرة على أن تقنعه بما تريد . و لم تكن تضيق بهذا التحفظ الذى كان يحتفظ لها بحد أدنى من الاحترام .. وحسن المعاملة .. ويقيها من غلاسة الأنطاع وسخافة الأغبياء .

ولكن .. مع الوقت أخذت تحس باهتزاز الهيبة وبأن المحررين لم يعودوا فى حاجة إلى جهد لكى يعاملوها معاملة مجرد زميلة .. و لم تعرف من المسئول عن هذا .. أهى محاولاتها الدائبة فى أن تكون ذاتها وتنفض عن نفسها ثوب الرئاسة .. أم هو إحساس من الغجر .. بأنه ليس لديها نفوذ فعلى ..

ولماذا هذا الإحساس ..

ألأنهم يرونها ترفض أن تمارس النفوذ .. ؟ أم لأنهم يتصورون أنها لا تستطيع أن تمارسه .

ولكن .. لماذا لا تمارسه ؟

أهو اعتقاد منهم بأنها ليست لها القدرة على النفوذ .. وأن أحدا غيرها يمكن أن يمارسه .. نتيجة لمغامرات زوجها المتواصلة .

على أية حال ... إذا كانت تكره أن تكون فى الدار مجرد زوجة رئيس التحرير .. إلا أنها تكره أكثر من هذا أن تخلع من مكانها ... ويحتل أحد موضعها ويمارس ما رفضت هى أن تمارسه من نفوذ وسلطان .

وهى لا تعرف ماذا يقولون ..

ولا تعرف ماذا يفعل عبد القادر ... مما يجعلهم يقولون .. بل هى لا تشعر بالغيرة من أحد ... ولا على أحد ..

ولكنها تكره أن تكون محل لغط أو شائعات ..

إنها مسألة كرامة أولا .. وآخرا ..

وهى تعرف طبيعة زوجها .. مغازل بصباص .. ولكنها تأبى أن تقوم بدور الزوجة الغيور .. لأنها لا تغار عليه فعلا .. ولا تجد فى باطنها من الانفعال ما يدفعها إلى الغضب أو الثورة .

ولكنها تكره ... أن توضع موضع المهانة .

ومع ذلك .. فالمسألة لم تصل إلى هذا الحد .

وإذا كانت هى تكره أن تلبس ثوب السلطة .. فلماذا تثور .. عندما يخلعونه عنها .؟

وكانت الصورة والأوراق ما زالت بيدها وذهنها يعدو فى شروده ..

ومرة أخر عادت إلى الأوراق ..

تحتاج إلى موضوع من الشعب ... حتى توقف تعليقات بعض المتنطعين .. الذين بدأت تعليقاتهم الهجومية توجه صراحة كدليل واضح .. على اهتزاز مكانتها الرئاسية ...

وجذبت أحد الأدراج وأخذت تقلب ما فيه من أوراق .. وجذبت ظرفا كتب عليه « بهانة وتنظيم الأسرة »

هذا معقول ... مع الموضوعات الثلاثة الأخرى يكون تشكيلة لا بأس بها

وأقبلت فاطمة زميلتها فى القسم وأصدق صديقاتها .. سليطة اللسان خفيفة الدم . لم يسلم من لسانها أحد . تتولى رئاسة قسم التميمة فى الدار وأم لثلاثة أولاد وزوجة لأحد المذيعين المشهورين .

واستقرت على مقعد أمام مكتب نعمت وتساءلت فى لهفة :

ــ ألم يبدأ الاجتماع بعد .؟

ــ أى اجتماع ؟

ــ اجتماع المحررين .. أليس اليوم هو الاثنين ؟

ــ أجل ..

ــ أليس المفروض أن يبدأ الاجتماع الأسبوعى فى الثانية عشرة ؟

ــ المفروض .

ــ والساعة الآن الثانية عشرة والتصف ..لقد ظننت نفسى متأخرة وعدوت ألهث لألحق الاجتماع ..

وقلبت نعمت يدها وألقت بنظرة على الساعة وقالت بهدوء :

ــ لا بد أن اجتماعهم فوق لم ينته .

ــ أى اجتماع ؟

ــ قال لى عبد القادر إنه سيجتمع مع مديرى التحرير لأن حالة المجلة سيئة ..

ــ طول عمرنا نسمع أنها سيئة ..

ــ الظاهر أنها أصبحت أسوأ .. التوزيع فى هبوط .. الإعلانات قلت ... والتحصيل متراخ .. هكذا قال لى .

ــ كلام فارغ .. يبدو أنهم لا يريدون منحنا العلاوات .

ــ لا أظنهم يستطيعون .. فالعلاوات قد أصبحت شغل الدار الشاغل .. ولعل الأستاذ زكى ينهى الموضوع اليوم بالنسبة للمحررين .

ـــ العلاوات فى العام الماضى كانت ملاليم ..

ـــ لا تبدو أنها ستكون هذا العام أفضل .

ـــ تبقى مصيبة .. إن مرتبى على مرتب محسن .. لا يكادان يكفيان أجر البيت والطعام .. وعلىّ بعد ذلك أن أتسوّل لألبس .. وأذهب إلى الكوافير ..

وصمتت فاطمة برهة ثم أردفت قائلة :

ـــ المهم ألا تنسينا هذا العام .

ـــ كيف ؟

ـــ اذكرينا عند الرجل الكبير .. إن الأمر يرجع إليه فى النهاية وقد عدل الكشف فى العام الماضى .

ـــ كان البعض مظلومين ..

ـــ كان لهم بخت .. ولعلنا نكون من أصحاب البخت هذا العام ... المهم أن تذكرينا ..

ـــ أنت تعرفين أنى لا أتدخل فى هذه الموضوعات .

ـــ عبيطة !

ـــ لماذا .. ؟

ـــ لأن أحدا .. لا بد أن يتدخل . فلماذا لاتكونين أنت .. وأنت صاحبة النفوذ الشرعى ؟

ـــ ماذا تقصدين ؟

ـــ ألست زوجة رئيس التحرير . يعنى الرئيسة الشرعية .. فلماذا تتركين غيرك يعتدى على نفوذك ؟

ـــ أنا لم أحاول قط التدخل فى عمل عبد القادر .. ولا حاولت أن يكون لى نفوذ فى الدار أكثر مما يتيحه لى عملى كصحفية ..

ـــ من أجل هذا يلطش غيرك النفوذ .

ـــ من تقصدين ؟

— عيبك أنك لا تحضرين مجالس النميمة .. لو حضرت لعرفت الكثير مما تجهلين .. ولكن الأوغاد .. لن يتحدثوا أمامك .. إنهم جبناء ..

— وماذا يقولون ؟ ..

— يقولون .. إن الأستاذ .. يؤمن بالله، من جهة نظر محدودة .. هي أن الله جميل يحب الجمال .. وأنه لذلك يحب كل جميل ..

— قديمة .

— الجديد أن هناك جميلا جديدا .. يشغل الأستاذ ..

— اسمعي يا فاطمة .. لا تحاولي أن تثيري غيرتي .. فلست على استعداد لأن أقوم في الدار بدور الزوجة الغيور .

— لا ضرورة لأن تقومي بالدور .. المهم أن تمارسي نفوذك على الرجل الكبير من أجل أصدقائك .. متى آخذ علاوة إذا لم آخذها الآن وأنت رئيسة الدار ؟

ورفعت فاطمة يديها إلى السماء داعية :

— علاوة يا رب ..

وأقبل حامد الفراش. عجوز أسمر أحول العينين ووقف بالباب يصيح :

— اتفضلي يا فندم .

ونظرت إليه فاطمة وهي لا تعرف من نظرة عينيه من يريد وقالت له في هدوء :

— ابقى شاور يا عم حامد .. حتى نعرف من تريد..

— الأستاذ زكي يطلب المحررين لأجل الاجتماع .

ونهضت نعمت تتبعها فاطمة متجهتين إلى حجرة نائب رئيس التحرير .

وحول منضدة طويلة التف المحررون والمحررات وعلى رأسها جلس الأستاذ زكي عثمان نائب رئيس التحرير وبجواره الأستاذ سعيد سكرتير التحرير ..

ونهض زكي مرحبا عندما أقبلت نعمت وحاول أن يحضر لها مقعدا بجواره ولكنها جلست على أقرب مقعد خال في نهاية المنضدة .

وكان زكى قد فرد آخر عدد صدر من المجلة أمامه وبجواره أعد سعيد ماكيت العدد القادم ومجموعة مقالات وظرفا به صور .

وكان المفروض أن يبدأ زكى باستعراض العدد السابق وبإبداء ملحوظاته عليه ثم سماع ملاحظات المحررين وتوجيههم ثم يبدأ بعد ذلك عرض ماكيت للعدد القادم والموضوعات المقدمة ..

كان هذا هو المفروض . ولكن زكى بدأ حديثه بعلامات تجهم كسا بها وجهه ثم قال فى رنة أسى :

— قبل أن نبدأ ملاحظاتنا على العدد السابق . يؤسفنى أن أخبركم بمعركة مزعجة حدثت هذا الصباح .

وهتف أحد المحررين متسائلا :

— فى الجبهة ؟

ورد زكى :

— بل هنا فى المجلة .. أحد السادة المحررين رفع حذاءه على زميل له ..

وضحكت فاطمة قائلة :

— وفيها إيه .. دائما يحدث هذا وأقترح أن يخلع المحررون أحذيتهم على باب الدار عند الاستعلامات ..

وسرت موجة ضحك من المحررين وعلق ربيع المحرر الفنى قائلا :

— نحن فى عصر الحفاء .. الهيبز بلا أحذية .. والراقصات بلا أحذية .. فلماذا لا نكون نحن حفاة .. ونوفر ثمن الأحذية ؟

ونقر زكى المنضدة بقلم فى يده .. وزاد من علامات التجهم على وجهه محاولا زجر المحررين وإضفاء جو الجدية على الاجتماع :

— هذا ليس وقت مزاح .. لقد بلغت المسألة رئيس التحرير وقال لى إن هذا ليس مستوى محررين .. وطلب منى عمل تحقيق ..

وصاح الشنشتاوى .. المعتدى عليه قائلا :

ــ المسألة لا تحتاج إلى تحقيق .. لقد رفع علىّ الحذاء .. أمام عدة محررين .. والأستاذ حسنين والأستاذ فراج .. شاهدان .

وصاح عبد الرءوف المعتدى مدافعا عن نفسه !

ــ أنت هددتنى بالضرب بالحذاء .. ومددت يدك لتخلعه .

وتساءل زكى وهو يدير دفة التحقيق :

ــ ولكن أنت الذى رفعت عليه الحذاء ..

ــ كنت أدافع عن نفسى !

ــ ولكن هو لم يخلع حذاءه .

ــ لأن حذاءه برباط .. استعصى عليه خلعه .. ولكن حذائى موكاسان .. سحبته بسهولة ..

وصاحت فاطمة :

ــ يعنى فرقت رباط .

وقال زكى فى لهجته الآسفة الجادة :

ــ عيب .. عيب جدا .. أن يحدث هذا بين أناس محترمين .

وهمس أحد المحررين : الناس تهبط إلى القمر .. ونحن نتبادل ضرب الأحذية .. ورد آخر :

ــ ولا يهمك .. قد يحدث هذا فى القمر نفسه .

واستطرد زكى يقول :

ــ لقد طلب منى الأستاذ عبد القادر أن أوقف المحررين .. وأن أتخذ إجراءات رادعة لوقف هذه الأشياء المخزية ..

تدخل أحد المحررين لمحاولة الصلح قائلا :

ــ ليقبل كل منهما رأس الآخر .. وليتصافحا .. وننهى الموضوع .

وأمن معظم المحررين على قوله وجذب أحدهم المعتدى :

ــ قم قبل رأسه ..

ووثب المحرر من مقعدة فأمسك برأس زميله وقبلها قائلا :

ـــ مع أنك أنت الذى هددتنى بضرب الحذاء ..

وصاحت فاطمة :

ـــ كل هذا بسبب الموكاسان .. فى المرة القادمة .. البس فيلدبوت .. حتى تفكر جيدا قبل أن ترفع الحذاء على أحد .

وصاح أحد المحررين قائلا :

ـــ خلاص .. انتهينا .

وهم زكى بفتح العدد عندما رفع أحد المحررين يده مستأذنا الحديث . متسائلا :

ـــ ماذا تم فى العلاوات ؟

وقال زكى :

ـــ خصص للمجلة كلها مبلغ محدود يوزع على المحررين .

وسأل محرر :

ـــ وما هو المبلغ المخصص لنا ؟

ـــ أربعون جنيها .

وسرت همهمة استياء بين المحررين ثم ارتفعت صيحات استنكار تقول :

ـــ غير معقول .

وتساءل أحد المحررين :

ـــ على أى أساس ؟

وقال زكى :

ـــ بالرأس .

وتساءلت فاطمة :

ـــ يعنى إيه ؟

ورد زكى :

ـــ يعنى تم حصر جميع العاملين بالدار .. وقسم المبلغ المخصص للعلاوات على

عدد العاملين لينتج نصيب الفرد فى المبلغ ... وعلى أساس هذا النصيب أعطى لكل إدارة نصيب الفرد مضروبا فى عدد العاملين فيها .

وعادت صيحات الاستنكار تقول :

ـــ غير معقول .

وصاح أحد المحررين :

ـــ يعنى يكون نصيب كل واحد سبعين قرشا ..

ورد زكى :

ـــ حوالى هذا .. ولكن لن يأخذ كل محرر كالآخر .. سيكون توزيع المبلغ حسب الكفاءة .. أى قدر العمل ونوعيته .. والمواظبة على الحضور .

وقال محرر فى سخرية :

ـــ أنا متنازل عن السبعين قرشا .. الحكاية لا تستحق ..

وقال زكى :

ـــ الذى لا يريد العلاوة يستطيع أن يتنازل عنها ولكننا الآن بسبيل إعداد حصر لعمل كل محرر .. وعلى أساسه سيكون توزيع العلاوة ..

وقال أحد المحررين :

ـــ لماذا لا نحاول رفع المبلغ ؟

ورد زكى :

ـــ لا فائدة ـــ لقد حاولت كثيرا ..

ـــ نحاول ثانية ..

ـــ كيف ؟

ـــ ندخل بطريق آخر ..

ـــ ماذا تعنى ؟

ورد المحرر وهو يهز رأسه :

ـــ أعنى أنه لو أمكن أن تتدخل الأستاذة نعمت . فقد يكون من الممكن ..

يعنى ..

وصمت المحرر.. أطبق الصمت على الحاضرين وأحست نعمت أن عليها أن تقول شيئا ... وبعد فترة صمت تمتمت قائلة :

ـ الحقيقة أنى لم أتعود أن أتدخل فى شئون الدار .. إنى أحاول دائما ألا أتجاوز قدرى كمحررة بينكم ..

وهتف المحررون :

ـ ولكن من أجل زملائك .. يجب عليك أن تتحدثى .

ـ ألم يتحدث نائب رئيس التحرير ؟

ورد زكى قائلا :

ـ فعلت كل ما فى وسعى .

وقالت نعمت :

ـ إذا كان هو لم يستطع فلن أستطيع أنا .

وقالت فاطمة :

ـ غير معقول .

ـ إنى مجرد محررة .

ـ أنت زوجة رئيس التحرير .

ـ أنا هنا أعمل محررة ولست زوجة .

وهتف أحد المحررين :

ـ من أجلنا ..

وردت نعمت فى عصبية :

ـ لا أستطيع ..

ثم أردفت قائلة :

ـ لا أستطيع أن أفرض لنفسى نفوذا خاصا أكثر من أى محرر أو محررة .. إننا نستطيع أن نشكل وفدا وأنا منه .. ثم نصعد لمناقشته .

وهز أحد المحررين كتفيه وقال فى سخرية :

ـــ وفد .. سلامات يا وفد .

وقال آخر :

ـــ المسألة تحتاج إلى نفوذ خاص .

وهمس محرر ثالث :

ـــ النفوذ الخاص ... ليس هنا .. إن صاحبتنا زوجة .. مجرد زوجة .

ووصل الهمس إلى أذنى نعمت ولكنها تجاهلته فقد كرهت أن تتحول المناقشة إلى محاولة تقييم علاقتها الزوجية .. وسلطتها على زوجها . وممارستها لنفوذها عليه ..

وهمت بأن تقول شيئاً عن كتابة مذكرة بوجهة نظر المحررين ترفع إلى رئيس التحرير .. ولكنها أحست أن الهمس يسرى حولها .. وأن الكلمات الغامزة تتواثب على الشفاه . ووجدت الأنظار تتركز على نهاد المحررة بالقسم الثقافى ذات البروزات الجسدية المتحدية . والتى سمعت ذات مرة شائعة علاقة ما بزوجها .. ولكنها لم تأبه لها .. لفرط ما سمعته من شائعات مماثلة ولترفعها عن الدخول فى معارك غيرة من أجل أشياء فى نظرها لاتستحق .

وودت لو تغير الموقف السخيف الذى ينم بالصمت والهمس عن شائعات ولغط وأقاويل وأن ينتهى النقاش بطريقة سريعة حازمة فقالت فى كلمات مقتضبة :

ـــ سأعرض عليه الأمر ... وأبذل كل جهدى .

وبدا الاقتناع على البعض .. ولكن البعض الآخر لم يشعر أن لكلامها قيمة .. لأنهم واثقون أنها ليست صاحبة النفوذ الخاص ... وأنها لاتملك التأثير على رئيس التحرير وإقناعه بأى شىء . وإنما صاحبة النفوذ الحقيقى هى نهاد . الذى تكاثر اللغط فى الفترة الأخيرة حول علاقتها بالأستاذ عبد القادر .

وانتهى الاجتماع بعد نقاش تقليدى معاد . وغادرت نعمت الحجرة وقد

تملكها لأول مرة إحساس بالهوان . فلقد كرهت أن يجعل منها عبد القادر موضع سخرية .. وأن تضيع هيبتها ومظهر نفوذها اللذين لم تكن تحرص على ممارستهما لأن إحدى المحررات قد استولت عليهما واحتلت مكانتها المفروض أن تحتلها هى كزوجة لرئيس التحرير ..

وفى الظهيرة عندما عادت إلى مسكنها فى عمارة ليبون على النيل . جلست تتناول الغداء مع عبد القادر وخلال الطعام عرضت شكوى المحررين من ضآلة مبلغ العلاوات .. فقال لها :

ــ لا أستطيع أن أمنحهم أكثر من هذا حسب القاعدة الموضوعة .

ــ إنها قاعدة سخيفة . غير معقول أن يعامل المحررون بالرأس كأنهم خراف .

ــ هذه هى القاعدة التى وضعتها لجنة الاتحاد الاشتراكى فى الدار .

ــ وهل أنت مقتنع بها ؟

ــ ليس هناك وسيلة أكثر منها أمنا .

ــ ألا يمكن أن يزاد المبلغ المخصص للمحررين ؟

ــ لا يمكن .

وصمتت نعمت برهة وهى تعبث بملعقتها فى الطبق ثم تساءلت فجأة :

ــ حتى ولو طلبت منك نهاد ؟

وأجفل من سؤالها ورد فى عصبية :

ــ نهاد .. مالها نهاد ؟

ــ يقول المحررون .. إن لها نفوذا خاصا عليك .

ــ أولاد الكلاب .. لا يريدون أن يكفوا عن التشنيع .

ــ إذاً ليس هناك شىء بينكما ؟

ــ مطلقا .

وأطلقت نعمت تنهيدة ثم أزاحت مقعدها للخلف وهى تهم بالوقوف .

وقال عبد القادر فى نبرات هادئة بعد أن تمالك نفسه :

ــ لا تقلقى بالك بأقوال هؤلاء الغجر ..

واستطرد يقول بعد لحظة صمت :

ــ لم يتركوا واحدة إلا ونسبوا إلى علاقة بها .. ولو اتبعت شائعاتهم فلن تهدئى لحظة واحدة .

ولم تجب نعمت فلم تر من المفيد الإصرار على أن هناك شيئا .. وعاد هو يقول فى رقة :

ــ أما بالنسبة للعلاوات .. فسأحاول أن أدبر مبلغا آخر .. حتى ولو من المكافآت غير الثابتة التى يأخذها المحررون .. بحيث لا أضع عبئا إضافيا على الميزانية .

وردت نعمت وهى تغادر المائدة :

ــ متشكرة .

ــ على أية حال سأريحهم ..

وأحست نعمت بنوع من الارتياح وهى تجد أن مظهر الهوان الذى أحاطها به المحررون .. يمكن أن يمحوه نجاحها فى زيادة مبلغ العلاوات . وأن يعيد إليها هيبتها كصاحبة نفوذ .. فى منطقة نفوذ طبيعية لها ..

ولكن الأيام لم تؤكد لها هذه الهيبة ولم تكن نهاد هى السبب بل كانت هذه المرة فنانة شهيرة بدأت الألسنة تلوك علاقتها بعبد القادر وأخذ اسمه يقرن باسمها فى كل مجال. وعلى كل لسان .

وضاقت بالأمر عندما تطورت الشائعات إلى تأكيد زواجه بها وإلى تأكيد مصاحبته لها فى السهرات وفى الأماكن العلنية .

وعزمت نعمت على أن تضع حدا للأمر .

وفى ليلة عاد إلى البيت قبيل الفجر وكانت على يقظة فى انتظاره وقد ملأها الغضب منه والضيق به وواجهته فى حزم قائلة :

ــ يبدو أنه قد آن لنا أن نضع حدا للأمر .

ــ أى أمر ؟

ــ الأمر المؤسف الذى نحن فيه .

ــ لا أفهم ؟

ــ لم يعد هناك أحد لا يتحدث عن علاقتكْ بزينات شكرى .

ــ كلام فارغ .

ــ ويؤكدون أنك تزوجت منها .

ــ كمان ؟

ــ ليس هناك أحد لا يؤكد ذلك .

ــ كلام فارغ .

ــ فارغ أو مليان ... لقد ضقت ذرعا بكل هذا . إنى لم أعد أحتمل هذه الحياة .

ــ إن وجودك وسط هؤلاء الغجر هو السبب . إن أحدا لم يسلم من لسانهم .خدى أجازة واستريحى ..

ــ هل يضع هذا حدا للمشكلة ؟

ــ طبعا .. ستبعدين عن وسط اللغط والشائعات .. سافرى عند أمك فى الإسكندرية .. أو اتركى الشغل نهائيا .. إنك فى غير حاجة إلى المرتب ..

ــ أتظن أن المشكلة هى فى وجودى فى المجلة ؟

ــ بغير جدال .. أنت محاطة بالحاقدين .. والنمامين .. وكل من هب ودب .. يستطيع أن يسلط عليك لسانه .. بما يتفتق عنه ذهنه من شائعات ..

ــ وأنت ؟

ــ مالى أنا ؟

ــ أليس هناك غبار على سلوكك ؟

ــ سلوكى طبيعى كأى صحفى ..علاقاتى متعددة .. ولا بد أن أجامل كل الناس ..

ـ المسألة إذن مسألة مجاملات ؟

ـ لا أكثر ولا أقل ..

وعادت إلى فراشها والمسألة تدور فى رأسها .. هل تقبل وضعها . وهل تعتبر ما يمارسه من علاقات أمرا طبيعيا .. أو تثور وتنهى كل شىء .. هل تقبل نصيحته وتبعد عن الوسط الصحفى حتى تنأى بنفسها عن الأقاويل والشائعات ؟

(٢)

مزيد من المـذلة

كانت معارك الطيران على أشدها فى القناة .. وكان على نعمت أن تجرى تحقيقا مع الجرحى فى مستشفى القوات المسلحة بالمعادى . وكان المصور فى انتظارها فأخذته بجوارها فى العربة وانطلقت إلى طريق المعادى .

وفى ميدان التحرير وقع بصرها على إعلان لأحد الأفلام السينمائية وضعت عليه صورة زينات شكرى . وعلق المصور قائلا :

ـــ لا بد أن أنتهى من التصوير بسرعة لأن لدى موعدا معها .

ـــ لماذا ؟

ـــ لأصور لها صورة غلاف .

وقبل أن ترد نعمت استطرد المصور يقول ببساطة :

ـــ لست أدرى ما حكايتها .. المجلة كلها مسخّرة من أجلها .. عملت لها ما يقرب من عشرة ريبورتاجات .. وصورتها ما يقرب من مائة صورة .. وهى لا يعجبها العجب ولا الصيام فى رجب .. وكأنها مجلة أبيها ..

وكان المصور يتكلم بحسن نية دون أن يدخل فى حسابه الشائعات التى تتردد حولها . ومدى ما يمكن أن يكون لحديثه من تأثير على نعمت .

ولم تشأ نعمت أن تدخل مع الرجل الطيب فى مناقشة مزعجة . واكتفت بالتعليق ببساطة قائلة :

ـــ كلهن كذلك .

ـــ لا والله .. بعض منهن طيبات ولكن هذه متعافية .. لست أدرى لمه ؟

وكانت هى تدرى لمه !.. ولكنها لم تجد معنى لأن تعرف الرجل الطيب بما لا ضرورة لأن يعرفه .

ووصلت إلى المستشفى ووضعت العربة تحت المظلة بجوار السور وصعدت المطلع النحدر أمام الباب ثم اتجهت إلى الاستعلامات فى المدخل . وقبل أن توجه السؤال إلى الجندى الواقف وراء النافذة سمعت صوتا يرحب بها قائلا :

ـــ أهلا نعمت .. ماذا تفعلين هنا ؟

والتفتت وراءها فأبصرت صديقة الدراسة هناء عبد الله ترتدى الزى العسكرى وتقبل عليها مرحبة فأجابتها بعد أن ردت التحية :

ـــ أتيت لأعمل تحقيقا عن الجرحى .

ـــ أهو أنت التى طلُب منى أن أكون فى انتظارها .. صدفة هائلة . كان آخر مرة رأيتك فيها فى المعمورة .. منذ سنتين .. هل تذكرين ؟.

ـــ كان لقاء خاطفا .. كيف حالك أنت ؟ وماذا تفعلين .. وما هذا الذى ترتدينه .. ؟ أصرت ضابطا .. أرى على كتفيك ثلاث نجوم ؟

ـــ ترقيت أخيرا لرتبة اليوزباشى .. لقد التحقت هنا كباحثة اجتماعية .

ونظرت إليها نعمت فى إعجاب قائلة :

ـــ لم أتصور أبدا أن أراك فى زى عسكرى ..

ـــ العمل متعب .. ولكنه يمنحك إحساسا بأنك تفعلين شيئا مفيدا .. وكيف حالك أنت فى الصحافة ؟

وهزت نعمت رأسها . ومر بذهنها شريط سريع لمتاعب المهنة وسخافتها وللإشاعات والأقاويل وللحديث الذى دار بينها وبين عبد القادر . وردت فى لهجة متبرمة :

ـــ يعنى !..

ـــ يعنى ماذا .. ألست راضية ؟

ـــ مطلقا .. أتمنى فى أى وقت أن أترك العمل .

ـــ أتحبين أن تعملى هنا .. ؟

ـــ أيمكن ذلك ؟

ـــ بالطبع .. إنهم يريدون عددا من الباحثات الاجتماعيات وأعتقد أنه من السهل التحاقك بالعمل هنا ..

ثم أردفت ضاحكة :

ـــ وترتدين بدلة الضباط .. ولكننى سأكون أقدم منك .. وسأمارس عليك كل أنواع السلطة والإمارة ..

وعاد قول عبد القادر يطوف برأسها. خذى أجازة وابعدى عن العمل .. اتركى الشائعات والأقاويل التى يثيرها الحاقدون والحاسدون .

وراقها أن تترك المجلة بكل ما فيها من متاعب وسخافات وأن ترتدى الزى العسكرى لتعمل عملا مفيدا بدل هذا الجهد الضائع على الورق فى موضوعات مكررة معادة لاتحوى غير التفاهات والسخافات .

وسألت هناء :

ـــ أتقولين حقا إنى أستطيع أن ألتحق بالعمل هنا ؟

ـــ طبعا .. تعالى معى وأنا أدخلك لأركان الحرب .

ـــ ليس الآن .. دعينى حتى أنتهى من التحقيق لأن المصور فى عجلة من أمره .. وبعد الانتهاء من التحقيق يمكن أن نجلس معا لندرس الموضوع .

ـــ انتهينا .

وانتهت نعمت من عمل التحقيق . وقبل أن تغادر المستشفى كانت قد عرفت الإجراءات المطلوب اتخاذها والأوراق المطلوب التقدم بها إلى إدارة الخدمات الطبية .

وفى البيت أخبرت عبد القادر بما تنوى أن تفعله . ونظر إليها فى دهشة متسائلا :

ـــ هكذا مرة واحدة .. ؟

ـــ ألديك مانع .. ؟

ـــ إذا كان هذا يرضيك ويريحك .. فافعليه .

ـــ ألم تطلب منى أن أبتعد عن الجو الصحفى ؟

ـــ أجل ولكنى لم أطلب منك أن تجندى ..

ـــ وماذا فى ذلك ؟

ـــ هل هناك احتمال لذهابك إلى الجبهة ؟

ـــ طبعا .

ـــ وهل تحتملين أنت ذلك ؟

ـــ ولم لا ؟

ـــ كما تريدين .. افعلى كل ما يريحك ..

ولم يمض وقت طويل حتى كانت نعمت قد استقرت فى مستشفى المعادى بالثياب العسكرية ..

ولم يكن العمل مريحا .. ولا كان به عن الأعمال المجيدة ما يمكن أن يجذبها . وضاقت به فى أول الأمر وندمت على تركها الصحافة بكل ما يحيط بها من بريق الشهرة ووهم السلطان .

ولكن كان عليها أن تحتمل وتواصل العمل . حتى أقبل ذات مساء نزيل جديد فى المستشفى أعلن عن وصوله بصراخ وضجيج أقلق كل المستشفى .

وسألت نعمت هناء :

ـــ ما الحكاية .. من هذا ؟

ـــ مقدم من الصاعقة .

ـــ ولماذا يحدث كل هذا الضجيج ؟ ..

ـــ حنجرته قوية .. ويدعى الشراسة .

ضحكت نعمت متسائلة :

ـــ يدعى الشراسة فقط ؟

ــ أجل فهو فى الحقيقة إنسان طيب .

ــ ولماذا يدعى الشراسة ؟

ــ ليستغل قوة حنجرته فى الصياح .

ــ وماذا أتى به إلى هنا ؟

ــ عنده حصوة فى الكلى .

ــ مسكين ..

ــ أتى بضع مرات وخرج .. ولكن هذه المرة أعتقد أنهم سيجرون له عملية لإخراجها ..

والتقت نعمت بمحمود عبد الله مقدم الصاعقة صاحب الحنجرة القوية ومدعى الشراسة .

كان لقاء مزعجا .

كانت تمر بحجرته فنادى عليها صارخا:

ــ أنت يا ..

وتلفتت إليه متسائلة :

ــ أنا ؟

ــ أجل أنت .. هذا مستشفى فوضى .. نصف ساعة وأنا أدق الجرس .. أين أقراص الأفافورتان ؟

ودهشت من قلة أدبه . وكانت لا ترتدى الجاكتة التى وضعت عليها النجوم التى يمكن أن تنبئ عن مركزها . وبدا عليه كأنه يظنها إحدى الممرضات .

وحاولت أن تتمالك نفسها وردت عليه بهدوء قائلة :

ــ سأرسل لك أحدا ..

ــ وماذا تفعلين أنت .. ريسة .. ؟

ولم تجب عليه واتجهت إلى حجرة المكتب وارتدت سترتها وعادت إليه .. وقبل أن تفتح فمها بكلمة نظر إليها فى دهشة وهتف صائحا :

ـــ ما هذا .. أنت نقيب ؟

ثم اندفع مقهقها وهو يهتف بإعجاب :

ـــ نقيب قمر ..

وعلا وجهها الاحمرار .. ولم تدر بماذا تجيب .. لقد كانت قلة الأدب أهون عليها من هذا الغزل المربك .

ورغم ميلها إلى الضحك كست وجهها علامات الوقار والجد وقالت له :

ـــ غير معقول أن تثير كل هذا الضجيج .. إن هناك مرضى غيرك يحتاجون إلى الراحة ..

وخلع على ملامحه ستار الندم وتمتم بصوت خفيض :

ـــ أنا آسف .. ولكن لم أكن أظن أنك نقيب .. ولا ظننت أن هناك نقيبا .. بمثل هذه الحلاوة ..

وعاودها الارتباك ونظرت إليه نظرة ملأتها كل ما تملك من حزم وقالت فى حدة :

ـــ وبعدين .. أنت غير معقول .

وبمنتهى البساطة والبراءة أجاب :

ـــ والله أنت غير المعقولة ..

وعاد يتمتم كأنه يحدث نفسه :

ـــ نقيب ؟! دى لوز ..

وتجاهلت حديثه إلى نفسه وقالت له فى لهجة جادة :

ـــ سأرسل لك إحدى الممرضات .

وهتف متسائلا:

ـــ لماذا ؟

ـــ لتحضر لك الأقراص التى تريدها .

ـــ لا أريد أية أقراص .. تفضلى أنت .. إنك أفضل من أى مهدئ ..

وأحست أن من الخطأ أن تواصل مناقشتها معه فسارت وهى تتمتم فى تجهم تحاول أن تخفى به ضحكة توشك أن تنطلق من شفتيها :

ـــ هذا شيء لا يحتمل .. غير معقول .

ومن هذا اللقاء الصاخب ـــ نشأت صداقة وطيدة بين الاثنين مقدم الصاعقة قوى الحنجرة مدعى الشراسة والنقيب « اللى زى اللوز » ..

وأجريت العملية الجراحية لإخراج الحصوة .

وأقبلت نعمت تمنحه رعايتها وعطفها رغم بعد تخصصها كباحثة اجتماعية عنه . حتى لقد ضاقت زوجته سامية بتلك الرعاية .. وأحست بنفسها أشبه بالغريبة فى وجود نعمت التى بدت وكأنها مسئولة عن تمريضه والعناية به .

وأقبلت ابنته داليا عليها فى مودة وحب تخبرها أنها تود أن تدخل قسم الصحافة عندما تأخذ التوجيهية وأنها كانت تقرأ لها بإعجاب كل ما تكتب وتسألها لماذا تركت عملها فى الصحافة .

ورد أبوها ضاحكا :

ـــ لكى تمارس علينا سلطانها وإمارتها .. كل هذا .. واترك هذا .. كأنها التركى صاحب القلل .

وبقلة ذوق ردت أمها بفظاظتها المعتادة :

ـــ ومالها هى بكل هذا أهذا هو واجبها ؟

وتمتمت نعمت فى حياء :

ـــ واجبنا أن نرعى كل المرضى .. ونعمل على راحتهم .

وعادت سامية تقول فى سماجة :

ـــ ولماذا لا تساعدين كل المرضى .

ـــ أساعد قدر ما أستطيع .. ومحمود بك يستحق خدماتنا جميعا .. إنه بطل من أبطالنا .

وأشاحت سامية بوجهها فى ضيق .

وحاولت نعمت أن تتباعد بعد هذا الحديث عن محمود .. ولكنه أرسل فى طلبها معاتبا :

ــ لماذا لا تسالين ؟

ــ أكره مناظر الغيرة ..

ــ غيرة من ؟

ــ زوجتك ..

ــ لا تأبهى لها .. لقد اعتدت سخافتها ..

ــ ثم إنك أصبحت أفضل حالا .. ولم تعد تحتاج إلى شيء ؟

ــ من قال هذا ؟

ــ أنا .

ــ ولكنى ما زلت مريضا .

ــ ماذا بك ؟

ــ أعصابى متعبة .. وأحتاج إلى علاج نفسى .

وضحكت نعمت قائلة :

ــ سنرسلك إلى مستشفى بهمان .

ــ لم أصل إلى هذا الحد .

ــ ماذا تريد إذن ؟

ــ أريد جلسات نفسية .

ــ ليس هذا اختصاصى .

ــ ما هو اختصاصك إذن ؟

ــ أنا باحثة اجتماعية .

ــ يعنى إيه ؟

ــ يعنى أبحث مشاكل المرضى ومتاعبهم وأحاول أن أساعد فى حلها .

ــ حسن .. وصلنا .. إن لدى مشاكل ضخمة .

ـــ مثل ؟

ـــ زوجتى .

ـــ ماذا بها ؟

ـــ مزعجة .

ـــ لماذا. ؟

ـــ ضاربة بوز .. دائما .

ـــ لا بد أنك تغضبها ؟

ـــ أبدا والله .. لا أفعل أكثر مما يفعل كل الأزواج ..

ـــ وماذا يفعل الأزواج .. ؟

ـــ يهربون من بيوتهم .

ـــ وماذا أيضا .. ؟

ـــ ويعجبون بغير زوجاتهم ..

ـــ أنت فعلا تحتاج إلى علاج .. لكى تبقى فى بيتك .. وتعجب بزوجتك ..

ـــ ليست هذه مشكلتى .. أنا أمضى فى الميدان ثلاثة أرباع وقتى .. وفى المدة التى أمضيها هنا .. لا تترك لى زوجتى الفرصة لأى إعجاب بها .

ـــ ما هى مشكلتك إذن ؟

ـــ مشكلتى .. إنى لا أريد أن أغادر المستشفى .

ـــ هذه مصيبة .. وليست مشكلة .

ـــ كيف ؟

ـــ ضابط مثلك فى الصاعقة .. مفروض أن يعود إلى الميدان بعد أن شفى من مرضه .. ولا يريد أن يغادر المستشفى .. هذا تمارض .. تستحق عليه الجزاء .

ـــ على أية حال .. إذا لم تكن هناك فرصة للبقاء .. وإذا لم تنبت حصوة أخرى فى الكلية ـــ فلا بد من أن أعود ثانية إلى هنا .

ـــ كيف ؟

ـ جريح ..

ـ بعد الشر .

ـ لماذا .. ؟ لقد كان المفروض أن أكون هنا برصاصة .. وليس بحصوة .. غير معقول أن ترقدنى مجرد حصوة .. فى المرة القادمة .. أعد أن أعود إليك برصاصة .. وعدينى أنت أن تبقى بجوارى طوال المدة .

وأطرقت نعمت برأسها وبدا عليها الشرود ثم تمتمت قائلة :

ـ وقاك الله شر الإصابة .. ووقانا شر التجربة .

ـ أية تجربة ؟

وأطلقت زفرة قصيرة ثم هزت رأسها كأنما تنفض عنها كابوسا وقالت له بسرعة :

ـ أبدا .. لا شىء .

ورحل محمود إلى الميدان .. فى السويس .

وبقيت نعمت فى المستشفى تمارس عملها العادى .

وأحس محمود أنه ترك شيئاً عزيزا .. أكثر من مجرد امرأة لطيفة .. عبر فى رفقتها فترة مرض .. وأكثر من أنثى جذابة .. يمكن أن تشده إلى مغامرة ..

وأحست نعمت أن الرجل القوى الحنجرة المدعى الشراسة .. قد رحل .. خلف فى نفسها شعورا بوداع شىء عزيز . ليس من السهل التسليم بفرقته .. أو نزع وجوده من حياتها .. هذا المخلوق لا يمكن أن يكون شيئا عابرا .. أبدا .

وشعرت بنوع من عزاء الفرقة وهى تلتقى بابنته داليا من حين إلى حين ..

كانت الفتاة الصغيرة تحمل الكثير من خفة دم أبيها وروحه الحلوة المرحة ونفسه الصافية ..

لم تترك أمها أبدا أثرا من بصماتها عليها ..

وأقبلت نعمت تمارس حياتها الطبيعية وسط الجرحى والمرضى تغرق نفسها فى مشاكلهم وهى تجاهد أن تنتزع من نفسها شيئا يحاول أن يشدها بعيدا ..

وبذلت جهدها فى أن تربط نفسها بعبد القادر .. تقبل عليه وتسهر معه .. فلعل وجوده بكل ما يحيط به من صخب .. يحجب عنها ذلك الشىء الملح على تفكيرها الراسب فى أعماقها .

وسألت عبد القادر وهو يرتدى ملابسه استعدادا للخروج ذات مساء :

ــ إلى أين .. ؟

ــ سأحضر استقبالا فى سفارة فرنسا .. إنك مدعوة معى .. هل تحبين الذهاب ؟

ــ ولم لا ؟

ــ إذن أسرعى بارتداء ملابسك .

ــ متى تبدأ ؟

ــ من السابعة حتى التاسعة .

ــ إذن ما زال هناك وقت ؟

ــ يجب أن أخلص منه قبل الثامنة .. لأن لدينا اجتماعا عند وزير الإرشاد .

ــ سألبس بسرعة .

وارتدت ملابسها . وقبل أن تخرج قالت لأم محمد الخادم :

ــ لن أغيب يا أم محمد .. إذا سأل عنى أحد فساكون هنا فى التاسعة .

وانطلقت بهما العربة فى شارع الجبلاية إلى كوبرى الجلاء . كانت الشمس قد انحدرت وراء الأفق وأغصان البانسيانس قد تشابكت وظللت الطريق وتناثرت الزهور الحمراء على الرصيف وغطت أرض الطريق .

كانت نعمت تحب الطريق الظليل .. تحب أشجاره المتكاتفة وزهوره الحمراء التى تظل رءوس الشجر وتفترش الأرض .. وأحست بالشىء الراسب فى أعماقها يلح على مشاعرها وبدا لها الجالس بجوارها .. بعيدا .. بعيدا ..

ذات يوم أحزنها أنها لم تستطع أن تنجب منه طفلا . ولكنها تحس الآن بارتياح أن لا شىء هناك يربطها به أكثر من مجرد رباط شكلى .. علاقة سطحية عامة ..

لا تشكل أى قيد على أحدهما .

ولقد خلصت بالبعد عن جو المجلة من الأقاويل والشائعات ومن كل ما يلاحقها من تعليقات السخرية أو العطف والرثاء التى كانت تذلها وتشعرها بالهوان .

و لم يكن الأمر يخلو من أشياء مثيرة تقذف بها إليها المصادفات .

مرة رآه أحدهم يتعشى فى شبرد مع زينات .. ومرة ثانية سألها زكى الصائغ عندما ذهبت لشراء هدية لمولود لإحدى زميلاتها عما إذا كانت الإسورة قد أعجبتها ؟

فسألته فى دهشة :

ـــ أية إسورة .. ؟

ـــ الإسورة ذات الفصوص التركواز . إنها تحفة .. لقد أخذها عبد القادر بك من أسبوع .. وكنت واثقا أنها ستعجبك .

واستدركت نعمت تقول وكأنها تذكرت :

ـــ أجل .. أجل .. كانت جميلة .

ونقلت الحديث إلى موضوع الهدية التى تريدها . خشية أن يسأل الرجل عن تفاصيل أخرى تجهلها عن الإسورة .

وكان واضحا أن عبد القادر .. اشتراها لإنسانه ما .. قد تكون زينات .. أو تكون أى أنثى أخرى .

جرأة وقحة .. أن يبتاع هدايا رفيقاته بهذه الطريقة العلنية .. لقد اعتقد الصائغ ـــ محقا ـــ أنها لها ولكن عبد القادر لم يفعلها مرة واحدة منذ الزواج حتى الآن ..

أشياء فرعية كانت تلقى بها إليها المصادفات . ولكنها كانت تحاول دائما ألا تثير جدلا حولها .. فما دام ليس هناك ما يصدمها مباشرة .. فخير ما تفعل هو التغافل .

واتجهت العربة إلى شارع السفارة .. ولم يكن فى الشارع العمودى على النيل موقف لعربة .. كان المنادون يصيحون فى ضجة ليس هناك ما يبررها .. ووضع عبد القادر عربته فى شارع مجاور ثم سار ونعمت إلى باب السفارة .

كان يبدو أن كل الشخصيات المعروفة فى مصر ، قد دعيت إلى الحفل وبعد تحية السفير وزوجته افترقت نعمت عن عبد القادر فى الزحام .. ووقفت نعمت وسط مجموعة من الصحفيين والدبلوماسيين ..

ودار حوار بين المجموعة عن استمرار الحظر الفرنسى على بيع الأسلحة وموقف ديجول الشجاع ثم انتقل إلى جريمة إسرائيل المنكرة بحرق المسجد الأقصى والضجة التي أثارتها فى العالم كله .

وانتقلت نعمت إلى مجموعة أخرى تتحدث عن فضيحة إدوارد كنيدى التى غرقت فيها سكرتيرة أخيه وهى تركب معه سيارته فى ظروف غامضة ولم يحاول إنقاذها أو حتى الإبلاغ عن غرقها وقفز الحديث بسرعة إلى جريمة أخرى من جرائم المجتمع الأمريكى هى جريمة مصرع الممثلة شارون تيت التى لقيت مصرعها وشوه جسدها وفى بطنها جنين بواسطة جماعة من الهيبز .

وبدأت التعليقات الساخرة .. وهمت نعمت بإبداء رأيها عندما سمعت صوت أحد الدبلوماسيين الذى يقف بين جماعة مجاورة يهتف باسمها « مدام عبد القادر أمين » وتلفتت فى دهشة من نداء الرجل لها .

ولكنها فوجئت بأنها لم تكن المقصودة بالنداء . وأذهلها أن الرجل يقدم الممثلة زينات شكرى عشيقة زوجها إلى المجموعة المحيطة به بأنها « مدام عبد القادر أمين » .

وازدردت ريقها .. وحاولت جهدها أن تتمالك وأن تتجاهل التقديم المهين الذى يحدث بجوارها والذى يقدم عشيقة زوجها علنا .. ومع وجودها .. على أنها زوجته .

ولكن التقديم كان قد بلغ آذان الواقفين حولها .. وانطلق أحدهم ضاحكا

وحاول البعض الآخر أن يخفى ابتسامته . واندفع أحدهم محاولا أن يشغل المجموعة بالحديث حتى يحول انتباههم عن الحماقة الجارحة التى يرتكبها الديبلوماسى بالتهليل للممثلة وتقديمها على أنها زوجة الأستاذ عبد القادر .

اندفع صاحبنا يقول :

ـــ إن ما يحدث فى الهند أمر خطير .. إن فوز جيرى الذى تسانده أنديرا غاندى على ريدى مرشح حزب المؤتمر يعتبر انتصارا لإرادة الشعب ضد التخلف .

و لم يعلق أحد .. كانت الأسماع مشدودة إلى المجموعة المجاورة والأبصار معلقة بوجه نعمت تتلمس آثار الصدمة عليها .

واستطرد الرجل يقول :

ـــ لقد كان فوز جيرى بداية لأزمة عنيفة واجهتها أنديرا .. ولكنها خرجت منها منتصرة ..

و لم يرد أحد .. وأحست نعمت أن الأبصار ما زالت ترقبها .. وكرهت أن تظل هكذا تحت الرقابة فى هذا الموقف المذل .. واسم مدام عبد القادر .. يتردد فى الجماعة المجاورة .

وكست شفتيها ابتسامة مصطنعة ثم قالت بصوت هادىء :

ـــ عن إذنكم ..

وانسحبت من بين الجماعة ..

وأحست أنها لم تعد تستطيع البقاء وسط الضجيج .. وكرهت لنفسها أن تنفعل لما أصابها من إذلال .. ووجدت نفسها تتسلل نحو الباب . ولكنها أحست باستحالة انصرافها وحدها دون أن تثير التساؤل . وتلفتت حولها تبحث عن عبد القادر فوجدته يقف فى ركن مع أحد السفراء .

اقتربت منه فقدمها إلى السفير . ورحب بها الرجل .. وحاول أن يقدم إليها مشروبا ولكنها اعتذرت ووجهت الحديث إلى عبد القادر قائلة :

ـــ ألن تنصرف ؟

ونظر إلى الساعة قائلا :

ـــ ما زال هناك وقت ..

ـــ أشعر بدوخة وأريد أن أنصرف ..

ـــ بضع دقائق .

ـــ إذا كنت تريد البقاء فسآخذ تاكسيا وأعود إلى البيت .

ـــ أبدا .. سآتى معك لأوصلك .. ثم أذهب إلى الاجتماع .

واتجها إلى الباب محيين السفير وزوجته وهى تكسو وجهها بقناع من الهدوء والابتسام .

وانطلقت بهما العربة على كورنيش النيل وهو تلوذ بالصمت وعيناها تحدقان فى أشجار الطريق .

وتساءل عبد القادر :

ـــ أما زلت تحسين بالدوخان ؟

وردت عليه بزفرة :

وكانت الأفكار تتسابق فى ذهنها . كانت تريد أن تحسم الأمر .. وأن تضع له نهاية .

لم تعد تشعر بالقدرة على مواصلة حياتها معه ..

إلى أين تذهب ؟ إلى أمها فى الإسكندرية .. وعملها فى المستشفى ؟.

ولكن لماذا لا تبقى فى المستشفى ..

إن هناك بعثة طبية ستسافر إلى الجبهة فى السويس ..

لماذا لا تسافر معها ؟ .. وتبعد عن كل شىء ؟ ..

وعندما أحس عبد القادر أنها لم ترد عليه بغير الزفرة .. عاد يسأل :

ـــ كيف حالك الآن ؟ ..

والتفتت إليه لأول مرة وسألت فى سخرية :

ـــ أيهمك أمرى ؟

ورد فى دهشة :

ـــ طبعا .. لماذا تقولين هذا ؟

وعادت تزفر ثم قالت فى نبرات هادئة :

ـــ لست أريد أن أدخل معك فى مناقشة .. ولكنى أحس أننا يجب أن نضع حدا لحياتنا معا ..

وزادت دهشته وهو يتساءل :

ـــ لماذا .. ماذا حدث ؟

ـــ أنا لم أعد أحتمل المزيد من المذلة .

ـــ أية مذلة ؟..

ـــ مذلة أن تقدم أمامى عشيقتك فى مجتمع محترم .. على أنها زوجتك .

ـــ من فعل هذا ؟.

ـــ رجل ديبلوماسى محترم .

ـــ متى ؟

ـــ وأنا واقفة فى الاستقبال .

ـــ قدم من ؟ ..

ـــ زينات شكرى .

ـــ لمن ؟

وانفجرت غاضبة وهى تردد ..

ـــ للناس .. لكل الموجودين .. وكان على أن أبتلع الإهانة .. وأن أحتمل النظرات التى تمزقنى بالسخرية ..

ـــ ولماذا يفعل الأحمق هذا ؟

ـــ اسأله ..

وصمتت لحظة ثم اندفعت تهدر كالعاصفة :

ـــ واسألها .. اسأل السيدة المحترمة .. لماذا تقبل هذا ؟

ـــ وما ذنبى أنا .. ؟

والتفتت إليه وقالت فى غيظ مكبوت :

ـــ يا أخى .. إذا بليتم فاستتروا .. ليكن لك ما شئت من عشيقات .. ولكن لماذا تدعوهن علنا .. إلى الحفلات المحترمة .. بين الناس المحترمين ..

ـــ أنا أدعوها ... إننى مجرد مدعو ..

ـــ لماذا إذن تدعونى .. وأنت تعرف أنها موجودة ؟ ..

ـــ كيف أعرف ..؟

ـــ كيف ؟ .. أتريد أن تفهمنى .. أنك لا تعرف أنها ستوجد فى الحفل .. أتريد أن تفهمنى أن‌الرجل الذى قدمها إلى الناس على أنها زوجتك .. يجسر أن يفعل هذا .. دون أن يكون هناك ما يبرره .. من تصرفك نحوها .. ومن تصرفها نحوك ؟

وزفرت فى يأس وأردفت قائلة :

ـــ يا أخى .. لقد مللت كل هذا .. ماذا يكرهنى على كل هذه المذلة ؟

ورد عليها عبد القادر فى يأس :

ـــ وماذا تريدين ؟

ـــ أن نفترق ..

ـــ اهدئى يا نعمت .. ليس هناك ما يدعو لكل هذا ..

ـــ أنا هادئة .. وقد قررت ما أقوله ..

ـــ نتفاهم غدا .

ـــ لن يكون هناك تفاهم بعد هذا .. لقد انتهينا .

ـــ سأترك البيت حتى تهدئى .

ـــ لن أهدأ أكثر من هذا .. ولن تجدنى فى البيت غدا ..

ـــ إلى أين ستذهبين ؟

ـــ إلى المستشفى ..

ـــ سآتى لك إلى المستشفى .

ـــ سأسافر غدا إلى السويس ..

ـــ السويس ؟! .. لماذا تسافرين إلى السويس ؟

ـــ فى بعثة طبية للجبهة ..

ـــ اعقلى يا نعمت .. سأترك لك أنا البيت حتى تطلبى منى العودة ..

ـــ لا داعى لأن تترك البيت . فقد قررت أنا أن أتركه ..

ـــ أستبقين فى المستشفى إلى الأبد ؟ ..

ـــ عندما أرغب فى أن أستريح .. سأذهب إلى أمى فى الإسكندرية ..

وكانت العربة قد وصلت إلى البيت وهبطت منها نعمت متجهة إلى المصعد وهتف عبد القادر :

ـــ سأحاول أن أعود مبكرا ..

وعاد بالفعل مبكرا .. ولكنها كانت قد لمت حوائجها الضرورية فى حقيبة وانطلقت إلى المستشفى فى المعادى ..

(٣)
مشاكـل صغيرة

الصباح المبكر وعربتان تطويان أرض الطريق الذى يشق الصحــراء إلى السويس ونعمت تقبع فى إحدى العربتين ترقب التبات الصفراء على جانبى الطريق . وتجتاز العربة نقطة بوليس حربى بأحد المعسكرات . ويبدو على اليسار برج قديم مهدم .

وتلتقط أذناها حديثا بين الرفاق مليئا بالدهشة والحماس عن ثورة ليبيا .. وشباب العشرين الذى يهز العالم بالإطاحة بأحد العروش المستقرة المدعمـة للقواعد العسكرية .

وقالت نعمت :

ــ إنها من أخطر أحداث ما بعد النكسة .

ــ لقد فاجأت العالم كله بما يشبه المعجزات

ــ لقد شد أزر العرب وصلب عودهم .. بعد ما توهم أعداؤهم من قصم ظهرهم بعد النكسة .

ووقفت العربة عند أحد نقط التفتيش وساد الصمت .. وانطلق ذهنها يفكر فيما خلفته وراءها وفيما هى مقبلة عليه .

لم تشعر نعمت أنها خلفت شيئا يستحق الندم عليه . لم يكن لعبد القادر أى أثر عميق فى حياتها . حتى سيئاته ــ فيما عدا الأخيرة ــ كان يمكن أن تأخذها بإحساس سطحى .. وأن تواصل سيرها معه على هامش حياته ..

ولم تكن تشعر بأن أمامها فى طريق المستقبل شيئا يثير الانفعال . لقد اعتادت

على الحياة بين الجرحى .. واعتادت الاستماع إلى مشاكلهم الاجتماعية والسعى إلى حلها . آباء مرضى مطلوب إدخالهم إلى مستشفى القصر العينى وليس هناك أماكن خالية .. وأبناء لم يقبلوا فى المدارس .. أو قبلوا فى مدارس بعيدة عن بيوتهم .. وزوجة تعمل ومطلوب نقلها إلى مكان قريب من الأسرة حتى لا تضيع دخلها الذى تحتاج الأسرة إليه فى نفقات مسكن أو أجور مواصلات .. ومسكن مطلوب منذ شهور طويلة ولا سبيل إليه .. مشاكل صغيرة بسيطة .. ولكنها من نوع السهل الممتنع .. تتعثر حلولها بين دهاليز المصالح الحكومية .. وتسترخى فى أيدى الموظفين المختصين حتى يصيب أصحابها اليأس من حلها .

و لم يكن هناك ما يثير اهتمامها .. اللهم إلا شىء كان يطل على ذهنها خلسة .. وكأنها تخشى أن تضبط متلبسة بالتفكير فيه . أو توقع وجوده ..

كان محمود ـــ صاحب الحظوة فى الكلية الذى وعدها أن يعود إليها فى المرة القادمة برصاصة والذى كان أقصى أمنيته أن ترعاه كجريح .. يراود ذهنها .. بأنه موجود هناك .. وأن اللقاء بينهما محتم ..

ولكن لماذا .. ؟

هذه الجبهة العريضة المليئة بآلاف الضباط والجنود .. لماذا يتحتم عليها أن تلقاه هو بالذات .

أهى أمنية أن تلقاه ؟ ربما ..

ولكنها قد لا تلقاه .. ربما أيضا ؟..

وبرغمها .. تسرب إلى نفسها شعور بالضيق .

واستمرت العربة تطوى الطريق .. ولاحت أطلال على يسارها علق أحدهم عليها بقوله :

ـــ هذا قصر للخديوى إسماعيل بنى لاستراحته وهو فى الطريق إلى السويس .

وعبرت العربة نقطة بوليس ثم أخرى .. وبدت بعد ذلك أشباح بيوت ومداخن وقوائم بترول ..

وأخيرا وصلت العربة إلى مقر القيادة ..

وكان فى استقبالهم بعض ضباط القيادة وبعض الأطباء .. وبدت الدور من حولهم أطلالا مهدمة .. جذر منهارة وأسقف مقوضة ومآذن مساجد محطمة وأبراج كنائس مدمرة .

لقد بدا لعينيها .. أن هنا حربا .. وأن المدينة قد دكت بالقنابل والقذائف .. وأنها قد خلت من أهلها .. إلا قلة .. كزوار المقابر فى غير موسم .

وقيل كلام لم تنصت إليه .. لعله ترحيب أو نصائح .. أو شرح لشىء ما .. كان ذهنها أكثر رغبة فى التحليق وسط المدينة المضروبة المهجورة ..

ومرة ثانية حملتها العربة من جديد مع رفاقها من الأطباء وبصحبتهم أحد أطباء المستشفى .

واستقرت فى إحدى الحجرات . تمددت برهة للراحة .. وبعد لحظة دق بابها وسألها الدكتور رمزى :

ــ هل تودين الذهاب معنا إلى بورتوفيق .. أم نتركك تستريحين ؟

ولم تكن تحس بالإرهاق .. فغادرت الفراش وأطلت من الباب قائلة :

ــ سآتى معكم ..

واتجهت العربة بهم إلى بورتوفيق . وبدت المياه أمامها وقد حسرها الجزر عن الشاطئ مخلفة الأرض المبتلة يتواثب عليها السمك .. ثم أخذت تعبر الطريق الضيق الذى دكته القنابل .. ومزيد من الدمار يحلق فوق الرءوس .. أنصاف بيوت انهارت سقوفها وبدت أسياخ المسلح كأنها عظام جثث . وسواد الحرائق يلطخ بالهباب بياض جدران البيوت والمرافق . وأكوام الحجارة والطوب تختلط بالشظايا ..

هذا جزء من بلدها .. من جسد هذا الوطن .. ومن تراب هذه الأرض .. لايكاد يشعر به الجزء الآخر .. جرح دام .. تقيح وتعفن .. ولم تنضح آلامه بعد على سائر الجسد .

وتوقفت العربة عند المدينة الصغيرة .. بورتوفيق ..

لم تجد بها أثرا لمدينة .. كانت أطلالا .. رسمتها ريشة مصور ماهر .. يريد أن يعبر عن معنى الدمار ..

وهنا وهناك يبدو بعض الجنود .. خرجوا من مخابئهم المستترة فى باطن الأرض .. ومن بعيد بدت مياه القناة الزرقاء وعلى اليمين .. بقايا الميناء .. تفترشه بعض الحصر يعلوها جندى يصلى .

وتوقفت العربة أمام مبنى مهدم وهبط الدكتور رمزى مع زميل مرافق تقدموا نحو باب المبنى هابطين إلى قبو فى المبنى وقال الزميل :

ــ هذه نقطة إسعاف أولية ..

و لم يكد الثلاثة يهبطون إلى الداخل حتى سمع صوت وقوف عربة فى الخارج وصوت يصيح :

ــ هذا بوظان.نقطة إسعاف بلا صبغة يود .

وأصابها الصوت برجفة .. كان صوت الحنجرة القوية .. التى تدعى الشراسة ..

وحاولت جهدها أن تتمالك ..

لا تستطيع أن تنكر أنها كانت تتوقع لقاءه .. ولكن ليس بمثل هذه السرعة ..

وقال الطبيب المرافق وهو يبتسم :

ــ إنه المقدم محمود عبد الله قائد الصاعقة .. لسانه زفر .. ولكن قلبه أبيض ..

وقبل أن يهبط محمود صعد الثلاثة إليه .. تتقدمهم نعمت ..

وأصاب الذهول محمود وهو ينظر إلى نعمت تصعد من قبو الإسعاف .

ــ من ؟ .. أنت ؟ ..

وابتسمت نعمت وهى تقول له :

ــ لا تنظر إلى هكذا .. كأنى شبح ! ..

وازدرد ريقه وهو يتساءل :

ـــ غير معقول .. أنت هنا ؟ ..

وبين فرحة اللقاء وصدمة المفاجأة .. والخوف اللاإرادى عليها .. صاح :

ـــ كيف .. كيف تركوك تحضرين إلى هنا ؟

قالت نعمت وهى تشعر بشىء من الخجل من هذه المظاهرة الصاخبة التى أحاطها بها :

ـــ إنى هنا فى عمل ..

ـــ عمل ؟! .. عملهم أسود ..

وانتهت صدمة اللقاء الأول .. وصحبها إلى المستشفى .. وتلكأ فى صحبتها قدر ما يستطيع .. وأجهد فكره حتى يهيئ الفرصة للقاء الآخر .. ولم يجد أمامه سوى دعوتها هى وزملائها للطعام معه .. ولكن أين ؟ .. فى مخبئه على خط النار ؟ غير معقول ..

وقال الدكتور أمين حكيمباشى المستشفى :

ـــ تتناولون العشاء كلكم بدعوة منى هنا .. أليس هذا أفضل ؟ ..

ـــ كنت أود أن أكون فى مكان آمن حتى أدعوكم أنا .. ولكن يبدو أنه لا مفر من قبول الدعوة عندك .

واستمتعت نعمت بالعشاء مع محمود .. بلهفته عليها .. وبفرحته بها .. وكأنها أمنية فى ليلة القدر .

وبدأ العمل ..

ولم تلزم نعمت المستشفى بين الجرحى .. بل انطلقت بين الجنود .

ويوما بعد يوم أحس الجنود بالارتياح لها وباتوا يشعرون أنها قد باتت جزءا من الجبهة ..

وأخذت الغارات الإسرائيلية فى الازدياد والكثافة .. وصدرت التعليمات إلى نعمت بأن تلزم المستشفى ولكنها كانت قد ألفت الميدان .. وبدأت تتنفس فيه بحرية أكثر .. واعتادت أرض المعركة .. جحور المدافع .. ومخابئ الجنود

.. وأصوات القذائف .

كانت تشعر أنها تستطيع أن تفعل الكثير لأجل هؤلاء الذين لا يقلقهم أزيز الطائرات أو دوى القنابل بقدر ما تقلقهم مشاكلهم الصغيرة التى خلفوها وراءهم .

لقيت صميدة فى خندق المدفع .. تعلو وجهه مسحة حزن وهو يمسك بكوب الشاى وبقية طاقم المدفع يضحكون .

سألته باسمة :

— أوحشتك مصر ؟ ..

تنهد فى صمت وعزم عليها برشفة شاى :

— تاخدى شاى ؟ ..

— شربت الآن فنجانا فى المدفع المجاور .

وعاود الصمت الحزين .. سألته :

— منذ متى لم تنزل مصر ؟ ..

— أتيت البارحة .

— ومع ذلك تبدو حزينا ؟ ..

وعاد يهز رأسه فى صمت وهو يرتشف الشاى .. وعادت تجاذبه أطراف الحديث .

— متزوج ؟ ..

وهز رأسه بالنفى .

— خاطب ؟ ..

— يعنى .

— ألديك مشكلة حب ؟ ..

— أبدا .

— ما بالك إذن ؟ ..

ـــ عمى الذى يعول الأسرة مريض .

ـــ بماذا ؟ ..

ـــ مهدد بالعمى .. ولا بد من إجراء عملية .

ـــ ولماذا لم يجرها ؟ ..

ـــ ذهب إلى القصر العينى بتوصية من طبيب معرفة .. ولكنه لم يجد مكانا .. قالوا له تعال بعد يومين .

ـــ وبعدين ؟! .

ـــ ذهب بعد يومين فلم يجد هناك مكانا إلا على فراش بجوار مريض آخر . فعاد إلى البيت ..

ـــ والطبيب المعرفة ؟ ..

ـــ لم يستطع أن يفعل له شيئاً . ذهبت معه .. لم يكن هناك مكان خال . قالت لى الحكيمة إنه يتدلل ويرفض أن ينام بجوار مريض آخر . قال عمى إنه من غير المعقول أن ينام بعد العملية بجوار مريض على فراش واحد . لم يكن لدى الحكيمة حل ـــ بعد التوصية ـــ سواه .. عدت معه إلى البيت . وانتهت الإجازة وهو ما زال ينتظر خلو فراش فى عنبر نمرة ١٢ فى القصر الجديد .

وكتبت نعمت اسمه وعنوانه وأخبرت صميدة أنها ستطلب من حكيمباشى المستشفى هنا أن يتصل بالقصر العينى لكى يوجدوا له مكانا . وعندما تنزل ستذهب لزيارته والتأكد من دخوله المستشفى .

واستطاعت نعمت أن تبعث الطمأنينة فى قلبه .. وانفرجت أساريره .. لم تكن مشكلته شطية قد تطيح برأسه .. وإنما فراش فى عنبر المستشفى استعصى على عمه المهدد بالعمى والذى يعول أسرة تركها صميدة فى رعايته .

وعبرت نعمة كومة من الأنقاض لتجد عبد ربه خارجا من مخبئه ليبادلها التحية باسما :

ـــ صباح الفل .

ـ صباح النور .

ـ كنت عايزك يا ست نعمت .

ـ خير يا عبد ربه ؟

ـ كنت قدمت للمحافظ على سكن من ستة شهور .. و لم يرد على ؟

ـ اكتب لى طلبا آخر .

ـ تفتكرى فيه فايدة ؟.

ـ نجرب .

ـ طلبت سكنا فى الأباجية . أو فى زينهم . قالوا لى إن المساكن كلها وزعت مع أن نصفها يؤجر بالخلو .. والعين بصيرة واليد قصيرة .. طلبت فى البساتين .. قالوا لى انتظر .. وما زلت أنتظر .. وحالتى الاجتماعية .. زواج مع وقف التنفيذ .

وضحكت نعمت قائلة :

ـ ولو أعطوك السكن ستسعد بالزواج ؟

ـ المهر مدفوع والعفش جاهز ومخزون فى بيت أبوها .. ولا ينقصنا سوى السكن .

ـ سأذهب بنفسى لمقابلة المحافظ بالطلب .

ـ ربنا يخليكى لنا . بس المهم لا تفعلى كبعض المسئولين !

ـ وماذا يفعلون ؟

ـ يأخذون الطلبات . وآدى وش الضيف .

ـ أتمنى أن أفعل كل ما يريحكم .. وربنا يوفقنى .

ـ ربنا يجعل فى وجهك القبول .. انت ست طيبة .

ـ كتر خيرك يا عبد ربه .

وجعلت تنتقل من موقع إلى موقع .. والأولاد .. كما كانت تسميهم .. يضحكون ويمرحون .. واالعابس منهم .. لا يقلقه الخطر .. وإنما تقلقه المشاكل

الصغيرة التى خلفها وراءه فى داره .. عبد الستار يهز رأسه غيظا وهو يقول لها :

ــ هو دا معقول ؟ ..

ــ اهدأ وقل ما بك .

ــ ناظرة المدرسة التى بجوار البيت .. ترفض قبول ابنى .. لأن الفصول كاملة العدد .. وأضطر أن أدخله مدرسة لا يستطيع أن يذهب إليها إلا بالمواصلات .. وتضطر أمه كل يوم أن تركب معه حتى آخر شبرا فى زحام الأوتوبيس .. هل ضاقت المدرسة على الولد ؟!

ــ أعطنى اسمه وسأبذل جهدى لإدخاله المدرسة المجاورة للبيت .

ــ لا فائدة .. لقد أخذت كارت من مدير المنطقة .. ولكنها لم تفعل شيئا .

ــ دعنى أجرب .

وجندى آخر زوجته عينت للتدريس فى بنها .. وحائر .. هل تأخذ الأولاد وتقطن فى بنها أو تبقى فى القاهرة وتسافر كل يوم ؟!

وتجلس نعمت لشرب الشاى .. والاستماع إلى مشاكلهم البسيطة .. عندما تسمع أزيز الطائرات .. ودوى القنابل .. وتنقلب الحياة إلى جحيم .. وتحس كأن الأرض كلها تنفجر .. وتنكمش فى أقرب مخبأ .. لتقرأ القرآن .. وتسأل الله اللطف والغفران .

والأولاد الذين ضجوا بالشكوى .. من أجل سرير فى مستشفى أو مسكن للزواج .. أو مكان فى مدرسة .. انطوت مشاكلهم وتبدد ضيقهم ، حل محله إحساس بالتحدى والإصرار وبرقت عيونهم وشدت أكفهم على مدفع أو دانة وتعالت أصواتهم بنداءات يتبادلونها دون أن تفهم منها شيئا .. وتظل قابعة فى مكانها .. وشفتاها تتمتم بما تعرفه من القرآن والدعوات . حتى يخفت الدوى . ويتباعد الأزيز . ويسود الهدوء إلا من انفجار هنا .. ودوى هناك .

وغادرت المخبأ مودعة أصحابه .. مؤكدة لهم أنها ستبذل كل جهدها لحل مشكلاتهم . وأنها ستستعين بكل السلطات ، وبالصحافة،ولن تهدأ حتى تقضى

حاجاتهم ..

واتخذت طريقها إلى المستشفى وهى تخوض فى الأتربة والأنقاض والشظايا عندما أحست بعربة قادمة تعلو وتهبط فى المطبات مثيرة الغبار من حولها .

وتوقفت العربة بجوارها وأحست بشبح يهبط منها . وانزاح الغبار عن محمود يقف فى مواجهتها وسألها فى دهشة :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟ ..

ـ ذاهبة إلى المستشفى .

ـ وأين كنت ؟ ..

ـ فى المعسكر .

ـ خلال الغارة ؟! ..

ـ أجل .

ـ غير معقول ! .

ـ ولماذا .. كنت أتجول بين المواقع .. وصادفتنى الغارة فهبطت فى أحد الخنادق .

ـ أنت مجنونة ! ..

ـ لماذا ؟ ..

ـ لأنها كان يمكن أن تصادفك . وأنت بعيدة عن الخنادق .

ـ ربنا ستر ..

ـ قد لا يستر مرة أخرى .

ـ ربنا كريم .

ـ كريم .. كريم . ولكن ماذا تفعلين فى المواقع ؟! .

ـ أمر على الجنود .

ـ ما شاء الله .. وماذا تركت لنا .. المفروض أن المرور للقادة .

ـ المرور لكل من يستطيع أن يؤدى خدمة للأولاد ..

ـــ وأية خدمة تستطيعين أن تؤديها أنت للأولاد ؟!

ـــ ربنا يقدرنا على خدمتهم .. إن مشاكلهم كثيرة .. وأنتم لا تعرفون عنها شيئا .

ـــ إن لديهم التعيينات . والسجائر . وتقدم لهم الوجبات الساخنة فى موعدها .. والخدمات الطبية على ما يرام . مم يشكون إذن ؟! .

ـــ يشكون من أشياء تقلقهم .. هناك فى الخلف .. فى المدارس والمستشفيات ودواوين الحكومة . وروتينها المعقد ..

ـــ كل الناس لهم هذه المشاكل .

ـــ وكل الناس يسعون لحلها ولكن عندما يقبعون فى خنادقهم على خط النار .. ويحرمون من مجرد السعى لحلها .. تتحول هذه المشاكل إلى نوع من الطنين فى رءوسهم لا سيما إذا كانوا هم وحدهم المسئولين عن حلها .. إذا كانوا آباء لصغار أو أبناء لعجزة .

ـــ وهل انتهيت من حصر المشاكل ؟ ..

ـــ ليس بعد .

ـــ لا أظنك وحدك التى ستحلين مشاكل الجبهة ..

ـــ من واجبى أن ألقاهم وأنصت إليه وأسمع .. وأسعى من أجلهم .

وكان الحديث يجرى على الطريق .. وسمع صوت عربة تقبل . فسألها محمود :

ـــ ألست ذاهبة إلى المستشفى ؟ ..

ـــ أجل .

ـــ إذن أوصلك ونكمل الحديث فى العربة .

وساعدها على الركوب بجواره . وانطلق بالعربة نحو المستشفى . وعاد محمود ليستطرد المناقشة :

ـــ كنت تقولين إن من واجبك لقاءهم .

ـــ أجل .

ـ ولكن وجودك هنا خطر ..

ـ كيف ؟ ..

ـ يعنى قد تصادفك غارة وأنت بعيدة عن الخنادق .

ـ قالوا لى أن أنبطح أرضا .

وضحك محمود قائلا :

ـ تحفظين التعليمات جيدا ..ولكن قد تصيبك شظية مباشرة فلا يجديك الانبطاح .

ـ قسمتى .

ـ سلامتك من كل سوء .. ولكن لى رجاء عندك .

ـ ما هو ؟ ..

ـ ما دمت تصرين على التجول بين المواقع .. فلماذا لا تمنحيننى الفرصة لكى أساعدك ؟!

ـ كيف ؟ ..

ـ أمر وإياك بالعربة على المواقع .

ـ أهذا معقول ؟

ـ ولم لا ؟!

ـ قائد الصاعقة بحاله .. يضيع وقته من أجل المرور مع الباحثة الاجتماعية ! ..

ـ لماذا تضعينها فى هذا الشكل ؟

ـ وكيف أضعها إذن ؟ ..

ـ نزهة سواقة .. مع فاتنة .

ـ وبعدين ؟! ..

ـ ولا قبلين .. المهم .. هل قبلت العرض ؟ ..

ـ لا أريد أن أثير الشائعات من حولنا .

ـ يا ستى ولا يهمك .

ـــ ولكن سأعطلك عن عملك .

ـــ ليس لى عمل بعد طابور الصباح .. سوى المرور وسيكون مرورى معك .

ـــ أمرك .

ـــ سأحضر فى الصباح لآخذك .. اتفقنا ؟

ـــ اتفقنا .

ورغم كل ما أصابها من قلق .. فقد كانت فى قرارة نفسها راضية .. كانت تحاول أن تنهمك فى عملها حتى تبعده عن تفكيرها .. وكانت تتجنب لقاءه جهدها .. ولكن عندما فرض عليها اللقاء .. أحست بأنه قدر ... وقدر ممتع .. فقد كانت تحس الأمان والراحة إلى جواره .. وبضعة أيام من اللقاء فى هذه الظروف القاسية .. لن يكون لها أية مضاعفات .

أمضت ليلتها فى المستشفى مع المرضى والممرضات والأطباء .. وفى اليوم التالى .. استعدت للقائه ، بشىء من الطمأنينة على شكلها ، فقد كانت تتمنى أن تكون كما حاول أن يمدحها مغازلا « فاتنة » .

وأقبلت على العربة .. فإذا به وحيدا بغير سائق .. كان هو نفسه يسوقها .. وتساءلت :

ـــ سنمر بغير سائق ؟! .

ـــ تعودت أن أسوق العربة بين المواقع بنفسى .. ألم أقل لك إنى أعتبرها نزهة مع فاتنة ..

ـــ بين الأنقاض ؟! .

ـــ ستخضر الأرض ويورق الشجر .. عندما يمر به طيفك .

وضحكت نعمت .. وتساءل محمود :

ـــ ماذا يضحكك ؟ ..

ـــ تنقلب فجأة إلى شاعر .

ـــ أقول ما أحس به .

ـ أنت لطيف .. رغم ما تحيط به نفسك من فظاظة .. وشراسة .

ـ الله يسامحك .

ـ أنت مشهور بهذا بين كل الضباط .

ـ مشهور بماذا ؟ ..

ـ بالشراسة .

ـ هم يقولون عنى هذا ؟!

وانطلق محمود بالعربة .

وقالت نعمت وهى تبصر الخرائب والأنقاض من حولها :

ـ غير معقول أن يحدث كل هذا .

ـ لماذا غير معقول .. ؟ إنها الحرب ..

ـ لا أحد فى مصر يتصور هذا .

ـ ولماذا تريدينهم أن يتصوروه ؟ ..

ـ لكى يعيشوا حياة المعركة ..

ـ تتحدثين فى بلاهة الخطباء .. لماذا تريدينهم أن يعيشوا حياة المعركة ؟! ..

ـ لكى لا تكون هناك فجوة بينهم وبين الجبهة .

وضحك محمود ثم قال :

ـ ولكن هناك فجوة واقعة فعلا فلماذا ننكرها .. نحن نشعر هنا بالدمار .. لأن هنا دمارا .. وهناك لا يشعرون بالدمار .. لأنه ليس هناك دمار .. وعندما تمتد إليهم ـ لا قدر الله ـ يد الدمار .. سيحسونه .. وسيعيشون حياة المعركة رغم أنفك وأنفى .. وأنف الخطباء ومدعى الزعامات الصغرى .

ـ ولكن .. ألا يزعج الجنود أن يجدوا المدينة تحيا حياتها بالأغانى .. والأنوار ؟

ـ أليس هذا خيرا من أن يذهب ليجد أهل بيته فى نواح وظلام .. ألم تقولى أنت إن ما يضايق الجنود هنا .. ليس خوف الشظايا .. وفزع الدوى .. ولكنها

مشاكلهم الصغيرة التى تركوها وراءهم .. ما بالك إذن لو أحس أحدهم أنه قد ترك أهله وراءه فى دمار وخراب .

وأطلقت نعمت تنهيدة ثم قالت فى نبرة خافتة :

ـــ كل ما نريده ألا يحسوا بالعزلة .. وأن يعرفوا أن قلوبنا معهم .

واقتربت العربة من المواقع .. وبدأ القلق يساور نعمت . وعادت تتمتم :

ـــ أكره اللغط والشائعات .

وضحك محمود :

ـــ خليها على الله .

وقبل أن يفرغ من كلماته . سمع الأزيز . وبدأ الدوى . وفى لمح البرق وثب محمود من العربة ثم جر نعمت من ذراعها نحو حفرة على جانب الطريق . وقبل أن يهبط فيها سمع دويا يصم الآذان . وعلا دخان كثيف .

وانبطح الاثنان على الأرض ومحمود يضم نعمت إليه .. ومضت برهة حاول محمود أن يلتقط أنفاسه وسأل نعمت وهو يلهث :

ـــ كيف حالك ؟ ..

وهمهمت بصوت خافت :

ـــ لا أدرى .

وضمها إليه فى قلق . فأحس بلزوجة الدم على أصابعه . ووجد كتفها ينزف .. ومزق كم القميص . وأصابه جزع وهو يهتف :

ـــ أصبت فى كتفك .

ـــ لا أحس بشىء .

ـــ كان يجب ألا أتركك تخرجين .

واستمر الأزيز والدوىّ .. وطلقات الرشاشات تنهال من حولهما .

وأخذ محمود يرقب السماء وهو يضم نعمت فى جزع .. وقد أحس فجأة أنها شىء عزيز لديه .. بل أعز من أى شىء .. لقد كان دائما يشعر أنها لم تكن شيئا

عابرا فى حياته . أما الآن فهو يحس أنها شىء مستقر فى حياته .. وكأنها الحقيقة الوحيدة فى حياة كلها أطياف .

وأخذ يرقب الجحيم من حوله وهو يحس بلزوجة الدم على يديه ويهمس فى جزع :

ــ متى يرحل هؤلاء الكلاب ؟!.

وفجأة دوى انفجار فى الجو . ووجد لهبا يشتعل فى السماء .

وفى وسط ارتياعه وجزعه هتف صارخا :

ــ أوقعنا طائرة .. إنها فانتوم .. ياسلام ياولاد ..

وكانت نعمت تحس بدوار .. وغثيان .. وبدأ الدوى يخفت من حولها .. وأحس محمود بجسدها يسترخى تحت ذراعيه .. وهمس بصوت يملؤه الجزع :

ــ نعمت .. نعمت ..

وبدأ إحساسه بيأس مخيف وهو يرقد بجوارها عاجزا .. لا يعرف ماذا يفعل .

وفجأة .. صمت الدوىّ .. وتباعد الأزيز ، وساد السكون .

ونهض محمود رافعا نعمت من ذراعيها ووضعها فى العربة وانطلق إلى المستشفى .

(٤)

فنجان شاى فى نقطة مراقبة

لم يكن الجرح الذى أصاب نعمت فى كتفها خطيرا فلقد مست الشظية كتفها فمزقت القميص وأصابت الكتف بجرح سطحى . وبقى محمود فى المستشفى بجوارها حتى ضمد الجرح وعادت إلى غرفتها بعد أن تمالكت قواها .

وانصرفت الممرضة بعد أن أعدت لها الفراش .

ووقف محمود يرقبها فى صمت وقد جلست فى الفراش وغطت ساقيها بملاءة بيضاء ، وبسطت على كتفيها شالا أزرق .

وتنهدت نعمت فى انتظار كلمة وداع بعد تجربة قاسية .

لم يتحدث محمود . ظل يرقبها فى صمت وكأنه قد استراح لهذا الوضع .. واستمرت تلك النظرات المسترخية فى هدوء على وجهها الشاحب .

وتحدثت هى . قالت فى نبرة ندم :

— آسفة .. على كل ما سببت لك من متاعب .

ورد فى حزم :

— من الغد سترحلين من هنا .

وأخذت بردّه وتساءلت فى ضيق :

— لماذا ؟!.

— لست أريد أن أخوض معك تجربة أخرى .

— لم أكرهك على مصاحبتى .

واستمر يتحدث وكأنه لم يسمع كلماتها المحتدة الناهرة :

ــ منذ أن تركتك فى القاهرة ، لم أكف عن التفكير فيك .. كنت أعتبر ذكريات المستشفى رصيدا من المتعة ألجأ إليه كلما استبد بى الضيق .. وعصف بى الملل .. كنت أتوق إلى رؤيتك .. وأرسم الخطط للقائك عند عودتى إلى القاهرة .. كنت أحيا بأوهامى الجميلة .. وذكرياتى الممتعة .. وعندما حضرت إلى هنا .. كانت مفاجأة ممتعة .. وحاولت جهدى أن أفتعل المناسبات .. للقائك .. ومن بينها مافعلت اليوم من صحبتك فى المواقع .

وصمت محمود لحظة .. ونظراته تتحسس وجهها .. وهى صامتة ترقب جسده الطويل وكتفيه العريضتين وقد علاه الغبار وبدا شعره مشوشا .. ومزق فى ركبة البنطلون عفر بالتراب .

واستطرد يقول فى لهجته الهادئة :

ــ ولكن عندما رقدت بجوارى فى الحفرة .. وأحسست لزوجة الدم بين أصابعى وأنا أمسك بيدى كتفك .. ووجدت جسدك يسترخى فى إغماءة تحت ذراعى . انتابنى شعور مروع لم أعرفه من قبل . شعور الذى يفقد ابنه بين يديه .. لم تكونى مجرد شىء ممتع كما توهمت من قبل .. بل أحسست بك شيئا عزيزا .. يروعنا أن نفقده .. أنا أعرف شعورى للنساء .. ليس لك عندى هذا الشعور .. إنه شىء أكثر .. خليط من شعور الابنة والحبيبة والأم ..

وأخذت نعمت بقوله .. وأصابها منه خليط من المتعة والخوف .. كانت تعجب به .. وتتوق إلى لقائه .. ولكنها لم تتوقع أنه بمثل هذه الدرجة الجارفة من الحرارة والنقاء والإخلاص .

كانت تحس بالأمانة والصفاء فى كل ما قال ..

ورغم ذلك أشارت إليه بيدها ، وكأنها تدفع خطرا :

ــ محمود .. اذهب الآن واسترح .. إنك منفعل بالتجربة المروعة .. أنا أيضا .. ارتعت من هولها .. لم يصبنى الإغماء من الجرح .. ولكن من جهنم التى كانت تحيط بى .

وبرغمه ، أخرج من أنفه زفرة سخرية وقال فى ضيق :

ـــ أية تجربة تلك التى أنفعل بها . إنى أعيشها كل يوم .. بل كل ساعة .. هذا الجحيم الذى أصابك بالإغماء .. بات حياتنا .

وصمت لحظة يهدئ فيها من لهجته .. ثم استطرد بهدوء :

ـــ اسمعى يا نعمت .. غدا سترحلين .

ونظرت إلى وجهه وحاولت جهدها أن تخفى إعجابها به ولهفتها عليه وقالت فى برود :

ـــ لست أتلقى تعليماتى منك ..

ـــ سأمنعك من دخول المعسكر .

ـــ لا تستطيع .

ـــ سترين .

ومد يده يمسك بيدها .. وقبل أن يتركها رفعها إلى شفتيه .. ومسها مسا رقيقا .. ثم مد يده ليتحسس رأسها وجبينها ثم قال فى لهجة عاتبة :

ـــ لا يسعدنى شيء كلقائك .. ولكن ليس فى هذا الجحيم .. لم أبلغ بعد من الأنانية .. حد التضحية بك من أجل متعتى .

وردت متخابثة :

ـــ ولكنى لم آت إلى هنا للترفيه عنك ..

ـــ أعرف هذا .. ولكنى أستمتع بك .. برغمك .. وبرغمى .

واستطردت تقول :

ـــ لقد أتيت لكى ألقى الجنود .. وأحل مشاكلهم .

ورد فى سخرية وهو يوشك أن يستدير ليغادر الغرفة :

ـــ أنت التى ستحلين مشاكلهم ؟!

ـــ ولم لا .. ؟

ـــ لماذا لا تدعين هذا للحكومة .. لقد حضر بعض المسئولين إلى هنا ..

استمعوا إلى الجنود .. وجمعوا كوما من المشاكل .. وما زالوا يحلون فيها حتى الآن ..

ــ واجبى أن أسمع وأحاول .

ــ أظنك سمعت ما فيه الكفاية .. غدا .. سترحلين .

وقبل أن يستمع إلى ردها .. غادر الغرفة وهو يهتف :

ــ تصبحين على خير .

وردت « وأنت من أهله » .. وهى ترقب جسده الفارع يختفى وتنصت إلى وقع قدميه على أرض الممر .. ثم وقعهما يطرقان الدرج ..

ولم يطل بقاؤها فى الفراش سوى بضعة أيام ..

وفى ذات صباح كانت تتجه بإحدى عربات المستشفى إلى الطريق الملىء بالحفر والحجارة والأنقاض .. وعند أول نقطة مرور أوقف الحارس العربة لحظة ثم أشار للسائق بالعبور .

وفى النقطة الثانية .. أوقفت العربة مرة أخرى .. وتبادل السائق والحارس بضع كلمات ثم أشار إليها قائلا :

ــ ممنوع .

ورد السائق فى دهشة :

ــ كيف ؟!

ــ الأوامر .

وعاد السائق يتساءل مستنكرا :

ــ ممنوع دخول حضرة النقيب ؟

وبعناد أجاب الحارس :

ــ أجل .

وصاح السائق :

ــ أوامر من ؟

وأحست نعمت بالحرج وهى ترى المناقشة تتصاعد بين الحارس والسائق وهى — موضوع المناقشة — صامتة لا تتدخل وبهدوء قالت نعمت للسائق :

— أرجوك يا إبراهيم .. دعنى أكلمه .

وأشارت للحارس لكى يأتى إليها .

واقترب الحارس وأدى التحية ورد بهدوء :

— أفندم .

— ألديك أوامر تمنعنى من الدخول ؟

— أجل .

— تمنعنى أنا بالذات ؟

— كل السيدات .

— ولكنى نقيب !

— ولو .

وأحست بالإهانة .. وبدا الغضب يتصاعد فى صدرها .. و لم تعرف على من تصب الغضب ..

لقد فعلها محمود ..

لقد عرضها لموقف مهين .. و لم تعرف كيف تتصرف .. هل تستسلم وتعود .. ؟ أو تصر على الدخول .. ؟

ولكن ماذا تفعل إذا أصر العسكرى على منعها .. ؟

وهل يمكن أن يستعمل سلاحه فى تنفيذ الأمر ومنعها من الدخول .. ؟ جائز ! ..

ولكن هل لمحمود الحق فى منعها .. ؟

إنها نقيب .. وليس من حق جندى أن يمنعها من دخول أى مكان .

أى مكان ؟ .. أى مكان ؟!

بالطبع لا ..

لا بد من تحقيق الشخصية .. ومعرفة الغرض ..

ولقد كان هذا هو المفروض فى أية نقطة حراسة ..

أما أن تعطى التعليمات بمنع دخول السيدات .. على الإطلاق .. فهذا غير معقول .. لماذا إذن قبلوهن فى الجيش ومنحوهن الرتب .. حتى يأتى مقدم ويعطى تعليماته بمنع دخولهن فى معسكر ما .

ثم هى قد دخلت قبل الآن .. ومرت بالمواقع الأمامية .. بل وكانت فى صحبته .

هذا غير معقول ..

ولم تستطع أن تحزم أمرها..

ولم تقبل أن ترجع .. وتبتلع الإهانة ..

ولم تستطع أن تقتحم طريقها وتقبل المغامرة التى قد تقاوم بالعنف .

وقبل أن تقدم على الاختيار .. أبصرت غبار عربة قادمة فى الاتجاه الآخر . ولم تلبث أن توقفت أمام نقطة المرور وبعد لحظة هبط منها جندى يضع على ذراعيه ثلاثة أشرطة كانت تراه دائما فى صحبة محمود .

وتساءل صلاح فى لهجة من بيده الأمر والنهى :

ـــ فيه إيه ؟

وصاح سائق العربة فى لهجة احتداد :

ـــ إنه يمنع حضرة النقيب من الدخول .

وبدا الغضب والدهشة على وجه صلاح .

لم يكن قطعا قد عرف بالأوامر .

وأقبل على الحارس فهمس فى أذنه ببضع كلمات . لم يلبث بعدها أن أدى التحية وأفسح الطريق قائلا :

ـــ اتفضل يا فندم ..

ولم تعرف نعمت ماذا قال صلاح للجندى الحارس .

ولكنها لم تشك فى أن تعليمات محمود عبد الله الحمقاء لم تصل إليه بعد .. وأنه تصرف باعتبار قدرها الذى لمسه دائما فى نفس قائده الشرس أو مدعى الشراسة .

وأقبل عليها صلاح محييا معتذرا بصوت عال :

ـــ لا مؤاخذة يا فندم .. العسكرى لا يعرف سيادتك ..

ثم خفض صوته قليلا وهو يقول :

ـــ أنت تعرفين عساكرنا .. يطبقون التعليمات بدقة ..

كانت تعرف أنه هو الذى يخالف التعليمات .. وأن محمود لو عرف لأوقع به الجزاء .

و لم تدر .. أمن الشهامة أن تتركه فى جهله وتواصل سيرها داخل المعسكر ! .. أم تخبره بأنها تعرف أنها هى المقصودة بالذات بهذه الأوامر . ؟

و كان من المستحيل بالطبع أن تقدم على الحل الأخير مهما كان فيه من شهامة .. بل لم تستطع أن تجد هناك تفسيرا مقبولا لماذا أصدر قائده أمرا بمنعها هى بالذات من دخول المعسكر ..

أتجسر أن تقول إن قائده الشديد يخشى عليها لأنه يشعر نحوها بمعزة الابنة والحبيبة والأم ؟ .

ومع ذلك فقد كرهت أن تستغل طيبة الفتى وحسن ظنه .. وتوقعه فى محظور مخالفة تعليمات قائده عمدا .. مما يكاد يكون تحديا له .

و لم تجد خيرا من التظاهر بأنها ـــ وبعد أن أفسح لها الطريق إلى المعسكر ـــ قد قررت العودة إلى المستشفى لسبب ما .

واستدارت إلى السائق قائلة ببساطة :

ـــ إبراهيم .. لا بد أن نعود إلى المستشفى الآن .. هيا ..

وصاح صلاح محتجا :

ـــ غير معقول .. لا بد أن تتفضلى .

ـــ لقد تذكرت أن لدى عملا فى المستشفى .. لا بد أن أعود لأنجزه ..

ـــ ولكن سيادة القائد سيغضب جدا إذا عرف أنهم منعوك من الدخول .

. . يا غبى .. سيادة القائد سيقتلكم إذا عرف أنكم سمحتم لى بالدخول .

وأجابت فى هدوء :

ـــ لا داعى لأن يعرف سيادة القائد بما حدث .. إنى سأعود إلى المستشفى فى سكون .

ولكن الأحمق أصر على دخولها . وأفسح لها الطريق .. وكاد يجذبها جذبا إلى عربته .

ـــ تفضلى .. اركبى سأسوق أنا حتى لا يجسر أحد على مثل هذه الحماقة ..

ووجدت نفسها تركب العربة إلى جوار صلاح وهو يهتف لسائق عربتها :

ـــ عد أنت إلى المستشفى .. وسأعود أنا بحضرة النقيب بعد أن يقوم بجولته ..

وانطلق صلاح بالعربة .. دون أن يترك لأحد فرصة الاعتراض .

وتساءل والعربة تندفع مهتزة بمطبات الطريق :

ـــ نذهب إلى الرئاسة ؟

وهزت رأسها فى حزم قائلة :

ـــ لا .. لا .. إنى أريد أن أقوم بزيارة المواقع ..

وصمتت برهة تحاول أن تمسك بالمقعد حتى تتجنب هزات العربة . ثم استطردت تقول :

ـــ ما زالت هناك الكثير من المواقع لم أزرها .

وابتسم صلاح قائلا :

ـــ ومن بينها موقعنا ..

ـــ لقد ذهبت إلى مركز رئاستكم .

ـــ أقصد نقطة المراقبة الأمامية .

وردت نعمت محاولة تجنب لقاء محمود عبد الله :

ـــ نذهب إليها بعدين .

ـــ و لم لا نبدأ بها ؟

ـــ لا أريد أن أثقل على سيادة القائد .

ـــ سيادة المقدم لا يبقى هناك عادة .. إنه يمر مجرد مرور ..

وتساءلت نعمت فى حذر :

ـــ لعله يمر بها الآن .. وأنا لا أريد أن أعطله .. إنى أريد أن أمر وحدى .. على راحتى ..

ـــ اطمئنى .. إنه الآن فى مؤتمر فى رئاسة الفرقة .

وبدا التردد على نعمت فى خوفها من لقاء محمود عبد الله .. واكتشافه أنها دخلت رغم أوامره .. وفى احتمال إقدامه على حماقة طردها من المعسكر .

ولكن صلاح عاد يلح :

ـــ سأقدم لك فنجانا من الشاى .. عندنا فى الموقع وابور سبرتو .. وشاى .. وسكر ..

وابتسمت نعمت قائلة :

ـــ شكرا .. لقد شربت الشاى الآن .

ـــ سأقدم لك قراقيش صنعتها أمى وأعطتها لى فى آخر أجازة .

وأمام إلحاح الفتى لم تستطع نعمت إلا ن تهز رأسها قائلة :

ـــ حاضر .. سأذهب معك .

وعلت وجهه ابتسامة رضا وهو يقول ضاحكا :

ـــ ثم إنه لدينا مشاكلنا نحن أيضا ..

وبدا صلاح بشعره الخشن الذى غبر التراب سواده .. ووجهه الأسمر وقميصه الذى رسم العرق آثاره على ياقته .. وقد علت البسمة شفتيه .. وشاع المرح فى قسماته .. شيء عجيب .. وسط هذا القفر والدمار المحيط به .. شيء

أشبه بعود الجهنمية النابت بأوراقه الخضر وأزهاره الحمراء من بين الأنقاض فى إشراقة تتحدى كل ما يحيط به من خراب .. شيء يؤكد تدفق الحياة .. وتحديها لكل وسائل الدمار .. وملأ نعمت إحساس بالأمومة .. التى تمنح الحياة .. وترعى النبت .. وتمنت لو استطاعت أن تضم إليها كل هؤلاء الأولاد .. الرابضين فى مواقعهم .. الضاحكين رغم كل آهات الجراح التى قد تتصاعد من بينهم بعد نوبات الجحيم التى تصب على رءوسهم .. المرحين بغير شيء يبعث على المرح .. سوى شعاع إيمان ينبع من داخلهم ليدفئ قلوبهم .. وطبيعة مرحة جبلوا عليها لا يستطيعون مقاومتها .. تضع النكتة أبدا على طرف ألسنتهم وتطلق الضحكة أبدا من أعماق صدورهم .

وأخذت العربة تقترب من شاطئ القناة .. وبدا على اليسار مبنى هوى سقفه .. وبقر باطنه .. وبدت أرضه الباركيه منثورة وسط أكوام الحجارة .

وهزت نعمت رأسها أسفا .

وقال صلاح معلقا :

ـــ الكلاب لم يتركوا جدارا قائما .. ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالونا بسوء .. لقد استحكمنا فى المواقع وهجرنا المدنيين .. فهم لا يستطيعون أن يضربوا الآن سوى الحجارة والأرض .. وذات يوم سنثأر لأنفسنا وللحجارة وللأرض ..

وردت نعمت وهى تحاول أن تبعد عن نفسها سحب اليأس التى دفعتها من حولها كل هذه الأنقاض التى تحيط بها .

ـــ إن شاء الله .. سنطردهم ونستعيد الأرض .. ونقيم كل الجدر ..

توقفت العربة .. قريبا من نفس المكان الذى وصلت إليه فى أول الزيارة .. الميناء القديم على اليمين وبجواره زاوية للصلاة فرشت بالحصير .. ودشم المدفعية .. تناثرت فى باطن الأرض على طول الشاطئ .

وسار صلاح يقود نعمت إلى موقع يبدو فى الطرف فى مواجهة الشاطئ الآخر .. وأخذ يهبط بها إلى الموقع وهو يقول ضاحكا :

ـــ المكان ليس على قدر المقام .. ولكنه الموجود .. أرجو ألا يكون الأولاد قد عبثوا بما فيه حتى يبدو مرتبا .

وصاح صلاح مناديا الجنود داخل الموقع محاولا أن يمنح صوته لهجة السلطة التى تمنحها له الأشرطة الثلاثة المعلقة على ذراعيه :

ـــ صبحى .. عطوة ..

وأقبل جنديان يهرولان « أفندم » .

ونظر صلاح إلى بقايا بصل وفتات خبز على مشمع فرش على الأرض .. وقال مستنكراً :

ـــ قلت مائة مرة لا أريد هذه الفوضى فى الموقع .

وصاح فى لهجة صارمة :

ـــ نظف هذا ..

وأسرع أحد الجنديين يرفع بقايا الطعام من فوق المشمع .

ونظرت نعمت إلى الحفرة المربعة لاتضيئها سوى فتحة عريضة ضيقة تبدو منها مياه القناة الزرقاء ورمال الحافة المقابلة للقناة وفى ركن منها استقر جهاز لاسلكى وبضعة صناديق خشبية تستعمل ما بين مقاعد ومناضد ومخازن للأكل وللثياب وفوق أحدها وضع وابور سبرتو وبعض علب صفيح . وفى الركن بدت بضعة مدافع رشاشة وصندوق للذخيرة . وفى جانب الفتحة المطلة على القناة ركب مدفع يطل بفوهته على الشاطئ الآخر .

وعاد صلاح يستحث الجنديين لإنهاء ترتيب الموقع بسرعة :

ـــ اعمل لك همة .. منك له .. قلت مائة مرة لا أريد هذا البوظان .

ثم كسا لهجته نبرة الاحترام وهو يستطرد قائلا :

ـــ سيادة النقيب يقول علينا إيه ؟

واختلس الجنديان نظرة إلى سيادة النقيب .. واستطاعا فى الضوء الذى تلقيه النافذة الضيقة أن يميزا أى نوع من النقباء قاده إليهم حضرة العريف .

و لم يدركا .. ما الحكاية ..
لماذا يزورهم سيادة النقيب ..
فى المستشفى يوجد نقباء مثله ..
ولكن هنا ؟ لماذا ؟
لعله .. يفتش على النظافة والترتيبات الصحية ..
أو لعله سيعطيهم حقنا .. أو سيشرط أذرعتهم ..
لكن النقيب لم يفعل شيئا من هذا .. بل أقبل يطل من خلال الفتحة ..
و لم يبد على العريف أنه يعد له شيئا من هذا على النقيض لقد صاح بأحدهم :
ـــ أين براد الشاى ؟
إذن فسيادة النقيب أتى ليشرب الشاى .
وأكد هذا شروع صلاح فى إجراءات عمل الشاى .
أوقد وابور السبرتو ..
صب بعض الماء من الزمزمية فى البراد الأسود .. ثم رجها فى داخله وقذف بها بعيدا ..
فى الغالب لا يغسل البراد .. بل يستعمل التفل الباقى .
ولكن من أجل سيادة النقيب .. غسل البراد .. ووضع شايا جديدا . وهو يتمتم معتذرا ..
ـــ المكان ليس قدر المقام .. ولكن إن شاء الله .. نعوضه بزيارة فى مصر ..
وضع الماء فى البراد .. والبراد على السبرتو .. واستطرد يقول :
ـــ نحن نقطن فى شارع يلبغا .. يمكن أن ندخل له من شارع شبرا .. أو من الترعة البولاقية .. ولكنه أقرب من ناحية الترعة البولاقية .
ترك صلاح البراد واتجه إلى النافذة الضيقة العريضة التى تقف وراءها نعمت .. وهو يقول لأحد الجنديين :
ـــ أصلح شكارات الرمل .

وللآخر :

ـــ أكمل تزييت السلاح .

وحولت نعمت بصرها المشدود إلى المياه الزرقاء .. وسألت صلاح :

ـــ هل أعطلكم عن أعمالكم ؟

ـــ مطلقا .. لم يكن أمامى سوى مشوار لورشة الصيانة من أجل استعجال السلاح الذى بها .. وقد مررت بهم قبل أن ألقاك على البوابة .. .

وألقى صلاح نظرة على براد الشاى ثم استطرد يقول :

ـــ يوجد حكمدار مسئول عن كل نقطة .. ومعظم وقتى أقضيه فى المرور مع سيادة المقدم أو تشهيل أشياء معطلة فى الصيانة أو المهمات .. والأمور لاتتحرك كما يجب .

ثم ضحك قائلا :

ـــ نحن نستطيع أن نجرى وراء أمورنا هنا .. أما أمورنا فى القاهرة فلا نجد من يجرى وراءها كما يجب .

وابتسمت نعمت قائلة :

ـــ أنا فى خدمتكم .. وسأبذل كل جهدى .

وعلا صوت غليان المياه فى جوف البراد . فاستدار صلاح ورفع البراد من فوق السبرتو ومد يده داخل الصناديق فأخرج كوبين صغيرين . وعلبة صفيح .. وأخذ يصب الشاى فى الكوبين ويضع السكر ويقلبه .

ومد يده داخل صندوق آخر فأخرج علبة كرتون . ثم وضع كل هذا على صندوق وجذب صندوقين آخرين . ونظر إلى الجنديين متسائلا :

ـــ تاخدوا شاى ؟

وتمتم الجنديان بالشكر وواصلا عمليهما فى إصلاح شكائر الرمل وتزييت السلاح .

وألقى صلاح نظرة رضا على المائدة التى أعدها ثم هتف بنعمت :

ــ تفضلى .

وقالت نعمت وهى ترى مائدة الصناديق والشاى والقراقيش :

ــ لماذا أتعبت نفسك هكذا ؟

ــ أنت ضيفتنا .

ــ أنا أؤدى واجبى .

ورفع صبحى رأسه عن المدفع الذى يجرى عليه يده بكهنة الزيت مختطفا نظرة إلى سيادة النقيب عله يعرف شيئا عن واجبه هذا الذى أقبل عليهم لتأديته .

وتناولت نعمت كوب الشاى ورشفت رشفة ثم بادلت صبحى نظرته المستفسرة وأدركت حيرة الجندى فأقبلت تسأله :

ــ كيف حالك يا صبحى ؟

ــ الحمد لله يا فندم .

ــ ما هى أخباركم ؟

ــ رضا يا فندم .

ــ ألا تشكو من شىء ؟

ــ أبدا يا فندم .

وأدركت نعمت أن الجندى قد تخيل أنها أتت للتفتيش من قبل القيادة .. وأدركت أن أجوبته لا بد ستتم بالرضا التام .

ورشفت رشفة أخرى وعادت تسأله فى غير كلفة :

ــ وأسرتك كيف حالها ؟

ــ بخير يا فندم .

ــ ألا يحتاجون لشىء ؟

وصمت صبحى برهة .. ينظر إليها فى دهشة ..

ماذا يستطيع سيادة النقيب أن يفعل لأهله .. و لم يستطع أن يقنع نفسه .. إن هذا النقيب يمكن أن يكون .. ذا فائدة .

— أية فائدة — له أو لأهله .

إذا كانت ستعطيهم حقنة .. فلتعطيها وتمشى .. ولا داعى لهذه الأسئلة التى لا معنى لها .

وانطلقت منه الإجابة التقليدية :

— أبدا يا فندم .. كله تمام يا فندم .

وضحك صلاح وقال لصبحى :

— اسمع يا صبحى .. سيادة النقيب لا يفتش علينا .. إنه يحاول أن يخدمنا .. قل إذا كانت لديك أية مشاكل فى البلد .

ورفع صبحى حاجبه فى دهشة .. وبدا عطوة يترك شكائر الرمل ويصغى إلى الحديث الدائر .

قال صبحى فى شيء من السخرية :

— مشاكل ؟! .

ثم صمت لحظة وقال فى لهجة يائسة :

— ليس لدينا مشاكل .. لدينا متاعب .

وأرهفت نعمت السمع .. وأقبلت تتساءل فى دهشة :

— لماذا .. خير ؟

— ومن أين الخير .. كان أبى فيما مضى ينتظر موسم القطن ليكسينا .. ويسدد القرشين اللى استدانهم ويمشى أموره .. والآن أصبح موسم القطن يحل كالقضا المستعجل .

وتساءل صلاح :

— لماذا .. ألا تبيعون القطن ؟

— نبيعه .

— ألا تقبضون ثمنه ؟

— نقبضه .

ــ إذن أين المتاعب ؟

وهز صبحى رأسه قائلا :

ــ يا شاويش صلاح .. أنت رجل من البندر .. من شبرا لاتعرف هذه الأشياء .

وابتسمت نعمت وسألت صبحى :

ــ إذن اشرح لنا .

ــ نقبض باليمين وندفع بالشمال .. ديون متلتلة .. مقاومة وتطهير .. وخلافه .. الجمعيات التعاونية .. أصبحت كالمرابى . ، لايحل الموسم إلا وقد خربت بيتنا ..

واحتارت نعمت بماذا تجيب . إن كل معلوماتها عن هذه المسائل مجرد قراءات فى الصحف .. وكان آخر ما قرأته عن الصرف المغطى ..

وبحسن نية سألت صبحى :

ــ لقد سمعت أن هناك مشروعا للصرف المغطى سيحسن الأرض ويزيد من المحصول .

وتساءل صبحى :

ــ صرف مغطى ؟

ثم استدرك قائلا :

ــ الذى أعرفه أن المصارف عندنا .. مغطاة بورد النيل .. وقدم أبى .. والشيخ زين .. وبقية أهل الناحية عريضة إلى التفتيش لتطهير المصرف .. وفى آخر إجازة لى .. كان المصرف ما زال مغطى .

ولم تعرف نعمت هل يتخابث صبحى .. أو أنه فعلا لايعرف شيئا عن الصرف المغطى .. ولم تجد بدا من إدارة الحديث إلى ناحية أخرى .. لأنها لاتعرف ماذا يمكن أن يؤديه من خدمات بالنسبة لمشاكل الجمعيات التعاونية .. ومقاومة الآفات .. والرى والصرف .

سألته :

ـــ أنت متزوج ؟

ـــ خاطب فاطمة بنت خالتى ..

ـــ ومتى تتزوجان ؟

ـــ لما أنتهى من الخدمة ..

ولم تعرف نعمت ماذا تسأله بعد ذلك .

وأنقذها صلاح عندما قال لها :

ـــ نخرج إلى الخارج لتشاهدى القناة والبحر .. ومدافع اليهود .

ووافقت نعمت وتبعته صاعدة إلى الخارج ووقف الاثنان يرقبان الأفق .. المياه والشاطئ والسماء .

أشار صلاح بيده يمنة . وهو يقول :

ـــ هذا جبل عتاقة ؟

ونظرت نعمت إلى جبال ترتفع وتمتد وواصل صلاح حديثه قائلا وهو يشير إلى بقعة تمتد أمام الجبل :

ـــ وهذه هى الجزيرة الخضراء .

ثم أشار إلى الشاطئ المقابل وهو يتنهد قائلا :

ـــ وهذا هو شاطئنا الآخر ..

(٥)

حكاية على شاطىء القناة

تنهدت نعمت وهي ترقب الشاطىء الآخر بالسد الرملي يتعالى وراءه وأشياء تتحرك فى أفقه .. وسألت نعمت وهى ترقب الأفق :

ـــ وأنت يا صلاح .. ما هى أحوالك ؟

ـــ الحمد لله .

ـــ قلت إن لديك مشاكل .

ـــ الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .

ـــ تبدو سعيدا بأداء واجبك فى الجبهة ؟

ـــ يعنى ..

ـــ يعنى ماذا ؟

ـــ لقد كان وجودى هنا مصيبة .

ـــ مصيبة على من ؟

ـــ على أمى وعلى أخواتى الصغار .

ـــ لماذا ؟

ـــ كنت عائلهم الوحيد .

ـــ ولكن العائل الوحيد لا يجند .

ـــ المفروض ! ..

ـــ وأنت ؟ .

ـــ كنت فعلا معفى من التجنيد .

— وماذا حدث ؟

— خرج أبى .

— من أين ؟

— من السجن .

— أبوك كان سجينا ؟

— أجل .. وأعفانى سجنه من التجنيد .

— وماذا حدث ؟

— حل العيد .. وأفرج عنه لحسن السير والسلوك بعد ثلاثة أرباع المدة . ولسوء الحظ كان أبى حسن السير والسلوك .. فخرج .

— خير .

— ومن أين الخير .. لقد خرج من السجن .. وجندت أنا .

— ولماذا لا يعول هو الأسرة ؟

— كيف ؟

— يعمل .

— وصحيفة السوابق ؟! .. إنها تسد طريق العمل أمامه .

— يعمل فى القطاع الخاص .

— أتوجد وظائف فى القطاع الخاص ؟ .. ولأصحاب السوابق .. الذين تضيق بهم الحكومة والقطاع العام بكل ما تأوى من موظفين .

— ألا تقبل الحكومة أصحاب السوابق ؟

— طبعا لا .. إنها فقط توردهم إلى السجون .. ولكنها لا تستعيدهم .

— ولكن .. ألا يمكن أن يعمل أى شىء .. أليس هناك أى سبيل للعمل ؟

— حاولنا أن نفتح له كشك سجاير .

— فكرة جيدة ..

— ولكنها تحتاج إلى رخصة .

ـــ ولماذا لا تحصلون عليها ؟

ـــ حاولنا فى المحافظة .

والتفت إلى صندوقين فارغين جذب أحدهما وأعد منه مقعدا وقال لها :

ـــ أتجلسين ؟

وبدا التردد على نعمت وهى تقول :

ـــ غريب أن يكون خروج أبيك مصيبة للأسرة .. ولكن .. لماذا دخل السجن ؟

ـــ هذه حكاية طويلة .. إذا كان لديك وقت أقصها عليك .. تفضلى .

وجلست نعمت على مقربة من الموقع يمتد أمامها التقاء البحر بالقناة .. ويعلو فى الأفق جبل عتاقة .. تقبع أمامه الجزيرة الخضراء .. وفى المواجهة القريبة يبدو الشاطئ الآخر من القناة .. يتحرك الجنود الإسرائيليون من ورائه .

ومد صلاح يده فجذب الصندوق الآخر واستقر عليه وقبل أن يبدأ الحديث قالت نعمت شبه معتذرة :

ـــ أرجو ألا يكون سؤالى مزعجا .

ورد صلاح وهو يرقب المياه الزرقاء .. ومن ورائها الشاطئ الآخر :

ـــ هنا لا يبدو شىء مزعجا .. سوى الانتظار دون الثأر .. ودون الأرض .. عندما ننظر أمامنا يبهت كل ما وراءنا .. يصبح كل شىء .. أطيافا وذكريات .

ثم نظر إليها وتنهد قائلا :

ـــ فى مثل هذا المكان تتحول الأحداث التى روعتنا ونغصت حياتنا .. إلى مجرد قصص تروى ..

وصمت صلاح برهة .. ثم استطرد يقول وكأنه يحاول أن يستعيد إلى ذهنه تفاصيل صورة بهتت معالمها ..

ـــ كنت فى الإعدادية وقتذاك .. وكنا كما قلت لك نقطن فى شارع يلبغا فى شبرا وكان أبى يعمل رقيبا فى الجيش .. وكانوا يسمونه وقتذاك حضرة الصول ..

وكان يعمل فى سلاح خدمة الجيش .. أو التعيينات .. بالاسم الشائع وقتذاك .. وكانت حياتنا رخية .. لم أذكر أبدا أننا شكونا من ضيق فى االعيش .. لست أدرى أكانت الحياة حينذاك أسهل .. وتكاليف الحياة أرخص .. أم أن أبى كان يستطيع أن يهيىء لنا الرخاء .. بموارد أخرى منظورة .. أم هما الأمران معا .. المهم أن حياتنا بغير شك .. كانت أفضل كثيرا مما يمكن أن تهيئه موارد صول .. مجرد صول .. رغم ما تعودته ألسنة الجيران من تسميته بحضرة الضابط .

كان الأكل لدينا بوفرة .. بل لعله كان دائما أكثر مما نحتاج .. بحيث تعودت أمى أن توزع على أخواتها ـــ خالاتى ـــ ما لدينا من مخزون الأرز والعدس والبصل والسمن .. والسكر والشاى .. الذى يحضره أبى فى الشوالات والصفائح .

وبالطبع لم يطف بذهنى وقتذاك شىء من الشبهة التى قد تخطر لى الآن بعد أن خدمت فى الجيش .. عن مصادر هذا الخزين الذى كان أبدا يكتظ به البيت .. كل ما كنت أعرفه أن حياتنا كانت سهلة .. لا أذكر أننا احتجنا إلى شىء عجز أبى عن أن يوفره لنا .. ولم تكن بالطبع احتياجات غير عادية .. أمى سيدة طيبة مدبرة .. لا يتعدى عالمها نطاق الأولاد الخمسة .. « ولدين وثلاث بنات .. أنا أكبرهم جميعا » تطعمهم وتلبسهم .. وتحميهم كل أسبوع وتدعكهم بالليفة والصابونة جيدا .. وتأخذهم إلى بيت أبيها فى « السيدة » مرة كل أسبوع ليقضوا يوم الجمعة مع جدهم وستهم .. وعندما ماتا الواحد بعد الآخر .. كانت تطلع بهم القرافة .. وتحملهم أسبتة الرحمة والفاكهة ..

وكان أبى يذهب بنا إلى السينما أحيانا .. سينما دوللى فى « الشتاء » وسينما شبرا بالاس فى « الصيف » وكان مشوار السينما أشبه بالرحلة .. نحمل فيها طعامنا .. من السندوتشات .. بحيث لا نشترى من السينما سوى الكوكاكولا .. اللب كانت أمى تجمعه من البطيخ وتحمصه .. ونأخذه معنا فى كيس إلى السينما .

وأبى رجل طيب .. حتى بعد أن دخل السجن .. وخرج منه .. شكله طيب .. لا تبدو عليه أبدا سمات المساجين .. أعنى المساجين الذين نراهم فى السينما ..

بنظرات مخيفة وأصداغ تتلاعب عظام فكيها .. بل هو أبدا .. باسم .. ناعم هادئ . حتى عندما كانت أمى تطلب منه أن يربينا .. وينهرنا لأننا نتعارك .. ونقلب البيت رأسا على عقب .. كان لايملك ألا أن يقول لنا فى لهجة معاتبة « وبعدين » أو يتساءل « مزعلين أمكم ليه ليه » .

وذات يوم نقل أبى إلى الخطوط الأمامية .

جزعت أمى فى أول الأمر ..

و لم أتصور أنا .. أن أبى يمكن أن يذهب إلى حيث يقف المحاربون يوما .. وأنا أعرف أن أبى ــ رغم ثيابه العسكرية ــ لاعلاقة له بالحرب . وأن تعامله لايتعدى مجال الطعام . أحاديثه التى تتردد فى البيت .. عن متعهد اللحم .. وعن الجراية .. (يعنى رغيف العيش) .. والرز الذى ظهر فيه عجز .. وبالات التبن التى لايجدون لها مكانا فى المخازن ..

كلها أحاديث لا علاقة لها بالحرب ..

ومع ذلك فقد نقل لأن وحدته نقلت إلى هناك ..

وأفزع غيابه عن البيت أمى .. فى أول الأمر .. فهى لم تتعود أبدا الحياة بدونه .. ولكنها بدأت تتعود النمط الجديد لحياتها .. لاسيما وأن غيابه من البيت لم يطل فى أية مرة أكثر من أسبوع فقد كان لايعدم أبدا الوسائل التى يأتى بها إلى مصر .. للصرف .. أو لاستكمال الصرف .. أو لاستعجال أوراق .. فى كل أسبوع كان له سبب للمجىء .. حتى بدأنا نشعر من جديد أنه معنا .. وكأنما يسافر لإنجاز مهمة ثم يعود ..

وفى ذات ليلة .

أذكرها ليلة صيف .. وأمى تجلس على الكنبة بجوار النافذة تمشط أختى بهية وسميرة تقرأ فى مجلة وثريا وعلى قد استغرقا فى النوم .

طرق الباب .. قالت لى أمى : افتح ..

قلت لسميرة افتحى . قالت لى سميرة افتح انت . أصررت أنا على أن تفتح هى .

شتمتنا أمى .. ودفعت بهية من حجرها وقامت لتفتح هى وبدا فى الباب الشاويش إبراهيم الذى يعمل مع أبى ..

قالت أمى :

ـــ خير يا إبراهيم .. تفضل .

وتردد إبراهيم فى وقفته بالباب قبل أن يدخل .. ثم خطا إلى الداخل .. ووقف فى منتصف الحجرة تبدو عليه الحيرة .. وتنم قسماته عن الجزع .

وعادت أمى تتساءل :

ـــ مالك يا إبراهيم ؟ .

ـــ حضرة الصول .

وصمت برهة فصرخت أمى لتستحثه على النطق .

ـــ ماله ؟

ـــ مسكوه .

و لم تعرف ماذا يعنى « بمسكوه » .

فسألت أمى فى مزيج من الدهشة والجزع .

ـــ مسكوه فين ؟

ـــ على الحدود .

وواصلت أمى الأسئلة .. تحاول أن تنزع الحقيقة من شفتى الرجل الذى يقف بيننا فى فزع وذهول .

ـــ لماذا ؟

ـــ قالوا إنه بيهرب حشيش .

ضربت أمى يدها على صدرها وصرخت :

ـــ يا مصيبتى ..

ورد إبراهيم يحاول طمأنتها :

ـــ هذا كمين .. عملوه فيه عساكر الحدود .

ـــ ولماذا ؟ .
ـــ لا بد أنهم طلبوا منه أشياء ..
وتساءلت أنا فى ذهول :
ـــ أشياء ؟ مثل ماذا ؟.
ـــ أشياء من غزة .. إن طلباتهم لا تنتهى .. وأعرف أنه دائما يحضر لهم ما يريدون .
ـــ ولكن لماذا ؟ ..
ـــ حتى لا يضايقونا عند المرور فى القنطرة .
ـــ وكيف يضايقونكم ؟.
ـــ بالتفتيش .
ـــ ولماذا يفتشونكم ؟
وضاقت أمى بالحوار الغبى الذى بدأ يدور بينى وبين الرجل وصاحت مقاطعة :
ـــ المهم .. أين عبد القادر ؟
وتردد إبراهيم برهة قبل أن يقول :
ـــ فى السجن ..
وانطلقت صرخة من أمى أشبه بالصوات التى نسمعه فى المآتم .
واستيقظ النائمان .. الصغيران من إخوتى على صوت االصراخ وهما يصرخان .
واندفع سكان الشقة المجاورة إلينا .. يتساءلون فى جزع عما حدث .. وقد ظنوا أن أحدا قد مات ..
ومنذ تلك الليلة .. لم نر أبى إلا من وراء قضبان السجن .. أو منقولا فى الطريق تحت الحراسة فى عربة السجن ..
ووكلت أمى محاميا .. دفعت إليه بعض ما توفر لديها من نقود .. وبدأت

تصحبنى إلى مكتبه بين آونة وأخرى .. لا أذكر أننا رأينا الرجل نفسه .. فقد كان يجلس وراء باب مغلق .. يجتازه إليه .. عبد الرحيم أفندى كاتب المحامى كهل طيب بشوش .. كان يحسن معاملتنا ويقبل على أمى باهتمام ورقة .

وبدأت زيارتنا لمكتب المحامى تقل .. وأخذ عبد الرحيم أفندى نفسه يزورنا .. بدوسيه الأوراق فى يده .. يشرح لأمى .. ويحدثها .. ويطمئنها ..

حتى .. صدر الحكم .. خمس عشرة سنة سجن مع الأشغال الشاقة .

جزعنا بالطبع ..

كان الأمل ما زال يراودنا فى البراءة .

كانوا يقولون .. إنه كمين من الحدود .. وإن أبى برىء ..

ومع ذلك فقد صدر الحكم .. ونفذ . وأودع أبى — كما يقولون — غياهب السجن .

روعت أمى .. فقد كان لديها أمل حتى آخر لحظة .. إنه برىء .. وإنه سيفرج عنه ويعود إلينا .

وجلس عبد الرحيم أفندى على الأريكة .. وقد بدا عليه الوجوم .. والدموع تنساب من عينى أمى وهى تقلب كفها فى يأس .

كان يخيم على البيت كله .. جو الوفاة .. والعزاء .

كانت أمى تتصرف وكأن أبى قد مات .

قال عبد الرحيم أفندى كلاما على سبيل العزاء :

— الصبر طيب يا ست علية .

وهزت أمى رأسها فى يأس وهى تتمتم ..

— من أين الصبر ؟

— ربنا كريم .

وردت أمى فى شرود وكأنها تحدث نفسها :

— إنهم خمسة .. كيف أربيهم .. لم يكن لنا سواه .

ثم رفعت كفها إلى السماء والدموع تنساب من عينيها وتساءلت :

ــ لماذا يا رب ..

وطيب عبد الرحيم أفندى خاطرها .. وأكد لها أنه فى خدمتها .. وألا تتردد فى اللجوء إليه عندما تحتاج إلى أى شىء .. ثم ختم حديثه قائلا :

ــ وإذا لم يضايقك .. أزورك من وقت لآخر .. فلعلى أستطيع أن أساعدك فى شىء .

وتمتمت أمى بكلمات شكر . وانصرف الرجل .

وبدأت تطحننا .. رحى الحاجة .. والمذلة ..

أقسى ما يمكن أن يطحن إنسان فى هذه الحياة ..

ولم تكن المسألة تحل بالدعوات والتمنيات الطيبة . كانت تحتاج إلى نقود .. نقود مستمرة .. لكى نجرى بها حياتنا .. الحد الأدنى من الحياة .

وسحبتنى أمى وبعض أخواتى .. فى مشاوير المذلة فى بيوت الإخوة والأقارب .. والأصدقاء الطيبين .

واستطعناأن نحصل على جنيه من هنا وجنيهين من هناك .. لنجمع حدا أدنى .. لدخل يمكن أن ندفع به عجلة الحياة ..

ولم تترك البيت .. كان أجره .. بعد التخفيض وتخفيض التخفيض قد وصل إلى ثلاثة جنيهات .. ولم يكن ممكنا أن نجد بيتا يسعنا .. الأم والأولاد الخمسة .. بأقل من هذا السعر فى أى مكان .

وانتقل خالى الأصغر عادل الذى كان يدرس فى التوجيهية والذى كان يعيش مع أخيه الأكبر إلى بيتنا ليحل محل رجل البيت .

وبدأنا نعرف مذلة الحاجة .. وقسوة العيش .

الطعام أضحى بقدر .. وحرمت بعض أنواعه كمظهر من مظاهر الترف .

الفطار فول مدمس .. والبيض ممنوع .. والجبن ليس صنفا إضافيا بل هو يشكل وجبة . وبرز العسل الأسود والطحينة .. كنوع أساسى من الطعام .

والفاكهة حرمت . إلا البطيخ صيفا .. والبرتقال شتاء وعندما يدخل التسعيرة .. وأحيانا ..

وكما حل الضيق بالطعام .. حل بالملبس .. البدل تقلب . وبعض ملابس أبى القديمة .. تضيق لتلائمنا . ومع نقود الشهر التى نجمعها من بيوت الأقارب .. نمنح بعض الثياب القديمة ..

مذلة .. كان علينا أن نحتملها .. ونعتادها .. وإلا جعنا .. وتعرينا .

وحملت على كتفى بعضها .. أصحب أمى فى جولتها أول الشهر أحيانا . وأذهب وحدى أحيانا أخرى .

تلقانى بسمات الترحيب . وكلمات العطف أحيانا ..

ويلقانى التبرم والضيق أحيانا أخرى .

ولكنها كلها مذلة ..البسمة مذلة .. والعبوس مذلة أحملها على كتفى مع النقود وأعود إلى أمى لأسلمها إليها وأرى فى عينيها . حيرة العاجز .. الذى عليه أن يحل لغزا أول كل شهر .

وضيق العيش .. ومذلة الحاجة .. على قسوتهما محتملة .. ولكن الشىء الذى لم أكن أحتمله حقا — رغم أنه بات اليوم مجرد كلمة أنطقها بغير مبالاة — فهو أنى ابن سجين .. وسجين لا وجه لادعاء الفخر بسبب سجنه .. فهو لم يتهم فى «قضية سياسية » بل فى مخدرات .

ولست أدرى كيف يعرف الناس خبايانا السيئة .. إن لديهم موهبة خارقة فى اكتشافها .. ومناقشتها والتمتع بالحديث عنها .. والإضافة إليها .. والمبالغة فيها .

حاولت فى بعض الأحيان . أن أقول أبى قد سافر .. أو حتى قد مات .. ولكن الجميع — حتى الذين لا أعرفهم ولا أتصور أنهم يعرفوننى — كانوا يعرفون أنى ابن سجين تهمته تهريب مخدرات .. وكان البعض يحولونها إلى سرقة .. أو إلى قتل ..

وذهبت أحمل وإخوتى عبء الحاجة والمذلة .. وسجن أبى .. وكنا نذهب

لزيارته بعض الأحيان .

أحيانا نرى وجهه الذليل اليائس .. البادى الطيبة رغم إطار الإجرام الذى يوضع فيه . وأحيانا نسمع صوته ضمن ضجيج الأصوات التى تتعالى من نوافذ السجن ونحن نقف مع أمى فى الطريق . تحاول أمى أن تدير حوارا معه يضيع وسط الأحاديث المتشابكة المتبادلة بين الطريق والنوافذ . لتسأله عن الحال ولتطمئنه على الأولاد .

ونجح خالى عادل فى التوجيهية . وسعى له بعض الأقارب فى التوظف حتى يعيننا . وأحست أمى بعض العبء يرفع عن كاهلها . وبأن جنيهات خالى ستحل محل بعض الجنيهات الشهرية المفقودة بعد أن بدأ أصحاب الإحسان من الأقارب يضيقون بنا .. وبعد أن بدأت مأساتنا تبرد فى مشاعرهم .

وأراحنا مرتب خالى عادل بعض الوقت .. حتى وقع له أمر طبيعى .. اعتبرته أمى كارثة .

حضر إليها ذات يوم يقول لها :

ــ أنا حاخطب .

ــ تخطب ؟!..

ــ أجل .

ــ من ؟.

ــ ليلى .

ــ ليلى بنت الست .. عديلة ؟

ــ أجل .

ووجمت أمى .. أحست كان مؤامرة دبرت ضدها فى الخفاء لتخطف اللقمة من فمها .

وتساءلت وهى تحاول أن تكبت غيظها :

ــ وهل اتفقتم على هذا ؟

ـــ أجل .

ـــ منذ متى ؟

ورد عادل كمن ضبط متلبسا بجريمة :

ـــ يعنى .

ـــ والست عديلة تعرف هذا ؟ .

ـــ أظن .

ـــ وأنا وحدى التى لم تعرف ؟

ـــ أنا أقول لك الآن .

ـــ بعد ماذا .. بعد أن طبختوها معا ؟

ـــ طبخنا ماذا .. أليس المفروض أن أتزوج ؟

ـــ تتزوج الآن ؟

ـــ ولم لا ..

وهزت أمى رأسها وأطلقت زفرة يائسة وهى تقول :

ـــ قسمتى ..

وانهمرت الدموع من عينيها وهى تستطرد قائلة :

ـــ منكم لله .. لم أكد أتنفس .. وأشعر أن هناك من يحمل العبء معى .. حتى يخطفوك .

ـــ لماذا تقولين هذا .. إنى لن أتركك .. سأبقى معك .

ـــ تبقى معى . بزوجتك وأولادك .

ولم تجد أمى ما تختم به حديثها والدموع تنهمر من مقلتيها سوى أن تكرر كلمتها التقليدية :

ـــ قسمتى السوداء ..

ثم تدعو له فى مرارة :

ـــ الله يسامحك .

ولم تكذب ظنون أمى .. خطب خالى .. وتزوج .. وطار .

وبقينا وحدنا .. نواصل الاستجداء .. وأعباء الحياة تتثاقل وإحساس الأهل بمأساتنا مع الزمن .. أصبح أقرب الأقرباء — إخوة أمى — يضيقون بنا .. أحسوا أن لديهم من المشاكل ما يكفيهم . وأن علينا أن نحمل عبء مشكلاتنا .

الرجل الذى لم يرخ الزمن حبال ارتباطه بنا وإقباله علينا هو عبد الرحيم أفندى .. كاتب المحامى .

لقد ازداد إقباله علينا مع الأيام .

واتخذ اهتمامه بنا . شكلا عمليا .. فيما يحمله إلينا .. من هدايا .. أطعمة أحيانا .. وأشياء تلزم للبيت أحيانا أخرى ..

وكان الرجل كهلا بادى الطيبة . بادى الرقة .

ولم أشعر مرة واحدة .. أنه خرج عن حدوده .. لفظا أو فعلا ومع ذلك فلم نسلم من لغط أثارته علاقته بنا . وإقباله علينا .. والهدايا التى يحملها إلينا .

تساءل الجيران :

— أهو قريب لهم ؟

وعندما عرفوا أنه . كاتب المحامى . بدأ اللغط .. وبدأت الشائعات ..

قالت جارتنا لأمى :

— الناس بدأوا يتكلمون ..

— عن ماذا ؟ .

— عن عبد الرحيم أفندى .

— ماله عبد الرحيم أفندى ؟

— لماذا يكثر من زيارتكم ؟

— رجل فيه الخير .

— لا يا ست علية .. إنه رجل غريب . وأنت سيدة وأم أولاد . وليس فى بيتكم رجل .. وخروجه ودخوله عليكم . ليس أمرا مقبولا .

— وماذا أفعل ؟

— لمحى له بأن يخف رجله .

— إنه رجل طيب رحيم .

— الباب الذى يأتى لك منه الريح .. سده واستريح ..

وانصرفت الجارة ..

وسمعت أمى تتمتم :

— لا ترحمون .. ولا تدعون رحمة ربنا تنزل ..

وأطلقت زفرة أسى واستطردت تقول :

— ألاقيها منين والا منين .

وزاد اللغط .. وكثرت الشائعات .

وبدأ عبد الرحيم أفندى .. يشكل لى شبحا مخيفا .

باختصار .. ورغم أنى لم أجد أمامى ما يمكن أن أؤاخذه عليه .. وأن تصرفه كان سليما مائة فى المائة .

وأنه كان يحنو علينا . كأبناء .. ويعطف على أمى .. كأخت .

إلا أن الشائعات التى أمسكت بتلابيبه .. وضعته فى صورة عشيق لأمى .. وجعلت منه عبئا آخر على كتفى ..

زادت أعباء الحياة هما جديدا .

الحاجة والمذلة .. وسجن أبى . وعشيق أمى .

وحاولت أن أصمت وأن أحتمل .. فأنا أعرف حاجتنا المذلة إلى أى شىء يرفع عنا وطأة العيش .. وأعرف ما يقدمه إلينا الرجل بما يرفع به عن أمى بعض العبء . وأعرف أنه لم يفعل — على الأقل أمامى — ما يجعلنى أحس له بكل هذه المشاعر من الضيق والسخط . بل والبغض والكراهية .

لم أكن أنقص مذلته . ، حتى يأتى ، بحق أو بوهم ليضع على كاهلى مذلة عشيق الأم ..

وكان على أن أواجه الأمر .. أو أقدم على الخلاص من الحياة .

قلت لأمى ذات مساء والكتاب أمامى يشرد بصرى بين سطوره .. أرى الحروف ولا أعى . وهى تمسك بإبرة وخيط لترتق بعض الثيابْ والإخوة قد أووا إلى فُرُشهم .

ـــ كنت أود أن أحدثك فى مسألة ..

ورفعت رأسها وبدا فى نظرتها توقع لما أنوى أن أقول .. ولكنها تصنعت الدهشة وساءلت :

ـــ أية مسألة ؟ .

ـــ عبد الرحيم أفندى ؟ .

ـــ ماله عبد الرحيم أفندى ؟ .

ـــ كثر كلام الناس عليه .

ـــ ماذا يقولون ؟ ..

ـــ يقولون كلاما سخيفا .

ـــ ومالنا وللناس . إنه الوحيد الذى يسأل علينا .

ـــ ومن أجل هذا يتكلمون .

ـــ الناس كلاب .. يأبون أن يدعونا فى حالنا .. لم يعد أحد يسأل عنا . حتى إخوتى .. لم يعد هناك من يقف بجوارنا سوى هذا الرجل الطيب .

ـــ الناس يقولون إنه ليس قريبنا .

ـــ إنه خير من القريب .

ـــ خير من القريب فى نظرك ولكنه غريب أمام الناس ..

ـــ لقد حملت عبئكم وحدى .. فليتركنى الناس فى حالى .

ـــ ولكنهم لا يفعلون .. إنهم ينهشوننا بألسنتهم .

ـــ لا يهمنى .

ـــ ولكن يهمنى أنا .. أنا ألقاهم وأسمع حديثهم .. وشائعاتهم .. وفى كل يوم

أتلقى منهم سهما فى صدرى .

وتنهدت أمى . ثم تركت الثوب من يدها ورفعت عينيها إلى وتساءلت :

ــ وماذا تريدنى أن أفعل ؟

ــ نمنعه من زيارتنا .

ــ أبعد كل ما فعله من أجلنا .. أطرده ؟

ــ من أجل سمعتنا

ــ وكيف أحمل عبئكم وحدى .. إنه يساعدنا .

ــ ولماذا يساعدنا ؟

ــ لأنه رجل طيب .

ــ ليس فى هذه الدنيا أناس طيبون . والناس لا يصدقون أنه يساعدنا لله . الناس يعرفون أنه عشيقك .

وازدردت أمى ريقها وردت فى صوت جريح :

ــ اخفض صوتك .. حتى لا يسمعك إخوتك .

ومنذ تلك الليلة لم يعد الرجل يزورنا .

كانت أمى تخرج أحيانا . و لم أعرف أين كانت تذهب .. ربما كانت تلقاه فى مكان ما ..

لم أرد أن أفكر .. كان لدى من المذلة ما يكفينى .. وكنت أحس أن على أن أقوم أنا بدور العائل فى أسرتى .. وأن أعفى أمى من كل هذا الاستجداء .

وكنت قد التحقت بمدرسة التجارة المتوسطة ووصلت إلى السنة الأخيرة .

واجتزت الامتحان النهائى .. وأصبح فى يدى شهادة .. و لم يصعب على أن ألتحق بوظيفة .

أصبحت رجلا .. موظفا .

وأبى ما زال فى السجن .

فرحت أمى بالجنيهات التى أعطيتها إياها أول مرة : ضمتنى إليها والدموع

تترقرق فى عينيها .

واستغنينا عن الاستجداء الشهرى .. الذى أخذ يتضاءل مع الزمن .. حتى استقر على بضعة جنيهات .

ولم أكتف بالمرتب .

بدأت اكتسب خبرة فى الآلة الكاتبة .

وعملت فى مكتب خاص .. استطعت أن أحصل منه على ضعف مرتبى .

وأعطيت دروسا خصوصية .

وبدأت أجمع فى آخر الشهر مبلغا محترما .. كنت أسدد به كل مطالبنا .. وحولت به مجرى حياتنا . رفعت قيد الحرمان وحطمت قضبان الحاجة والمذلة .. ومنحت إخوتى كل ما يريدون .

وطلبت فى التجنيد .

ولكننى كنت عائل الأسرة الوحيد . لأن أبى فى السجن .

ولم يعد أبى السجين يشكل سبة لنا .. أو عارا علينا .. بهتت صورته من حياتنا .. نسيه الناس .. وكدنا نحن أن ننساه ..

عشر سنوات كانت كافية .. لجعله على هامش الأسرة وفى ذات عيد ..

علمنا أنه صدر أمر بالإفراج عن المساجين الذين أمضوا ثلاثة أرباع المدة .. وكان أبى من بينهم ..

وأخيرا حضر إلى البيت ..

كان شيئا آخر ..

لم يكن هو صاحب البيت .

كان رجلا غريبا .. تملؤه المذلة وتثقله المسكنة .

وتلقيناه بفرحة .. بالطبع .

كانت نعمة أن يعود إلينا .

حتى عرفنا .. أن على أن أذهب إلى التجنيد وأن الأسرة ستفقد كل دخلها ..

وأنها ستعود مرة أخرى إلى الاستجداء .

و لم يكن هناك مفر من مواجهة الأمر بكل ما فيه من سخرية ..

لم نكن نستطيع بالطبع أن نعيده إلى السجن ..

كان على أن أذهب إلى الجيش .

وكان عليه أن يبقى ليبحث عن عمل لا أمل فيه . ليعول به الأسرة أو على الأصح .. ليلقى بها إلى هوة الحاجة والمذلة .. مرة خرى .

وكما قلت .. سدت كل السبل أمامه . بسبب صحيفة السوابق . و لم يبق أمامنا .. سوى كشك السجاير والكوكاكولا . وبدأت المحاولة الفاشلة فى الحصول على ترخيص به من المحافظة .

(٦)

حالة انهيار

صمت صلاح ، لم ينظر إلى نعمت ، بل أخذ يتطلع إلى المياه الزرقاء ..

وبدت نعمت مشدوهة .. وهى تواجه كل ما أخرجه هذا الإنسان البادى الرضا الباسم الثغر من خبايا صدره .

وأخرجت زفرة طويلة ثم قالت بهدوء محاولة أن تخفى انفعالها :

ـــ لا أعتقد أن ترخيص كشك السجاير مستحيل .

ـــ بالنسبة لى .. بات مستحيلا .

ـــ أعدك أن أبذل جهدى ، بل سأحاول بكل طريقة ، أن أجد عملا ما .. إن حقك على المجتمع ، الذى تقف للدفاع عنه أن يهيىء لأسرتك عائلا . تواصل العيش الكريم فى ظله ..

ووقفت نعمت .

كان عليها أن تواصل المرور على المواقع ، ولكن نظرة إلى الساعة فى معصمها أنبأتها أن نصف النهار قد انقضى فى نقطة المراقبة وأن عليها أن تعود إلى المستشفى.

ونهض صلاح وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة .. وكأنه لم يفرغ منذ لحظات . من نبش رفات ذكريات مريرة مليئة بالمذلة والأسى .

قال معتذرا :

ـــ وددت لو كان لدينا شىء يستحق أن أدعوك عليه للغداء .

ـــ يسعدنى أن أتناول معكم أى شىء .. وكما يقول المثل بصلة المحب خروف لكن لا بد أن أعود إلى المستشفى .

ـــ أعود بك فورا .. آسف إن كنت قد عطلتك ، أو أثقلت عليك بكلام لا يهمك .

ـــ كل ما قلت يهمنا جميعا ، نحن أسرة واحدة ، وسأحاول أن أفعل من أجلك ما أفعله لأخ لى ، وأرجو أن أوفق .

ـــ حتى إذا لم توفقى ، يكفى أنك استمعت إلى .

ـــ لقد أحسست بكل ما قلت ، كأنه مأساتى ، وإن كنت كرهت أن أثير لك أحزانا قديمة .

ـــ لقد أرحتنى ..

واستطرد وهو يتبعها إلى العربة :

ـــ لقد باتت متاعبنا جزءا منا ، نحملها على أكتافنا دون أن نشعر ، وإن كان يحلو لنا أحيانا أن نحملها للغير لنستريح من عنائها لحظة .

وجلست نعمت على المقعد بجواره وقالت بلهجة ملؤها التفاؤل :

ـــ لا تحمل هما ، سيجد أبوك عملا لائقا إن شاء الله .. وسأذهب لزيارة والدتك عندما أعود إلى القاهرة ، إذا سمحت لى ..

وكست وجهه الفرحة والتفت إليها متسائلا :

ـــ أحقا ستفعلين ؟

ـــ طبعا .. سأذهب لأطمئن عليهم وأطمئنهم عليك .

ـــ ستفرح بك كثيرا .. سترين الأولاد والبنات ، سيعجبونك كثيرا .

وغامت على وجهه فجأة سحابة هم واستطرد يقول وكأنه يحدث نفسه :

ـــ أرجو ألا يكون هناك ما يضايقهم .. لقد كنت أحاول دائما ، أن ألبى كل حاجاتهم ، كنت أريد أن أجنبهم مذلة الحاجة التى عانيتها فى طفولتى .

ـــ لا تشغل بالك بهم ، إن أباك بينهم .. وسيجد عملا إن شاء الله .

وانطلق بالعربة فى الطريق الملىء بالمطبات بين الأنقاض وفجوات القنابل وهو يتمتم قائلا :

ــ أبى لم يعد أبى .. لقد أصبح شيئا آخر ، أصبح غريبا فى البيت ، يتحرك بيننا فى خوف وكأنه يخشانا جميعا ، لقد هده السجن ، حطمه روحا وجسدا .. غيره مبنى ومعنى ، لقد عاد إلينا بغير شكله وبغير ذاته .. ابيض رأسه ، وضمر جسده ، وملأت التجاعيد وجهه ، لا يبدو فى عمره أبدا وكأن السنين العشر التى مرت به فى السجن ، مائة عام ..

ــ لا تقلق عليه ، سيستعيد صحته مع الوقت .

ــ ليست فقط صحته ، لقد فقد ذاته ، لم يعد يشعر بأنه رب هذه الأسرة ، وبأن له حق القيادة عليها ، بل لقد رسب فى نفسه إحساس ، أنه مذنب . لم يكفر السجن عن ذنبه .. بل خرج منه إليهم بذنب أكبر .. وهو حرمانهم من عائلهم .. لقد كنت أحس من نظراته دائما .. وكأنه يعتذر عن وجوده ..

ولم تعرف نعمت كيف تجيب ..

أمسكت بيدها المقعد ، حتى لا تقذف بها المطبات خارج العربة ..

وهدأ صلاح من سرعته وهو يتمتم :

ــ آسف .. إنى سائق ردىء ..

وضحكت نعمت وهى تقول :

ــ أنت عصبى .. اهدأ .

وأطلق صلاح ضحكة قصيرة من أنفه وقال :

ــ أنا هادئ ، و .. ولكن عندما أذكر الأولاد .

ــ قلت لك لا تحمل همهم . سأذهب إليهم ، وسأعتبرهم إخوتى .

ــ الله يخليك .. أنت أميرة ، لقد صدق سيادة المقدم فى كل ما قاله عنك .

وتساءلت فى شىء من الدهشة :

ــ المقدم ؟! .. وماذا قال على سيادة المقدم ؟

ــ قال إنك رجل .

وضحكت نعمت .. وردت فى سخرية :

ـــ هكذا .. ؟

ـــ إى والله .

ـــ ويعتبر هذا مديحا ؟

وتمتم صلاح فى شبه اعتذار :

ـــ تعودنا أن نصف الإنسان الشهم الجاد .. بالرجولة .

ـــ والمرأة .. عكس ذلك .

ـــ طبعا لا .. ولكنها عادة .

ـــ عادة سخيفة .

ـــ معك حق ، فلست أظن هناك علاقة بين الشهامة .. والجنس. إن هناك سيدات أرجل من الرجال ..

وضحكت قائلة :

ـــ عدت تستعمل كلمة أرجل ..

ـــ آسف ، أقصد أكثر شهامة ، على أية حال لقد قصد سيادة المقدم أن يمتدحك ، إنه يقدرك كثيرا ..

وردت نعمت بضحكة ساخرة :

ـــ كتر خيره ، وإن كان لم يتصرف معى بما يعبر عن هذا التقدير .

ـــ كيف ؟

وأحست نعمت أن من الخير للفتى أن يعرف تعليمات قائده ، حتى لا يتورط أمامه بالاعتراف بمخالفتها .

قالت :

ـــ هل تعرف أن الأوامر التى صدرت بمنعى من دخول المعسكر ، هو صاحبها ؟

ـــ غير معقول .

ـــ هذا ما حدث .

— ولكن لماذا ؟ .

— ربما لأنه لم يشعر أنى لدىّ الرجولة الكافية للدخول للمعسكر ..

— لا أستطيع أن أصدق ، إنه لا يسعده شيء كوجودك معنا ، إنى لم أره متهللا كما رأيته عندما أتيت إلينا .

— على أية حال ، لا تقل له إنك السبب فى دخولى .

— بل سأقول له .. إن وجودك بيننا حيوى .. كالشاى والسجائر .

وضحكت نعمت قائلة :

— هذا أول تقدير أسمعه من نوعه .

— ألا تعرفين أهمية السجائر هنا .. إنها أهم من الطعام عندما يتأخر تعيين السجائر .. تسود حالة قلق بين العساكر .

وعبرت العربة البوابة .

وردت نعمت تحية الحارس وهى تقول :

— لقد كان مصرا على منعى من الدخول .

— غبى .

— لقد كان ينفذ الأوامر .

— سأرجو سيادة المقدم أن يلغى هذه الأوامر ، إننا حقيقة فى حاجة إليك ، إن مشاكلنا وراء الجبهة ، تقلقنا أكثر ، أما فى الأمام ، فلا نحتاج إلا لمجرد أمر ، بالتقدم ، ولا يعود لدينا مشكلة .

— أترى الأمر بهذه السهولة ؟

— بالنسبة لنا .. أجل .

وتنهدت نعمت وتساءلت فيما يشبه الهمس :

— وأرواحكم ؟

— هنا لا نفكر فى أرواحنا ، إن عمرنا هنا ، لحظة ، نكسبه فيها ، أو نفقده .

وفكرت نعمت برهة فيما قال الفتى ..

وتمتمت هامسة :

ـــ نحن كذلك دائما ، هنا ، وفى أى مكان « قد يهون العمر إلا لحظة » .

وردد صلاح يتم بقية البيت ..

ـــ وتهون الأرض إلا موضعا ..

وصمت برهة ثم استطرد يقول فى صوت خافت :

ـــ ويظل هذا الموضع أمامنا لا نعرف قدره ، حتى تطأه قدم غريب ، فيصبح أعز ما فى الوجود .

وجاوزت العربة نقطة الحراسة الثانية .

وقالت نعمت متضاحكة :

ـــ هذا الجندى لم يمنعنى من الدخول .

ـــ لم تكن الأوامر قد وصلته بعد .

ـــ لعلها قد وصلته الآن .. ولن أستطيع فى المرة القادمة أن أعبر حتى من هنا ..

ـــ بل ستعبرين من أى مكان ، ما زال لدينا الكثير مما نود أن نقوله لك . إن مشاكلنا كثيرة .

وتساءلت ضاحكة :

ـــ أما زال لديك أنت مشاكل أخرى ؟

وهز صلاح رأسه قائلا :

ـــ يعنى ؟!

ـــ يعنى ماذا ؟

ـــ مشكلة مزمنة ، أعتقد أنها أصبحت الآن غير ذات موضوع .

ـــ ما هى ؟

ـــ مشكلة البحث عن سكن .

ـــ ولكن ألم تقل لى إن لديكم مسكنا مريحا معقولا فى شبرا ؟

ـــ إن الأولاد يكبرون .. وكنا نحشر الأولاد والبنات كلهم فى حجرة واحدة .. ولكنهم كبروا ، وضاق البيت بهم .. وكان لدىّ مشروع زواج ..

وتساءلت نعمت فى شىء من الدهشة :

ـــ ولكنكِ لم تخبرنى بشىء عنه .

ـــ إنه مجرد مشروع ، مع وقف التنفيذ .. ككل مشروعات الزواج فى جيلنا هذا ..

ـــ كيف ؟

ـــ نحتاج لسكن .

ـــ ألا يتسع بيتكم الحالى له ؟ .

ـــ طبعا لا ، إن البيت يكاد يكفى الأولادِ .

ـــ وأمك تعرف ؟

ـــ قلت لها عنه من البداية .

ـــ هل ضاقت به ؟ .

ـــ بالعكس ..

ـــ ألم يزعجها .. كما أزعجها زواج خالك ؟

ـــ كان الحال يختلف ، كنا فى يسر ، لقد كان دخلى من الوظيفة ، ومن العمل فى مكتب الآلة الكاتبة ، ومن الدروس الخصوصية ، يفيض عن حاجتنا .. حتى لقد بدأت أمى توفر مما أعطيه لها .. وكذلك فعلت أنا . ولقد لمحت لها ذات مرة أحاول أن أجس نبضها .. فأحسست منها فرحة . وتشجيعا ، كل ما كان يهمها هو أن تكون على حد قولها « بنت حلال » تأمن على فى جوارها ..

وابتسمت نعمت وتساءلت فى مزاح :

ـــ وهل كانت كذلك ؟

ـــ جدا .

ـــ كيف عرفتها ؟

ـــ زميلة فى العمل ، رقيقة كالنسمة ، وضاءة كالفجر .

ـــ تتحدث كشاعر .. أنت شاعر ..

ـــ أحب قراءة الشعر .. وأطرب لسماعه .

ـــ عجيبة ؟!

ـــ لماذا ؟

ـــ ظننت الحياة جرفتك فى مجاريها انسفلى وقد عاملتك بمثل هذه القسوة .

ـــ الحياة لا تجرف أرواحنا أبدا .

ـــ لنعد إلى صاحبتك الرقيقة الوضاءة .. هل جمع الحب بينكما ؟

ـــ طبعا ..

ـــ وكيف ؟

وضحك صلاح وأجاب :

ـــ كما يجمع بين الناس .

وصمت برهة ثم تساءل فى تردد :

ـــ ألم تجربيه ؟؟ .

وتنهدت ثم أجابت :

ـــ يعنى ؟!

ـــ ماذا تعنى بيعنى ؟!.

ـــ من منا لم يجربه ؟ .

ثم أدارت مجرى الحديث بسرعة متسائلة :

ـــ المهم .. إلام انتهى مشروعك ؟

ـــ كل شىء سار على خير ما يرام ، ورأتها أمى وفرحت بها ، وزرنا بيتهم فى شارع خيرت ، وارتاحت أمى إلى أسرتها .. وتمت الخطبة .

ـــ جميل .

ـــ وبدأت المشكلة المزمنة ، مشكلة البحث عن مسكن .

ــ ألم يكن من الممكن أن تعيشا مع أسرتها .

ــ بيتهم لايتميز عن بيتنا ، سبعة أولاد وبنات مكتظون فى الحجرات كالسردين .. بيوتنا لا تكاد تكفى من فيها .. فكيف تطلب منها أن تأوى عروسين .

ــ مشكلة حقا .

ــ ونحن نخطط لبيت .. ولأولاد مقبلين .. ولا نكاد نجد حجرة لشخصينا .

ــ وماذا فعلت ؟

ــ كما يفعل غيرى ، مجرد خطبة ، مشروع زواج مع وقف التنفيذ ، ودأب متواصل من أجل الحصول على مسكن ، حتى خرج أبى . وجندت ، وبرزت مشكلة أكبر هى أن نعيش .. نواصل العيش دون أن ينهار هيكل الحياة الذى استطعت أن أشده ليظلل الأسرة ، لقد نحيت المشكلة الصغرى جانبا . لم تعد مشكلتى البحث عن مسكن .. فقد ضمر فى نفسى إحساس بحق الزواج ، وإنشاء أسرة جديدة .. وأنا لا أعرف كيف أعول الأسرة الأصلية ، بل وبات الزواج أمرا غير معقول ، وأنا هنا أقضى جل عمرى ، إلى وقت غير محدود .. فلا أكاد أذهب لألقاها إلا مرة خلال إجازتى الشهرية .

وصمت صلاح برهة ثم قال باسما :

ــ وهكذا سأجنبك المشكلة الصغرى .. من أجل المشكلة الكبرى لم أعد فى حاجة إلى مسكن .. بقدر حاجتى إلى كشك سجائر .

وتحولت ابتسامة إلى ضحكة أشبه بالقهقهة .

ولم تجد نعمت ما تقوله سوى الدعوات .. فتمتمت قائلة :

ــ أسأل الله أن ينصرنا .. ويعيدك وإخوانك سالمين إلى بيوتكم ..

وقال صلاح ضاحكا :

ــ بينى وبينك .. هنا أريح .. مشاكلنا هنا بسيطة .. السجائر قد تتأخر أحيانا ، ولكنها تأتى ، الصيانة قد تؤخر إصلاح العربات ، أو السلاح ، ولكن

الملاحقة بالشكوى ، تعجل تسليمها إلينا .. الأمور تسير ، وكما قلت لك لا يبقى أمامنا سوى إشارة .. ونتحرك لنؤدى واجبنا . ونفعل ما يجب فعله .. ولا يبقى لدينا ما نقدمه سوى أرواحنا .. وهى — بينى وبينك أيضا — لا تشغل من فكرنا الكثير .. فمصيرها ، يحدده مسار طلقة .. أو شظية يحولها القدر أنملة ، يمنة .. أو يسرة لتخطف الروح أو تبقيها .. ويصبح عمرنا ، كما قلت لك ، لحظة ، هى أوج العمر أو نهايته .

ومرة أخرى انطلقت من شفتيه قهقهة ساخرة .. وهو يستطرد قائلا :

— لحظة تفرض علينا .. البقاء .. أو .. الاستشهاد ، نحن لا نستشهد برغبتنا .. إنه قدر ، يفرضه علينا ، مسار شظيه أو طلقة لتعبرنا .. أو تستقر فى أجسادنا .. لتجعلنا إما أناسا عاديين ، مجرد جنود عائدين من معركة .. أو تضعنا فى سجل التاريخ أبطالا !!

وصمتت نعمت وهو يسائلها:

— أليس كذلك ؟

لم تعرف بماذا تجيب .

وقبل أن تقول شيئا . بدا جندى فى الطريق يلوح للعربة ..

ضغط صلاح على الفرامل ، وانقشع الغبار الذى أثارته العربة ليبدو جندى أسمر طويلا نحيلا وهو يقترب من العربة .

وميزه صلاح وسأله فى شىء من الدهشة :

— ما الذى أحضرك إلى هنا يا عبد العزيز ؟

— أريد الذهاب إلى المستشفى .

— ألم تذهب فى الصباح ؟

— أجل ..

— وكشفوا عليك ؟

— أجل ..

— وماذا قالوا لك ؟

ورد العسكرى فى تبرم :

— قالوا إنه ليس بى شىء .

— إذن فلماذا تذهب ثانية ؟

— لأنى متعب .

— ولكنهم قالوا لك إنك ليس بك شىء ..

— ولكنى أحس أننى متعب .

— اركب .

— وركب عبد العزيز فى المقعد الخلفى .

وعاد صلاح يسأله .

— ماذا بك ؟

— أنا تعبان ..

— تعبان .. من ماذا ؟ .

— لا أستطيع البقاء فى الموقع .

— وماذا تريد ؟.

— أريد النزول .

ونظر إليه صلاح وتساءل فى دهشة :

— ألم تأت من الإجازة منذ بضعة أيام ؟

— أجل .

— وماذا تريد إذن ؟ .

ورد عبد العزيز فى عصبية شديدة :

— أريد النزول .

ونهره صلاح بعنف قائلا :

— أجننت .. أتظنها فوضى ؟ .

وكانت العربة قد اقتربت من المستشفى وهدأت لتقف بالباب .

ونزلت نعمت وصلاح ليودعها .. وهم عبد العزيز بالنزول .. لكن صلاح نهره قائلا :

ـــ اجلس كما أنت ..

وتدخلت نعمت قائلة فى حزم :

ـــ دعه يا صلاح .

ـــ ولكن ليس به شيء ..

ـــ سنرى ما به .

ـــ إنه يتدلع ..

ـــ دعه لى ..

ـــ حاضر ..

ثم نظر إلى العسكرى وقال فى لهجة صارمة :

ـــ إذا لم يكن بك شيء .. ستعود .

وأجاب عبد العزيز فى إصرار :

ـــ سأنزل ..

ـــ ستسجن .. خد بالك جيدا .. لا تودى نفسك فى داهية .

وتدخلت نعمت قائلة :

ـــ دعه لى يا صلاح .. أنا مسئولة عنه .

ووقف صلاح منتصب القامة يؤدى التحية العسكرية وهو يقول :

ـــ أمرك يا أفندم .

ثم مد يده ليصافح اليد الممدودة إليه وهزها فى انفعال وهو يقول :

ـــ متشكر يا فندم .. متشكر جدا .

ـــ لا تقلق بالك بشىء .. سأفعل كل ما أستطيع .. وأرجو أن أوفق .

ـــ ألف شكر .. مع السلامة يافندم .

— الله يسلمك .

وعبرت نعمت باب المستشفى وهى تشير إلى عبد العزيز أن يتبعها قائلة :

— تعال ..

ورد عبد العزيز عليها بعصبية وأصرار :

— أريد أن أنزل .

وردت عليه نعمت بهدوء :

— ستنزل .. ستأخذ كل ما تريد .. فقط اهدأ .

وصعدت نعمت بضع درجات مفضية إلى الباب وهى تسأل عبد العزيز :

— أكنت هنا فى الصباح ؟

— أجل ..

— ومن كشف عليك ؟

— الدكتور السمين .

— وماذا قال لك ؟

— قال لى ليس بك شيء .. ولكنى أريد أن أنزل ..وإن تدعونى أنزل .. سأهرب .. وأسير حتى القاهرة .

— لا داعى لكل هذا . سأحصل لك على إذن بالنزول .. ولكنى أريدك أن تستريح وتهدأ .

واتجهت نعمت إلى حجرة الطبيب النوبتجى ..

وخرج إليها النقيب رشاد مرحبا :

— أهلا نعمت .. أين كنت ؟

— كنت فى المواقع .

— كان هنا من يسأل عنك ؟

— من ؟

— المقدم محمود عبد الله .

ـــ متى ؟

ـــ منذ لحظات .

ـــ وأين هو ؟

ـــ كان هنا الآن .. واتجه إلى الميس .

وأحست نعمت بضربات قلبها تتلاحق . وتمنت لو استطاعت أن تدورلتلحق به قبل أن يغادر المستشفى . ولكن كان عليها أن تنتهى من أمر عبد العزيز ولو مؤقتا .

والتفتت إلى رشاد وهى تشير إلى عبد العزيز وقالت فى صوت حاولت أن تكسبه ما استطاعت من هدوء :

ـــ أرجو أن تدخل المستشفى ..

ـــ ماذا به ؟

ورد عبد العزيز .. بحدة :

ـــ أريد النزول ..

ونظر إليه رشاد فى غضب وتحد .. ولكن نعمت نظرت إليه نظرة ذات معنى ثم قالت لعبد العزيز :

ـــ قلت لك ستنزل يا عبد العزيز .. ولكنى أريدك أن تستريح قليلا .. حتى نتحادث معا ..

وزفر عبد العزيز زفرة ضيق ثم قال :

ـــ حاضر ..

وأشار رشاد إلى أحد الممرضين قائلا .

ـــ اكتب له أورنيك عيادة .. وأدخله المستشفى .

وقالت نعمت وهى تربت على كتف عبد العزيز :

ـــ ادخل يا عبد العزيز واسترح .. حتى أعود إليك ..

وتساءل عبد العزيز فى لهجة متوسلة :

ـــ وهل سأنزل ؟

ـــ أجل .. لقد وعدتك بذلك .. فلا تقلق .

ووجهت نعمت الحديث إلى الجندى الممرض قائلة :

ـــ دعوه يستريح حتى آتى له .

ـــ حاضر يا فندم .

وسار الممرض يتبعه عبد العزيز .

وسألت نعمت رشاد :

ـــ منذ متى سأل عنى المقدم محمود عبد الله ؟

ـــ حالا .. من بضع دقائق .

ـــ إذن سأذهب للحاق به .. ثم أعود إليكم .. خذ بالك من العسكرى .. لا تدع أحدا يسىء معاملته .

ـــ لا تقلقى عليه سأرعاه بنفسى .

واتجهت نعمت فى الممر المؤدى إلى مبنى الميس فى خطى مسرعة محاولة اللحاق بمحمود قبل أن يغادر الميس .. وقبل أن تعبر باب العيادة .. وجدت محمود يخرج من باب الميس و لم يكد يراها حتى هتف بها :

ـــ غير معقول .. لقد دخت فى البحث عنك .. أبن كنت ؟

وببساطة أجابته :

ـــ كنت فى المواقع ؟ .

وتساءل غير مصدق :

ـــ أى مواقع ..؟

ـــ المواقع الإسرائيلية .

تكلمى جد ..

ـــ ماذا أقول لك .. كنت فى مواقعنا .

ـــ غير معقول ؟

ـــ لماذا ؟ ..

ـــ لأنه .. لأنى ..

ـــ لأنك أعطيت أوامر بعدم دخولى ..

ونظر إليها محمود وعلى شفتيه شبح ابتسامة دون أن يجيب وعادت تسأله قائلة :

ـــ ألم تفعل ؟

ـــ أجل ..

ـــ لماذا ؟ .

ـــ لأنى لا أريد أن تتعرضى لتجربة أخرى .

ـــ أنا مسئولة عن نفسى ..

ـــ وأنا مسئول عنك .

ـــ لا دخل لك بى .

ـــ كيف ؟ ..

ـــ أنت مسئول عن قواتك . وأنا لا أتبعك .

ـــ أنا مسئول عنك أمام نفسى .. أنت أهم شىء عندى فى هذا الوجود ..

ـــ كف عن هذا الكلام . فنحن فى مكان عام .

ـــ إذن نذهب إلى مكان خاص .

ـــ بل ستتفضل وترينى عرض أكتافك .

ـــ اهدئى .. ولا تكونى عنيدة .. ألك جدة تركية ؟

ـــ هذا ليس شأنك .

ـــ إذن نتحدث على رواقة .. نتفاهم .

ـــ ليس بيننا تفاهم مرمطتنى أمام الجنود .

ـــ كيف ؟

ـــ منعنى عسكرى الحراسة من الدخول .

ــ إذن فكيف دخلت ؟

ــ أنقذنى صلاح ..

ــ هو الذى أدخلك ؟ .

ــ أجل ..

ــ سأخرب بيته .

ــ إياك أن تمسه بأذى .. لقد أدهشه أن يجد العسكرى يمنعنى من الدخول . وأحس أنك ستغضب من هذا الجرم .. ولم يعرف أنك صاحبه .

وضحك محمود ثم قال فى رفق :

ــ أنا أخشى عليك ..

ــ لا أريد شفقتك السخيفة . التى تضعنى موضع الهزء .

ــ أنا آسف . وأعتذر .. ولكن دعينى أرافقك فى جولاتك ؟ ..

ــ غير معقول .

ــ لماذا ؟

ــ سنجعل الجبهة كلها تتحدث عنى وعنك .

ــ ينفلقم .. أنا لا يهمنى .

ــ ولكن يهمنى أنا .

ــ أمرك .. سأفعل كل ما تريدين .

ونظرت نعمت إليه وبدأت الابتسامة ترتسم على شفتيها .

وضحك محمود ثم قال :

ــ أجل .. هكذا .. ليس هناك على الأرض أجمل من ابتسامتك ..

ــ وبعدين ؟ ..

ــ متأسف .

ــ والآن ماذا تريد ؟

ــ أريد أن تدعينى للغداء ..

ـــ الميس تحت أمرك .

ـــ أريد دعوة خاصة ..

ـــ ولكن لدى الآن عملا .

ـــ أين ؟ ..

ـــ هنا فى المستشفى .

ـــ من أى نوع ؟

ـــ عسكرى فى حالة انهيار عصبى .. ويريد النزول .

ـــ اتركيه لى ..

ـــ ماذا ستفعل به ؟

ـــ سأكتب له أورنيك ذنب .. وأحكم عليه بالسجن .

ـــ غير معقول .. ليس هكذا يعامل البشر .. أنت قاس .

ـــ وأنت بلا تجربة .

ـــ إذن دعنى أجرب .

ـــ افعلى ما تشائين .. ولكن فقط ادعينى للغداء ..

ـــ تفضل ..

وتناولت نعمت الغداء مع محمود .. وقبل أن تودعه للذهاب إلى عبد العزيز اتفقت معه على لقاء فى الصباح ليصاحبها فى جولتها بين المواقع .. بعد أن قال محمود فى حزم :

ـــ إما أن أصحبك . أو ستمنعين من الدخول . وفى هذه المرة لن يفلح أحد فى تهريبك إلى المعسكر .. فاهمه ؟

ـــ فاهمه ..

(٧)

مشكلة فى جوف سعدية

جلست نعمت فى حجرة الطبيب النوبتجى . وجلس أمامها عبد العزيز وقد بدا عليه القلق والإرهاق .

قالت نعمت :

ــ والآن ، اهدأ ، واحك لى عن كل ما بك .

ورد عبد العزيز فى عناد وإصرار :

ــ أريد أن أنزل .

ــ لماذا ؟ ..

ــ هناك أشياء هامة لا بد أن أقوم بها .

ــ لأسرتك ؟

ــ ليس بالضبط .

ــ ألا يستطيع أحد أن يقوم لك بها ؟

ورد عبد العزيز فى حزم قاطع :

ــ لا ..

ــ ألا أستطيع أنا مثلا أن أساعدك فيها ..

وأجاب بحدة :

ــ طبعا لا .

ــ لا تغضب هكذا ، إنى أريد أن أساعدك .

ــ لا يمكنك ..

ــ لماذا ؟!

ــ إنها أشياء تخصنى أنا .. وأنا وحدى الذى أستطيع أن أنجزها .

ــ ألا أستطيع حتى أن أعرفها . لعلنى أساعدك فى التفكير فى إنجازها .

ــ المسألة لا تحتاج إلى تفكير . لقد فكرت وانتهيت .. وسأنزل لأفعلها .

ــ ولكن .. !

ــ إذا لم يسمحوا لى بالنزول ، سأخرج الآن .. وأسير حتى القاهرة ، وليفعلوا بى ما يشاءون .

ــ لا أظن المسألة تحتاج لكل هذا .. فإذا كان لديك فعلا .. ما يحتم نزولك إلى القاهرة ، فيجب أن يسمحوا لك بالنزول .. فقط .. لو أعرف شيئا عن مشكلتك ، فلا جدال أنه سيساعدنى على إقناعهم بالسماح لك بالنزول .

وساد الصمت برهة .. وعادت نعمت تقول فى لهجة حانية :

ــ قل .. ماذا بك .. اعتبرنى أختك ، لماذا تريد أن تنزل ؟

زفر عبد العزيز فى نفاد صبر وأجاب فى حسم :

ــ لأتزوج ..

ورفعت نعمت حاجبيها فى دهشة .. وجاهدت لكى تكتم ضحكة أوشكت أن تفلت من شفتيها ..

كان رد عبد العزيز آخر ما تتوقع ! ..

لم يخطر ببالها أبدا أن مشكلة الفتى الملحة .. التى يريد أن ينزل فورا من أجلها .. هى الزواج .

وتساءلت فى هدوء :

ــ ألم تكن فى إجازة قريبة ؟

ــ أجل .

ــ لماذا لم تتزوج إذن .. إذا كانت المسألة ملحة بهذا الشكل ؟

ــ كنت أحمق .

وصمت عبد العزيز لحظة ثم عاد يقول بلهجته العصبية الملحة :

ـــ لا بد أن أنزل ..

وردت نعمت تحاول تهدئته :

ـــ ستنزل إن شاء الله .. سأبذل كل جهدى لإقناع المسئولين وإن كنت لا أعلم هل الزواج يمكن أن يكون سببا كافيا .. لإجازة استثنائية .. أو لا ..

ونظرت نعمت إلى الوجه الأسمر النحيل المتوتر القسمات الزائغ النظرات واستطردت لتسأل :

ـــ من الذى يملك منحك الإجازة ؟

ـــ سيادة المقدم .

ـــ المقدم من ؟

ـــ محمود عبد الله .

وتذكرت ما قاله محمود عن رأيه فى كيفية معاملة عبد العزيز وأمثاله .. تذكرت ما قاله عن أورنيك الذنب والسجن وعادت تقول لعبد العزيز :

ـــ لو أنى أعرف فقط بعض التفاصيل .. إنى مقتنعة بضرورة نزولك مهما كانت الأسباب ،إن مجرد رغبتك فى النزول كافية فى نظرى للسماح لك بالإجازة .. ولكن .. لا أظن ذلك يمكن أن يكون مقنعا لسيادة المقدم .. فلماذا لا تشرح لى الأمر .. فلعلى عندما أفهم الموضوع أكون أكثر قدرة على إقناعه .

وساد الصمت برهة ..

قطعته نعمت بقولها فى رفق وثقة :

ـــ اهدأ يا عبد العزيز .. وثق أنك ستنزل ، وإذا شئت أن تحدثنى ، فتكلم .. وإذا لم تشأ فاذهب الآن لتستريح .. وسأحاول الاتصال بسيادة المقدم .. وغدا سأحصل لك على تصريح بالنزول ..

وأطلق عبد العزيز زفرة طويلة .. أخرج معها بعض ما أثقل كاهله وأنقض ظهره .. واسترخى فى مقعده ..

وقالت نعمت تستحثه على الحديث :

ـــ استرح يا عبد العزيز .. وقل .. ماذا بك ؟

ورد عبد العزيز وقد شرد ذهنه وكأنه يحدث نفسه :

ـــ كنت جبانا ..

ـــ لاتقل هذا .. كلكم شجعان ..

ـــ لا أقصد هنا . الشجاعة هنا ليست مشكلة .. نحن نتعجل الوثوب عليهم .. نتعجل الثأر ، إنه قدرنا المحتوم ..

ـــ كيف إذن كنت جبانا ؟

ـــ هناك .. معها ..

ـــ مع من .. ؟

ـــ مع سعدية .

ـــ سعدية من ؟

ـــ التى تحمل ابنى فى بطنها .

وبدت المسألة على شيء من التعقيد بالنسبة لنعمت .

وصمت عبد العزيز وكأنه شرح كل شيء ..

تساءلت نعمت فى صوت رقيق :

ـــ أهى زوجتك ؟

ـــ طبعا لا ..

ـــ وابنك فى بطنها ؟

ـــ أجل .

ـــ قبل أن تتزوجها ؟

ـــ أجل .

ـــ ولماذا لم تتزوجها ؟

ـــ لأنه ، لأنه ، لم يكن هناك داع لذلك .. كان كل شيء ممكنا بغير زواج ..

ــ وهى رضيت بذلك ؟

ــ طبعا .. كانت المسألة طبيعية بالنسبة لها .. لم أكن وحدى .

ــ لم تكن وحدك ؟

ــ أعنى فى أول الأمر .. كانت مع كثيرين .. ولكن فى النهاية استقرت معى وحدى .

مشكلة ؟! .

بدأت نعمت تفهم .. بشكل عام ..

الصورة اتضحت ، بما يسمونه خطوطا خارجية . ولكن بغير تفاصيل .. وبلا معالم محددة .

ودون أن تسأل بدأ عبد العزيز يضع التفاصيل .. ويرسم المعالم .

تجلس سعدية مكان أمها فى مدخل المنحدر فى عرب يسار القائمة على السفح الشرقى لتل القلعة .. أسفل مسجد محمد علي .. والمكان الذى تحتله سعدية ، مكان عتيق ، تغيرت معالم الحى كله .. ولم تتغير معالمه .

وعبد العزيز يذكر الحى منذ سنوات بعيدة .. البيوت العتيقة فى أسفل التل كما هى ، والجامع فى مدخل المنحدر والجبانات تمتد على مدى البصر تتصاعد من بينها المآذن المقطوشة طارت قممها فبدت كأنها مجذوب بلا طرطور أو ولى من أولياء الله بغير عمامة .. والطريق يلف حول الحى ليصعد إلى الباب الخلفى للقلعة ، وإلى مبنى البكتاشية من تنابلة السلطان فى سفح المقطم وأمام المنحدر يقوم سجن قره ميدان بسوره المرتفع .. ونوافذه الصغيرة .. تمسك بقضبانها الأكف .. وترتفع الصيحات .. تتجاذب الحديث مع الأهل على قارعة الطريق .. وعلى اليمين يمتد ميدان القلعة تقف ببابه مآذن وقباب الجامعين الكبيرين المتلاصقين وكأنهما حرس الباب .

يذكر عبد العزيز كل هذا فى طفولته .

ويذكر خالته زهرة .. أم سعدية .. فى المكان العتيق .. وراء القفص المقلوب

ترص عليه الليمون ، والمشنة ترص فيها الكرات والفجل والجرجير ، والقصعة ملئت بالفول النابت .

يذكر زهرة أيضا كامرأة سيئة السمعة .. يحذر بشدة أهل الحى رجالهم منها .

عاد أبوه ذات يوم بعد أن أغلق حانوت السمكرى الذى كان يعمل به وفى يده لفافة سمك وبضع حزم فجل .

تناولت أمه اللفافة وقد تقعت بقع الزيت خارجها و لم تعلق عليها ، كانت حزم الفجل موضع تعليقها ، تساءلت فى غير فرحة :

ـــ ما هذا ؟

وكان واضحا أن الذى بيدها فجل برءوسه البيضاء وأوراقه الخضر ..

ورد أبوه فى استنكار :

ـــ فجل نبلع به السمك .

ـــ من أين ؟

ـــ يعنى إيه من أين ؟ من بائعة الفجل ..

ـــ من ؟

ـــ من أى بائعة فجل .

وأصرت أمه على التساؤل :

ـــ من بالذات ؟

ـــ من زهرة على باب الحارة !

وانفجرت أمه :

ـــ لم أقل لك مائة مرة .. ألا تقرب العاهرة .

ـــ لم يكن أمامى سواها فى الطريق ..

ـــ يناقص الفجل !

ـــ لا أدرى ماذا بينك وبينها .. أتغارين منها ؟

ـــ فشر .. أأغار من عاهر ؟!

بدأ الغضب يلعب بأصداغ الرجل قال محذرا :

ـــ اتلمى يا عديلة .. ولا داعى للنكد .. دعى الليلة تمر .

وبدأت الأم تتراجع . قالت فى صوت أنعم :

ـــ أخاف على سمعتك يا عبد ربه .. لم يعد هناك رجل من أهل الحى لم يصبه رشاش من المرأة .. إنها تجلس فى باب الحارة كالخطاف ، لم تترك رجلا إلا وهفته .. لماذا تشين سمعتك بالاقتراب من هذه اللبؤة .

وكان عبد العزيز ينصت إلى الحديث فى صبر نافد . وهو ينتظر أن تفتح لفافة السمك ويبدأ العشاء . ولكن كلمة لبؤة أثارت انتباهه ، لم يعرف كيف يمكن أن تكون زهرة لبؤة ، فصاح فجأة قائلا :

ـــ يعنى إية لبؤة يام ؟

وزغدته أمه فى جانبه وصاحت به :

ـــ اخرس أنت .. مالك لهذه الأشياء ..

ومضى الزمن وتغيرت أشياء كثيرة ..

كل ما حول الحى تغيرت معالمه ، هدم السجن . وأصبح حديقة مورقة خضراء محاطة بسور سلك شائك حتى لا يفتك بها أهل الحى . وشق طريق عريض وسط المقابر تمر به العربات فى لمح البرق .. وتحذر الأمهات أطفالهن من الخروج إليه حتى لا تلهفهم العربات .

شيدت حول الحى مبان عالية . أسفل المقطم فى الأباجية ، وقرب الطريق الكبير أسفل سور القلعة ..

... وامتد طريق طويل أعلى الجبل .. وبنى مسرح على ربوة قرب الباب الخلفى للقلعة ، تحول إلى سينما صيفى ..

أشياء كثيرة حدثت .

حدثت ثورة .. كان صغيرا بالطبع عندما حدثت ، ولكنها وضعت بصماتها واسمها على كل شىء ..

مات أبوه .. وماتت زهرة ..

وضمرت أمه تحت جلدها المجعد ..

وانطوت فى ركن من البيت .. صامتة ، وكأنها تنتظر الموت ، لا تكاد تنطق إلا بضع كلمات ، تحذره من سعدية كما كانت تحذر أباه من زهرة .

ـــ اكفى الجرة على فمها تطلع البنت لأمها ..

خلوة ، وواسعة العينين ، يرفع صدرها الجلباب من الأمام ، ويشده ردفاها المترجرجان من الخلف .

وهى لبؤة كأمها ..

كان ذلك بالنسبة له فى أول الأمر مجرد شائعة تتردد .. حتى حدث ذات ليلة ..

وقبل أن يحدث ، كان عبد العزيز قد أصبح جنديا فى الصاعقة ، حاول أبوه إدخاله المدارس ففشل .. كان يقضى كل وقته يلعب الكرة مع الأولاد فى الشارع العريض أمام المقهى أسفل القلعة ، وذات مرة حاول هو وأصحابه السرقة.نجحوا مرة .. وضبطوا مرة أخرى .. وذهب أبوه لإحضاره من قسم الخليفة .. ولهفه علقة كاد يقتله فيها من فرط ما ضربه .. لم تنقذه سوى أمه ، التى ألقت بجسدها بينه وبين أبيه وأطلقت الصوت حتى لمت الجيران .

ومن يومها تاب ، عن السرقة ، وعن الدراسة .. وألحقه أبوه بورشة لتصليح السيارات فى شارع محمد على بجوار حانوته .. حتى أصبح بعد بضع سنوات مشروع أسطى .. بل لقد أطلقت أمه عليه فعلا « الأسطى عبد العزيز » .. بعد أن مات أبوه ، وأصبح هو رجل البيت وعائله .

وجند .. مر بأيام المستجدين الأولى التى يمر بها كل عسكرى .. وضاق بكل شىء فى أول الأمر .. وكاد يفر أو بالتعبير العسكرى « يبلغ فرار » لولا بقية شعور بالكبرياء ، وخوف من أن يقال عنه جندى هارب .. وأخيرا انتظم فى وحدته .. وأصبح بعد تدريب شاق عنيف جندى صاعقة ..

وذهب إلى الجبهة .. بكته أمه فى الوداع ، وشيعه المعارف من أهل الحى بخليط

من الفخر والحزن .

وفى أول إجازة له .. حدث ما حدث :

مر بسعدية فى أول المنحدر أمام الجامع المخطط ، رمقته بنظرة إعجاب من عينيها الواسعتين المكحلتين . وافتر ثغرها عن ابتسامة عريضة كشفت عن سنتيها الذهبيتين . وقالت فى لهجة مرحبة :

ــ مسا الخير يا شاويش عبد العزيز .

ــ مساء الخير يا سعدية .

ــ حمد لله على السلامة .

ــ الله يسلمك .

ــ اتفضل .

ــ متشكر .

ــ فنجان شاى .

ــ كتر خيرك .

ــ طب .. كاكولا ..

وعاد عبد العزيز يردد كلمات الشكر .. وهو مستمر فى سيره .. فهتفت به :

ــ انت مستعجل ليه .. مش قد المقام والا إيه ؟ .

وتوقف عبد العزيز ..

كان بحكم التحذيرات المتواصلة من أمه ، والتى تعودت أن تسوقها إلى أبيه .. ثم إليه من بعده ، يتجنب هذه البقعة الخطيرة التى تضم .. قفص الليمون ومشنة الفجل . وقصعة الفول النابت .. ووراءها .. اللبؤة . تتمثل فى زهرة فى جيل أبيه ، ثم خليفتها سعدية .. فى جيله .

تبدل كل شىء فى الحى ، مات من مات ، ورحل من رحل .. وحدثت ثورة وحربان ، وخرج جيش ، ودخل جيش ، وبقعة « اللبؤة » الخطرة كما هى .. تحتلها زهرة ثم خليفتها سعدية .. بعد أن ذهبت الأم ، وورثت الابنة ، عدة

الشغل ، القفص والمشنة والقصعة .. وتجربة العمر .. بالإيماءة واللفتة ، والغمزة ، ونداء الدلال .. وضحكة الإغراء ، وغيرها من أساليب الجذب ، وإن اختلفت سماتها من جيل إلى جيل .

كان عبد العزيز يتجنب دائما منطقة الخطر .. بعد كل التحذيرات التى تعودت أمه أن توجهها إلى رجال البيت هو وأبيه وبقية الأهل والمعارف ، ولم تكن سعدية تمنحه من الاهتمام ما يمكن أن يجعل تجنبه لها عسيرا ..

كان يمر .. وكانت تتركه يمر .

ولكن فى هذه المرة .. بدت الدعوة ملحة .. مغرية .

والتفت عبد العزيز إلى سعدية وقال فى شيء من الحياء :

ـــ العفو ..

ـــ إذن تفضل .. عندى شاى يعجبك .

وكانت سعدية قد أضافت إلى عدة الشغل وابور وبراد شاى علاه الهباب وبعض كوبات وضعتها فى طبق ملىء بالمياه .

وبدا التردد على وجه عبد العزيز .. لم يعرف كيف يمكن أن يبدو أمام أهل الحى . وهو يجلس على قارعة الطريق ببدلة الصاعقة ليحتسى الشاى بجوار اللبؤة سعدية .. لقد كان مجرد شراء أبيه للفجل من أمها ، كاف فى نظر أمه ، لتشويه سمعته ، فما بالك بالجلوس بجوارها واحتساء الشاى .

ثم .. كيف يمكن أن يبدو بالثياب العسكرية ، وهو يجلس القرفصاء على الأرض بجوار مشنة الفجل وقصعة الفول النابت ؟

وقرأت المرأة الذكية أفكاره .

عرفت سبب تردده ..

قالت بطريقة ناعمة :

ـــ تشرفنا فى البيت .

وكان البيت .. الذى ورثته أمها .. عشة فى طرف الحى على سفح التل ..

أسفل السور الذى قفز منه المملوك الهارب من مذبحة القلعة .. وفى هذا البيت — كما كان يشاع — كانت تمارس الأم .. ومن بعدها الابنة عملها الآخر .

وتسللت النشوة إلى عروق عبد العزيز .. من مجرد الدعوة ..

ومع ذلك استمر التردد يعلو وجهه ، ويمسك بخطواته .

وقالت سعدية تستحثه فى لهجة لم تخل من سخرية :

— أتخشى من فنجان شاى مع حرمة .. ماذا إذن تفعل فى الجبهة ؟

وأجاب عبد العزيز ضاحكا :

— فى الجبهة نشرب الشاى وننام فى هدوء .

— أنتم إذن لا تحاربون ؟

— يعنى .. طلقة هنا .. وطلقة هناك .

— فنجان الشاى عندى ، بغير طلقات ..

ثم صمتت لحظة وتساءلت :

— ستأتى .

ورد عبد العزيز وهو يواصل صعود المنحدر :

— سأذهب إلى أمى ، حتى تسقط الشمس .. وآتى لك .

— سأنتظرك .. لا تتأخر .

ولقيته أمه بالدموع .. كما تودعه بالدموع .. وضمته إلى صدرها فى لهفة كأنما تريد أن تعيده إلى جوفها .

وكان أهم شيء لديها .. هو أن تطعمه ..

ذبحت له بطة من البطات الثلاث التى كانت تتبختر فى الفناء .. وأصرت على أن يبقى حتى تنضج لكى تعمل له من مرقها ملوخية وفتة .. ولكنه أخبرها أنه على موعد هام .

— سأعدها لك للعشاء .

— قد أتاخر .

ـــ لماذا ؟ ..

ـــ عندى مهمة لا بد أن أؤديها الليلة ..

ولم يصبر حتى تسأله أمه عن نوع المهمة .. خلع البذلة العسكرية وارتدى قميصا وبنطلونا . وانطلق يصعد التل . إلى العشة المنعزلة فى أسفلها .. ليتناول فنجان الشاى .

كانت تجربة مثيرة ..

الكوخ تلفه الظلمة والصمت .. وسعدية تتربع على حشية وأمامها عدة الشاى .. وقد أخذت تلف سيجارة بعناية وتؤدة .

وأشارت له إلى مكان بجوارها فوق الحشية .

ـــ اقعد ..

وكانت سعدية قد فكت منديل رأسها ، فتهدل شعرها على كتفيها ، وبدا الثوب الذى ترتديه خفيفا فضفاضا .. وصدرها المكتنز من ورائه متحرر من كل ما يقيده .. ملقى فى استرخاء مثير .

ومد ذراعه يحيط جسدها .. متسللا بيده إلى إحدى الكتلتين المكتنزتين وشدها إليه .. فاهتزت يداها بالسيجارة التى تلفها .

قالت وهى تلم فتات الدخان التى سقطت فى حجرها :

ـــ اصبر ..

ولفت السيجارة .. ثم مدت يدها إليه قائلة :

ـــ خد لك نفس .

ـــ معى سجائر .

وهم بإخراج علبة السجائر من جيبه .. فردت عليه ضاحكة :

ـــ هذه شىء آخر .. توزن دماغك .

ونظر عبد العزيز إلى السيجارة نظرة متسائلة :

فاستطردت تقول :

ـــ معمرة ..

وفهم عبد العزيز ورد عليها ببساطة :

ـــ لا أشربه ..

ـــ جرب ..

ـــ لا داعى .

ـــ نفس واحد .

وأشعلت سعدية السيجارة واستطردت تقول وهي تمد ساقيها فى استرخاء :

ـــ عندى كمية طيبة .. مع إنه شاحح فى السوق . احضرها إلى على الفلك .. تعود أن يأتى إلىّ بين آونة وأخرى ، وفى ذات مرة سلم لى لفافة لم أعرف ما بها .. ثم قال لى ، إنك تستطيعين مساعدتنا ..

ـــ قلت له كيف ؟

رد ببساطة :

ـــ سأقطع .. وأنت تلفين وتوزعين .

ـــ وعرفت ما باللفة وأقول الحق إنى خفت ولكن الرجل قهقه ضاحكا .. وأجاب :

ـــ زبائننا معروفون .. وغير مطلوب منك أكثر من أن تضعى اللفافة مع حزمة الفجل .

ووجدت المهمة سهلة .. وبدأت أمارسها مع بيع الفجل والنابت .

وأحس عبد العزيز بالقلق ..

إن هذه مغامرة معقدة ، مزعجة ، ماله هو وهذا الجو .. المشحون بالخطورة .

وفكر فى الانسحاب من المغامرة .

ولكن الثوب الفضفاض الخفيف المعلق على الصدر المكتنز الكاشف عن كل ما تحته .. جعل الانسحاب مسألة غير معقولة .

وأشعلت سعدية السيجارة ، شدت منها نفسا ، وأعطته نفسا .. واستندت إليه .. بجسدها اللين الطرى ، وبدأ عبد العزيز يحس بالطمأنينة .. وزال عنه الخوف والقلق .

وكانت ليلة ممتعة . أدت فيها سعدية واجبها بمهارة وإتقان وجاذبية .. مهارة الوراثة وإتقان التجربة وجاذبية الأنوثة نضارة العمر وخفة الروح واكتمال التركيب الأنثوى .

وعاد عبد العزيز إلى أمه فى ساعة متأخرة ..

وجد المسكينة قلقة يقظة .. ضمته إليها وأطعمته البطة ..

أحست بذكائها وتجربتها .. نوع المهمة التى أداها .. ولكنها لم تلم و لم تثر .. بل منحته السكينة والطمأنينة .

وتكررت المهمة فى الليالى التالية .

ولكن اللقاء بدأ يتخذ شكلا آخر ..

لم يكن لقاء غرباء تمارس فيه متعة محددة ، بل لفه إحساس بالألفة والمودة .. وخلا من السجاير الملفوفة .. وطال فيه الحديث والحضن الحنون ..

وعندما انتهت إجازة عبد العزيز .. ووقفا للوداع .. لم يكن وداع غرباء .. لأن كلا منهما لم يكن غريبا عن الآخر .. لقد شدتهما الليالى القليلة التى قضياها معا برباط وثيق لم يعرف كل منهما كيف نشأ .. وكيف نسجت خيوطه .

وضمته سعدية إلى صدرها وهى تردد هامسة :

ـــ سأنتظرك .. لا تغيب .

وأحس عبد العزيز أنه يكره أن يتركها .

كيف حدث هذا ؟ ..

أمعقول أن يحبها .. وهى بكل هذه السمات المزعجة المرفوضة من المجتمع .
ولكنه يحبها فعلا ..

وعادت سعدية تهمس :

— لن ألقى فى غيابك أحدا ..

وتساءل عبد العزيز وكأنه لا يصدق :

— حقا ؟!

— بالطبع .. إنى لك وحدك .. إنى لا أتصور أن يقربنى غيرك .

— ولن تلقى المعلم على الفك ..

— وسأعيد إليه كل ما لدى .. وأخبره أنى انتهيت من هذه المهمة .

وضمها عبد العزيز إليه فى حنان وهمس :

— سأعود إليك ..

— ربنا يحرسك وينجيك .

وعاد عبد العزيز إلى الجبهة .. وفى قلبه حب ..

وعادت سعدية إلى مكانها وراء المشنة والقصعة ، لتكون شيئا آخر .. وبطريقة باتة وحاسمة .

وتكررت عودة عبد العزيز من الإجازة وتكرر اللقاء .. كان عبد العزيز يقضى ليالى الإجازة .. فى عشة سعدية .. ليذهب آخر الليل إلى أمه ..

وزجرته أمه ذات مرة ، ولكنه صدها عن الزجر . وطلب إليها ألا تتدخل فى أموره .. فلم تحاولها بعد ذلك ..

وسرت الشائعة فى الحى .. وأدرك طلاب المتعة لماذا كفت سعدية عن لقائهم .. ولماذا أصبحت تتعامل من الناس كالشرفاء .

وفى آخر لقاء ..

علم عبد العزيز .. أنها حبلى .

صدم بالنبأ .. وسألها :

ـــ وماذا ستفعلين ؟

وببساطة ردت سعدية :

ـــ سأبقيه .

ـــ كيف ؟

ـــ كما يبقى الأولاد فى بطون أمهاتهم حتى يولدوا .

ـــ تعنى أنه سيكون لك ولد ؟

ـــ ولم لا ؟

ـــ بغير زواج ؟

ـــ هذا شأنك .

وأحس عبد العزيز ـــ رغم كل الحب الذى يكنه لها ـــ بمطرقة تهوى على رأسه ..

أمعقول أن تكون سعدية زوجته !

سعدية .. اللبؤة .. بنت اللبؤة . زوجته وأم ابنه ؟!

ماذا تقول أمه ؟ .. بل ماذا يقول الحى كله ؟.!

ورد عليها فى حزم :

ـــ الزواج غير معقول .

ـــ ليس مهما .

ـــ ويولد الولد بغير أب ؟

ـــ كيف بغير أب ؟ .. إنه ابنك ؟..

ـــ أمام الناس ؟:

ـــ لا يهم الناس . المهم أنا وأنت .. إنه ابنك .. ولهذا سأبقيه .. إنه خير ما يمكن أن آخذه منك ..

ونظر إليها فى حنق وقال فى شىء من القسوة :

ـــ اسمعى يا سعدية .. كفى عن هذا الخبل ، لا تحملى الولد مسئوليات أمانيك

الحمقاء .. لا تدعى الولد ينزل ابن حرام ..

وبإصرار أجابت :

ــ سينزل ابن حلال .. لأنه ابنك ! ..

ولكننا لن نتزوج ؟!

ــ قلت لك غير مهم ؟.

ونهض عبد العزيز فى غضب وقال لها حانقا :

ــ أنت مغفلة .. أنزلى الولد ولا تجنى عليه ..

ــ لن أفعل .

ــ ولن أراك حتى تنزليه ..

وبدا الألم على وجهها وهى تراه يترك العشة غاضبا .. نادته . فلم يعد ، وانطلق عائدا إلى الجبهة .. تاركا مشكلته فى جوف سعدية وهو يريد أن يخلص منها .. وهى ــ فخورة بها ــ تريد أن تبقيها ..

(٨)

استعداد للشغل

انتهى عبد العزيز من روايته وأطلق زفرة طويلة واستطرد يقول :

وعدت إلى هنا .. وإلى حيث يخلص الإنسان من كل الشوائب الخاطئة التى تشوب تفكيره .. لأتبين الحقيقة ..

وتساءلت نعمت :

ـــ أية حقيقة ؟! ..

ـــ إنى جبان ..

ـــ لا تظلم نفسك .. أنت لا يمكن أن تكون جبانا ..

ـــ بل أعرف أنى جبان .

ـــ الذين يواجهون الموت فى كل لحظة .. بهذا الهدوء والرضا .. لا يمكن أن يكونوا جبناء .. تلك هى الشجاعة الحقيقية ..

ـــ هذه شجاعة مفروضة .. لا خيار لنا بها .. نحن هنا نحيا حياتنا .. نأكل ونشرب .. وننام ونضحك .. ولا تقلقنا سوى مشاكلنا الصغيرة .. التى خلفناها وراءنا ...

ونحن نحياها ككل حياة نحياها فى أى مكان .. بملل .. أجل ، بضيق . أجل ولكن بخوف، لا ، نحن لا نحتاج إلى شجاعة .. لكى نحيا حياتنا .. نحن لا نرى الموت فى كل لحظة .. نحن لا نتنفسه ، ولا نمضغه .. وإنما نراه فجأة فى أشلاء أحبائنا .. وعند ذاك لا يثير فى نفوسنا الخوف .. بقدر ما يثير الحقد والحنق ، والرغبة فى الثأر .. عندما نرى الموت حولنا .. لا نجرى منه .. بل نثبت بغير إرادة

لنرده إلى من أوقعه بنا ... والذين يموتون منا .. لا أظنهم احتاجوا إلى شجاعة وهم يواجهون الموت .. هنا لا يمنحنا حتى فرصة الخوف منه . وسط الضجيج والدوى والغبار والدخان .. تفلت شظية أو رصاصة . لتنفذ فى أحدنا .. فيسقط .. ثم ينتهى .. لا أظننى احتجت هنا لحظة واحدة .. إلى شجاعتى .. لكى أنفذ أمرا بالتقدم .. لكى أهجم على موقع .. لكى ألقى قذيفة .. هذه كلها أشياء نفعلها ، هنا ببساطة ، كجزء من عمل أى إنسان .. أفعلها كما كنت فى ورشة الأسطى زينهم .. أفك طلمبة المياه فى عربة وأنظف الكاربراتور .. أشياء لا تشعر الإنسان لحظة وهو يفعلها بأنه يحتاج إلى شجاعة ..

وصمت عبد العزيز لحظة .. يزدرد ريقه .. وسعل سعلة عصبية قصيرة ،، ثم استطرد يقول :

ـــ هنا .. لم أحتج إلى شجاعتى لحظة واحدة .. أمام العدو .. ولكن هناك .. احتجت إليها .. وافتقدتها .. وأنا أواجه من أحب ..

وصمت مرة ثانية .. وهمت نعمت بالحديث لكنه قاطعها فى صوت أشبه بالنحيب ..

ـــ أنا جبان ..

ـــ لا تقل هذا ..

ـــ أنا هنا لم أهرب لحظة من قدرى فى مواجهة الرصاص والشظايا .. ولكنى هناك هربت من قدرى فى مواجهة كلام الناس .. أنا جبان ..

ـــ لا تظلم نفسك يا عبد العزيز .. أنت فرد فى مجتمع يخشى بعضه .. مجتمع يتشارك السوء فى باطنه .. ويتشارك رداء الزيف فى ظاهره .. مجتمع يفعل الذنب ويستبشع فعل الغير له .. مجتمع يسرق .. ويدين السرقة .. ويزنى ، ويروعه الزنا .. يسترخى فى ارتياح الأبرياء الأطهار وراء ستار الخديعة والزيف والنفاق .. ليشير بأصبع الاستنكار إلى الذين أسقطت الظروف عنهم ستر الزيف .. فتعرت الذنوب من ورائها ..

وصمتت نعمت تراقب الوجه الأسمر المشدود أمامها ثم أطلقت زفرة قصيرة وقالت :

ـــ أنت فرد فى هذا المجتمع يا عبد العزيز .. ولا تستطيع إلا أن تفعل كما يفعل .. لا تستطيع ببساطة أن تمزق ستار الزيف .. لتواجه الناس بالذنب .. نحن لا تفضح بإرادتنا .. الفضائح تفرض علينا لتعرينا .. إننا فى مجتمع يذنب .. ويطلب الستر من الله .. مجتمع يقاوم كل ما يعرى ذنبه .. فلماذا تستكثر على نفسك أن تفعل .. وأنت فرد فيه ..

وهز عبد العزيز رأسه فى يأس وأجاب :

ـــ لا يعفينا من الجرم .. أن يكون كل الناس مجرمين .. ولا يزيل عنى وصمة الجبن أن أكون فى مجتمع من الجبناء ..

وعادت نبرة النحيب تسرى فى صوته وهو يردف قائلا :

ـــ لقد عاملتها بجبن .. بنذالة .. تركتها بالمشكلة ـــ مشكلتى أنا ـــ فى باطنها وهربت إلى هنا ..

ـــ لا تضخم المسألة .. لقد تصرفت كأى رجل ..

ـــ كأى رجل جبان .. هربت من ذنبى .. وكانت هى أشجع منى قالت إنها تريد أن تحتفظ بابنى .. لأنه خير ما يمكن أن تحمله منى .. فقلت لها :

ـــ اخلصى منه لأنه ابن حرام .. قالت إنه ابنك .. وعندما قلت لها إنى لن أتزوجها ..

أجابت إنها لا تريد الزواج ..

تحملت هى بشجاعة كل شىء .. وهربت أنا بجبن .. من كل شىء ..

ـــ وإلام انتهيتم ؟

ـــ قالت إنها ستبقيه .. وقلت لها لن ترينى حتى تخلصى منه .

ـــ وماذا ستفعل هى ؟

ـــ لست أدرى .. تركت المشكلة برمتها لها .. وعدت إلى هنا بريئا ..

شريفا .. شريفا .. ليقال عنى بسذاجة .. إنى رجل شجاع ..

— وماذا تريد الآن ؟

— أريد أن أنزل ..

— لماذا ؟ ..

— لأتزوجها ..

وأخذت نعمت ترقب الوجه المشدود أمامها .. وقالت له فى هدوء :

— ستنزل يا عبد العزيز .. أنت رجل شجاع .. شجاع هنا وشجاع هناك .. رغم إنكارك هذا وذلك .. شجاع هنا .. ككل زملائك لأن الشجاعة لا تستعرض ولا تمارس بقصد .. إنها تصرف تلقائى .. ينبع من باطننا .. وينعكس على أسلوب تصرفنا مع الأمور .. الشجاع لا يدعى الشجاعة ولا يجهد نفسه فى الإقدام عليها . ولكنه يمارسها بيسر وسهولة .. كما يمارس أى تصرف طبيعى لا إرادى .. وأنت لم تفقد شجاعتك هناك .. ولكن تصرفت تلقائيا .. كما يفعل مجتمعك .. وجدك .. وعندما عدت إلى هنا . وصفت نفسك من الشوائب .. وأنت تواجه قدرك فى كل لحظة .. وضحت لك — كما قلت — الحقيقة .. وأحسست أن تصرفك الطبيعى ، هو أن تواجه مشكلتك بشجاعة .. ألست تحب سعدية ؟

— أجل ..

— ألست تؤمن بوفائها لك ؟

— لا أشك فى ذلك ..

— هل تشعر .. أنها بجوهرها .. وبحقيقة مشاعرها لك .. أهل لأن تشاركك الحياة ؟

— أجل . أجل . لقد خشيت مواجهة الناس .. خشيت من أمى ومن أهل الحى أن يقولوا .. تزوج سعدية .. ولكنى أحس الآن أنها خير منهم جميعا .. لن أتركها وحدها .. لن أدعها تخلص من ابنى .. وإذا كانت تريده منى ، فأنا أريده منها.

وصمت عبد العزيز لحظة يلتقط أنفاسة ثم عاد ليقول فى إصرار :

ـــ من أجل هذا أريد أن أنزل

ـــ وسأجعلك تنزل ..

ـــ ولكنهم .. يقولون إنه ليس به شيء .. وسيعيدوننى إلى المعسكر .

ـــ لا تقلق .. سأعرف كيف أحصل لك على تصريح النزول ..

وتساءل عبد العزيز فى شيء من الشك :

ـــ أحقا تستطيعين هذا ؟

ـــ طبعا ..

وأطلق تنهيدة راحة وأجاب قائلا :

ـــ الحمد لله .. لقد كنت أنوى الهروب .

ـــ لن تصل المبالة لهذا .. غدا سأعطيك التصريح ..

ونظر عبد العزيز إلى نعمت بعينين تفيضان بالشكر دون أن يقول شيئا ..

وعندما نهضت قائلة :

ـــ اذهب الآن واسترح .. وغدا ستنزل ..

وأجاب :

ـــ سأخبر سعدية أنك ساعدتنى فى النزول .. سأخبرها أنك ساعدتنى فى كل شيء .. وسأحضر وإياها لنزورك .. فى أول فرصة .. إذا لم يضايقك هذا ..

ـــ أبدا .. يسعدنى أن أراها ..

واتجه عبد العزيز إلى فراشه بعد أن شد على يد نعمت فى حرارة كادت تخلع ذراعها .. وعادت هى إلى غرفتها .. تصطخب فى نفسها شتى الانفعالات .

وتردد فى ذهنها قول الفتى الأسمر النحيل الوجه :

نحن لا تقلقنا سوى مشاكلنا الصغيرة التى خلفناها وراءنا نحن لا نحتاج إلى شجاعة لكى نحيا حياتنا هنا . نحن نحياها ككل حياة نحياها ..

نحياها فى أى مكان .. بملل أجل .. بضيق أجل .. ولكن بخوف .. لا ..

وبدأ الظلام يسقط .. بهت البياض البادى من خلال زجاج النافذة .. وامحت

معالم الأشياء المرسومة على رقعته . أطراف شجرةوجانب من جدار .

وانتهى إلى رقعة داكنه يحيط بها برواز النافذة الزجاجية .

واستلقت نعمت فى فراشها .. أدارت مفتاح الراديو .. سمعت حوارا بين مذيع وناقد عبقرى يقول أشياء غير مفهومة .. عن الأدب البرجوازى .. والأدب البروليتارى .. والارتباط بالمعركة .. وأحست نعمت ، أن العبقرى ، المستعرض لعبقريته .. هو أبعد خلق الله عن المعركة .. وعن رجال المعركة .

وأغلقت الراديو وفتحت كتابا ..

وأحست بالنوم يثقل جفونها .. و لم تعرف .. متى نامت .. ولا كم نامت .. فقد فتحت عينيها عن صوت ضجيج فى الطرقة .. استبانت منه صوتا لا تخطئه بين مئات الأصوات .

صوت محمود يصيح :

ـــ أين الدكتور النوبتجى ؟

وصوت يرد عليه :

ـــ كان هنا فى حجرته .

ـــ ولكن الحجرة خالية ؟

ـــ ربما ذهب يمر على عنابر المرضى .. سأناديه لسيادتك حالا .

ونهضت نعمت من فراشها . وأخذت الساعة من فوق المنضدة .. كانت الحادية عشرة مساء ..

ماذا أحضر محمود الآن ؟..

وبغير إرادة خلعت قميصها بسرعة وارتدت الجيب والقميص .. ودست قدمها فى الحذاء .

نظرت إلى المرآة . مرت بالفرشاة على شعرها .. لم يعجبها شكلها .. ولكن لم يكن هناك وقت لكي تفعل أكثر مما فعلت . كانت تتوقع .. ما دام قد وصل إلى هنا .. أن اللقاء لا بد واقع .. فلا يستبعد منه أن يطرق بابها .

وإن لم يفعل .. ستخرج هي إليه .. لتعرف ما به .
لم تنتظر أن يطرق بابها .. خرجت إلى الممر ..
فوجدته يقف فى آخره .. سمع خطواتها .. استدار ليرى القادم ..
هتف فى دهشة :
ـ ماذا أيقظك ؟ .
ـ سمعت صوتك .
ـ آسف لأنى أقلقتك ..
ولاحظت نعمت على وجهه علامات إرهاق فتساءلت فى قلق :
ـ ماذا بك ؟ ..
ـ لا شيء ..
ـ إذن لماذا أتيت ؟
ـ شعرت بمغص بسيط .
ـ مغص كلوى ؟
ـ أعتقد هذا ..
وزاد قلق نعمت واقتربت منه قائلة :
ـ تعال ..
ـ إلى أين ؟
ـ لابد أن ترقد ..
ـ لا .. لا .. ليس هناك وقت ..
وأحست به نعمت كطفل عنيد وتساءلت فى حدة :
ـ وقت لماذا ؟
ـ للرقاد ..
وردت نعمت فى شيء من السخرية :
ـ ما وراءك .. سهرة ؟

وأجاب محمود والألم يشتد به فلا يمنحه قدرة على رد السخرية . والاشتباك فى مزاح :

ــ أريد مسكنا ..

ــ ارقد أولا .. ارقد واسترح .

ــ لا أريد أن أرقد ..

ونظرت إليه نعمت فى حنق وزجرته كما تزجر طفلا صغيرا .

ــ لماذا لا تريد أن ترقد . أنت مرهق ولابد أن تستريح .

ــ قلت لك ليس هناك وقت ..

ــ عجيبة ماذا وراءك ؟

ــ ورائى عمل ..

ــ الآن ؟ ..

ــ ليس بالضبط ..

وقبل أن ترد نعمت أقبل الدكتور رشاد وحيا محمود متسائلا :

ــ خير يا فندم ؟

ــ أشعر بمغص .

ــ اتفضل ..

ــ إلى أين ؟

ــ إلى حجرة الكشف...

ــ ليس هناك داع .. أنا أعرف ما بى . إنه مغص كلوى .. وأريد حقنة نوفالجين .. أو أى مسكن ..

ــ حاضر .. اتفضل يا فندم .

وتحرك الثلاثة إلى داخل المستشفى .. وأمام أحد العنابر .. كان عبد العزيز يقف بالباب محاولا أن يستكشف أسباب الضجيج ..

وأبصره محمود .. فصاح به :

ــ عبد العزيز ..

ورد عبد العزيز فى صوت فزع :

ــ أفندم ..

ــ ماذا تفعل هنا ؟

وتلجلج عبد العزيز .. ورد فى كلمات متقطعة ..

ــ أصل .. أصل .. سيادتك .. أصل كنت .

ــ كنت إيه .. ؟

ــ كنت مبلغ عيادة ..

ــ ماذا بك وأنت تقف كالحصان ؟ .

وازداد اضطراب عبد العزيز وعاد يقول :

ــ أصلى يا فندم ..

وتدخلت نعمت لإنقاذه فقالت ببساطة :

ــ حالة انهيار ..

ورد محمود فى سخرية :

ــ انهيار .. منذ متى .. ؟

ــ لقد أمضيت معه جلسة اليوم ..

وعاد محمود يتساءل فى حدة ..

ــ جلسة إيه ؟

وحاولت نعمت أن تهمس له :

ــ إنه العسكرى الذى حدثتك عنه اليوم ..

وهتف محمود صائحا ..

ــ ما شاء الله .. انهيار وجلسات .. ما هذا الذى يحدث من ورائى .. أنت ستفسدين العساكر ..

وردت عليه نعمت بهدوء محاولة أن تلم الموقف :

ـــ يا فندم هذا عملنا .. ونحن نعرف ما يجب أن نفعله .

ولم يرد عليها محمود .. تجاهلها تماما .. ووجه القول إلى عبد العزيز فى سؤال حاسم :

ـــ عبد العزيز .. أنت مريض ؟ ..

ـــ أنا أصلى ..

ـــ أصلك إيه ؟ .. مريض أم سليم ؟ . إذا كنت مريضا يكشف عليك الدكتور ليعرف ما بك .. ويعطيك الدواء .. أما انهيار .. وأعصاب .. وكلام فارغ من هذا .. لا أريد ..

وحاولت نعمت مرة أخرى أن تنقذ الموقف فقالت هامسة :

ـــ أرجوك .. يا سيادة المقدم .. أنا مسئولة ..

وقاطعها محمود فى حدة :

ـــ أنت لست مسئولة عن شىء . أنا المسئول ..

وحاول رشاد التدخل . وهو يرى معالم الألم على وجه محمود .

ـــ سيادتك اتفضل .. حتى أعطيك الحقنة .. وسأتصرف أنا معه ..

ورد عليه محمود فى حسم :

ـــ أنا الذى سأتصرف معه ..

وعاد يوجه السؤال إلى عبد العزيز فى حزم :

ـــ أنت مريض يا عبد العزيز ؟ .

ـــ أنا يا فندم .. أريد النزول .

ـــ إلى أين ؟ ..

ـــ إلى مصر ..

ـــ مصر ؟

وفى نبرات هادئة قال محمود لعبد العزيز .

ـــ بكره عندنا شغل .. فاهم شغل يعنى إيه ؟ ..

وبدا كأن هناك لغة مشتركة بين الاثنين .. القائد والعسكرى ..

رد عبد العزيز بسرعة :

ـــ فاهم يا فندم .

وعاد محمود يسأل :

ـــ أنت مريض ؟

ـــ لا يا فندم ..

ـــ تنزل مصر ؟ ..

ـــ لا يا فندم ..

ـــ متى ستعود إلى المعسكر ؟

ـــ حالا يا فندم ..

ـــ إذن ارتد ملابسك .. وستعود معى .

ـــ حاضر يا فندم .

وكانت نعمت ترقب العبارات المتبادلة بين الاثنين فى ذهــول وأحست بالإشفاق على عبد العزيز .. ومحمود يعامله بمثل هذه القسوة .. ويجبره على العودة إلى المعسكر ثانية ..

لم تتعرف كيف استطاع محمود التأثير على عبد العزيز بمثل هذه السهولة حتى انقاد إليه كالطفل .

أهو الخوف ؟ ..

وكرهت أن يخضع الجنود فى الجبهة لمثل هذه الشدة ؟

وهى تعرف ماذا فى باطن عبد العزيز من مشاكل .. تعرف خبايا صدره أكثر مما يعرف هذا القائد الشديد الذى سيأخذه من يده إلى المعسكر كما يؤخذ التلميذ إلى المدرسة .

قال له إن لديهم « شغل » وسأله هل تفهم « شغل يعنى إيه » وبدأت بعد ذلك تتوالى من شفتى عبد العزيز سلسلة الإجابات العسكرية التقليدية « أيوه يا

فندم » « حاضر يا فندم » « حالاً يا فندم » ..

وهمت نعمت بالتدخل لتنقذ عبد العزيز إنسانيا .. من براثن القائد الشديد .

قالت تحاول إقناع محمود فى صوت خفيض :

ـــ أنا أعرف حالته جيدا .. إنه يحتاج إلى إجازة .

ونظر محمود إليها نظرته إلى طفلة تعبث ، وقال لها فى زجر رقيق :

ـــ وبعدين معاكى ..

ووجه القول إلى عبد العزيز بلهجة أشد :

ـــ بعد خمس دقايق .. تكون تحت فى العربة ..

ـــ حاضر يا فندم ..

كانت تبدو على وجه عبد العزيز .. سكينة واستقرار .. زال التوتر والقلق ..

لم تعرف نعمت كيف طويت المشكلة فى باطنه ، النزول ، والزواج ، وسعدية ، وابن الحرام الذى تريد أن تحتفظ به فى باطنها .

وأغلق كل هذا على صدره .. أغلقه محمود .. بتعليماته الصارمة .. بأسئلته الحادة القاطعة العنيفة :

ـــ أنت مريض ؟

ـــ لا فندم ..

ـــ تنزل مصر ؟

ـــ لا يا فندم ..

وسارت نعمت تتبع الدكتور رشاد ومحمود واختفى رشاد ليعد حقنة المسكن .

وانفردت نعمت بمحمود .

هتفت فى حدة :

ـــ ما هذا .. أجننت ؟

ـــ لماذا ؟

ـــ أولا لأنك مريض .. ولا تريد أن ترقد أو يفحصك الطبيب ..

ـــ لا داعى للفحص . لأنى أعرف علتى !

ـــ إذن ابق لتستريح ..

ـــ عند أخذ المسكن سأستريح ..

وردت عليه نعمت بصبر نافد ونبرة حانقة وكأنه طفل صغير ..

ـــ انفلق .. عد إلى المعسكر لكى تصيبك نوبة أخرى .. ولا تجد من ينقذك ؟

ولأول مرة ابتسم محمود وقال معاتبا :

ـــ أتشمتين فى ؟

ردت عليه فى صوت رقيق :

ـــ أنا أكره عنادك .. أنت مرهق .. وتحتاج إلى راحة .. ومع ذلك تصر فى عناد على العودة ؟

وهز رأسه متسائلا فى رقة :

ـــ هل تظنين أنى أكره البقاء هنا .. بجوارك . إن هذا أحب مكان إلى .. مجرد الإحساس أن بينى وبينك ممرا .. يملؤنى إحساسا بالراحة ..

ودت نعمت لو استطاعت أن تضمه إلى صدرها كطفل وتساءلت فى دهشة :

ـــ إذن لماذا لا تبقى ؟

ـــ لأن لدى عملا !

ـــ الليلة ؟

ـــ غدا .

ـــ إذن الصباح رباح .. استرح الليلة .. وغدا تعود إلى المعسكر ..

ـــ لابد أن أكون الليلة بجوار العساكر .

ـــ لماذا ؟ ..

ـــ وبعدين يا نعمت .. لماذا تكثرين من الأسئلة ؟

ــ لأنى لا أفهم ..

ــ لا داعى لأن تفهمى .. لابد أن أكون الليلة فى المعسكر .. وكفى .

وصمتت نعمت لحظة ثم عادت تتساءل : ؟

ــ وهذا العسكرى الغلبان لماذا عاملته بمثل هذه القسوة ؟

ــ لأنى لا أحب الدلع ..

ــ ولكنه متعب حقيقة !

ــ متعب كيف ؟

ــ متعب نفسيا

ــ اسمعى يا نعمت أرجوك .. بطلى حكاية الأمراض النفسية .. والعلاج النفسى .. هذه الأشياء .. لا تباع ولا تشترى عندنا .. عندى هنا إما مريض أو سليم !

محموم . مجروح .. عنده مغص .. إسهال .. يذهب إلى المستشفى .. سليم يبقى فى المعسكر .

ــ المرض لا ضرورة أن يكون جسمانيا .. لا ضرورة لأن يكون المريض محموما أو مجروحا .. قد يكون فى نفسه ما هو أسوأ من هذا .. مما يجعله لا يصلح للعمل .. وعبد العزيز مصاب نفسيا .. ولابد من إراحته ؟ ..

ــ أنا أعرف عبد العزيز أكثر منك عبد العزيز عسكرى ممتاز ونحن نحتاج إليه ..

ــ فى ماذا ؟ ..

ــ فى الشغل ..

ــ إذن ينزل مصر .. ويستريح .. ثم يعود لكى يصبح أكثر قدرة على العمل .

ــ ليس هناك وقت .. نحن نريده غدا ..

ــ لماذا غدا ؟

ونظر إليها فى غيظ وقال كأنه يخاطب طفلا :

ــ يا نعمت يا حبيبتى .. ماذا أقول لك ، لدينا عمل غدا ، عمل خاص ..

لابد أن نعد له الليلة .. ومن أجل هذا لابد أن أكون الليلة فى المعسكر .. ولابد أن يذهب عبد العزيز معى .. لأننا نحتاج إليه .. أفهمت ..

وصمتت نعمت برهة .. تزدرد ريقها .. وأجابت فى قلق وقد بدا عليها الفهم ؟

ــ هل ستعملون الليلة ؟

ــ يعنى ..

وازدادت علامات القلق على وجهها وشرد ذهنها ..

سألها محمود :

ــ ماذا بك ؟

ــ هل لا بد من العمل الليلة ؟

ــ ليس بالضبط ..

ــ أعنى ألا يمكن تأجيله ؟

ــ لماذا ؟

ــ لأنك مرهق ؛

ــ عندما آخذ المسكن سأستريح ..

ــ ولكن قد تعاودك النوبة ؟

ــ ربنا يستر ..

وصمتت نعمت تفكر لحظة ثم تساءلت :

ــ اسمع يا محمود ؟

ــ نعم ..

ــ هل أستطيع أن أصطحبكم ؟ .

ــ إلى أين ؟

ــ إلى العمل ..

وضحك محمود قائلا :

— أنت عبيطة ؟

— لماذا ؟ .

— أولا لأن عملك كما تقولين . حل المشاكل .. ونحن والحمد لله ليس لدينا مشاكل ..

وصمت برهة ثم ضحك قائلا :

— ولا أظن الوقت سيسمح لك .. بحل مشاكل العدو .

وردت نعمت وهى تحس بالقلق يملأ جوانحها ..

— قد أستطيع أن أساعد فى شىء .. دعنى أذهب معك ؟

— غير معقول يا نعمت ..

— أتمنى أن أفعل أى شىء وأكون بجوارك .

وأجابها محمود فى حنان :

— أنت هنا بجوارى .. وأنت تفعلين لنا كل شىء .. بمجرد وجودك ..

وأقبل الدكتور رشاد ينادى :

— اتفضل يا سيادة المقدم ..

واختفى محمود برهة فى غرفة الطبيب وخرج بعد لحظة .. سلم على الطبيب شاكرا وسار بجوار نعمت حتى آخر الممر ..

مد يده مودعا ..

استبقى كفها بين كفيه وضغط عليها برفق وهمس قائلا :

— ماذا أقول لك ؟

— لا تقل شيئا .

— وحتى لو أردت فإنى لا أعرف أن أقوله ..

— ربنا يرعاك .. وينجيك .. لست أعرف لماذا أخشى عليك .. بت عندى شيئا عزيزا .

— وأنت عندى شىء آخر .. غير هذا العالم بأكمله .

وتنهدت نعمت .. وتركت يدها تسترخى بين يديه وأردف هو يقول :

ــ يكفينى . أن أتطلع إلى وجهك .. أن أمسك يدك .. أن أسمعك تتحدثين .. أن أرى بسمتك .. أن أسمع عتابك ، حتى غضبتك أحبها ..

وأحست نعمت بأن شيئا يذيبها من الداخل .. وهمست :

ــ كفى ..

ــ بل إن مجرد التفكير فيك .. يبعث الأمل فى نفسى .. يجعل الدنيا كلها تورق وتخضر ..

وهز رأسه واستطرد يقول :

ــ أظننى كبرت على هذا .. ولكنك أيقظت صباى .. عندما كانت الدنيا تزهر .. من قلوبنا .. ونغنى فى باطننا ..

وأحست نعت بوقع خطى مقبلة فهزت يديه قائلة :

ــ مع السلامة ..

ثم استدركت قبل أن تترك يده :

ــ هل أراك غدا ؟

ــ يعنى ..

ــ سآتى إلى المعسكر فى الصباح ..

ــ لماذا ؟

ــ لأطمئن عليك .

ــ أجليها لبعد غد .

ــ بل سآتى غدا ..

ــ أمرك .. تصبحى على خير ..

ــ وأنت من أهله ..

وودت نعمت لو التصقت بصدره .. ولكن الخطى أخذت فى الاقتراب فشدت على يديه واستدارت إلى غرفتها ..

باتت ليلتها يؤرقها القلق والخوف .. وأحلام مليئة بالدوى والشظايا وأعمدة الدخان ..

ومحمود يعدو فوق سحابة لاتكاد تمسك به حتى يتلاشى .. وزملاء الصحافة يحيطون بها ويلحون عليها بالشائعات .. أشياء كثيرة زخرت بها أحلامها . كان من بينها داليا ابنه محمود ..

وتسلل ضوء الفجر فتركت الفراش وبدأت تتشاغل بالاغتسال وارتداء الثياب ..

وعندما غادرت غرفتها لم تكن الساعة قد جاوزت السابعة .

ومرت بعنبر المرضى فوجدت عبد العزيز قد غادر فراشه فى المساء وذهب مع قائده .

ذهبت إلى الميس .. شربت الشاى .. ثم خرجت إلى الحديقة ..

أحست بلسعة برد حملتها نسمة صباح الخريف . دخلت حجرتها فوضعت الجاكتة . وطلبت من أحد الجنود أن ينادى على السائق ويعد العربة .

كان كل شيء هادئا ..

صباح رائق .. تتسابق نتف السحاب على صفحة سمائه الزرقاء .. وعصافير تزقزق .. فى أغصان شجرة عتيقه تساقطت قطع الصمغ من جذعها ..

كل ما حولها يناقض ذلك القلق المصطخب فى باطنها .. وظلت تسائل نفسها ..

ما هو هذا الشيء الذى سماه محمود « شغل » ! ما طبيعته .. وما حجمه ومداه .. ومتى يقع ؟ ..

أو هوقد وقع فعلا ؟

الذى تعرفه أن مثل هذه الأشياء تقع قبيل الفجر .. لتأخذ الخصم على غرة ..

وعلى هذا فالمفروض أنه قد وقع فعلا .. أو هو يقع الآن ..

واتخذت مكانها فى العربة ..

وانطلق بها السائق ..

الطريق كما هو .. بمطباته .. وحجارته .. وبكل سمات الدمار المحيط به ..

اقتربت من البوابة الأولى ..

لعل العسكرى لا يوقفها ..

كان يجب أن تطلب من محمود أن يلغى أوامره حتى لا تتعرض مرة أخرى إلى السخافة التى تعرضت لها أول مرة ..

ومرت العربة من البوابة الأولى .. والثانية .. دون أن يعترضها أحد .. حياها الحارس وتركها تمر .

وأخيرا وصلت إلى نهاية الطريق ..

بدت نقطة المراقبة .. بجوارها المصلى .. ومن ورائها الميناء .. والمياه الزرقاء تنبسط حتى جبل عتاقة فى اليمين والشاطئ الآخر من القناة فى اليسار .

وأحست نعمت بشىء من الراحة .. وهى ترى كل شىء هادئا ..

ليس معقولا أن يستغرق الموقع كله فى مثل هذا الاسترخاء والهدوء .. وشىء ما حدث !

— لا يعقل أن يكون هناك شىء مما سماه محمود « شغل » .

بالتأكيد ليس هناك آثار « لشغل سابق » .. ولا يبدو أن هناك استعدادا لشغل لاحق ..

وهبطت من العربة متقدمة إلى نقطة المراقبة لعلها تجد صلاح . ولكنها لم تكد تسير بضع خطوات حتى سمعت صوت محمود يهتف بها :

— غير معقول .. ماذا أتى بك فى هذه الساعة ؟

— أؤدى واجبى ..

— رجوتك أن تؤجلى الحضور إلى بعد غد ؟

— ولهذا أتيت ! ..

— أنت عنيدة ..

ــ هل تظننى أستطيع أن أسترخى فى المستشفى . بعد كل ما قلته لى ..

ــ وماذا ستفعلين هنا ؟

ــ أرى ما تفعلون ..

ــ لن ترى شيئا ..

ــ مجرد وجودى معكم .. يدفع فى نفسى إحساسا بالطمأنينة ..

ــ أنت مخلوقة عجيبة .. إننى أعبدك ..

وهمست فى فزع :

ــ غير معقول .. أهذا الكلام يقال هنا ؟

ــ أقوله هنا .. وفى كل مكان إنه الحقيقة ..

وبدا الارتباك على وجه نعمت وما لبثت أن استأذنت قائلة :

ــ سأمر على المواقع ..

ــ لا تطيلى البقاء فى الموقع أرجوك ..

ــ ماذا تخشى على .. إنى أرى كل شىء هادئا ..

وتنهد محمود ورفع يده يشير إليها مودعا وهى تتحرك بالعربة .. واتجه هو إلى نقطة المراقبة ..

(٩)

كنت أعرف أنى سأعود

أمضت نعمت بضع ساعات الصبح .. وهى تنتقل بين المواقع ..

كل شىء هادىء .. وكل شىء يسير على النمط الذى تعودته طوال الأيام التى قضتها بين المواقع .. الجنود فى مواقعهم يتحركون .. يتثاءبون .. ينظفون السلاح .. يتبادلون النكت ..

لا أثر لتغيير ما .. يدل على أن شيئا وقع أو يوشك أن يقع .. لا أثر مطلقا .. لذلك الشىء الذى سماه محمود .. شغل . والذى من أجله جر الفتى الأسمر الحزين المهموم من عنقه إلى المواقع .. تاركا مشكلته الرابضة فى بطن سعدية .. تحل نفسها وكأنها شىء لم يعد يخصه ..

الله أكبر .. الله أكبر .. أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن لا إله إلا الله .. وانطلق صوت المؤذن يؤذن لصلاة الظهر من المصلى المفروشة بالحصير بجوار الميناء ..

حى على الصلاة .. حى على الصلاة ..

لم يكن الأداء به نغمة المؤذن المحترف .. ولكنه كان قويا عاليا ..

واصطف الجنود وراء أحدهم يؤم بهم الصلاة .. وانحنت الأجساد .. مست الجباه الأرض فى سكينة وخشوع .

وفى جانب آخر من الموقع .. وقفت عربة التعيين تفرغ حمولتها .. وصاح أحد الجنود .. ملقيا إحدى النكات ساخرا من سائق العربة .. وقهقه بعض الجنود وصاح السائق هازئا بأنها قديمة ..

ولم تجد نعمت بين كل هذا ما يبعث على القلق .. وأحست أن ما سماه « شغلا » لابد قد تأجل . فمن غير المعقول أن يقوم بالهجوم فى عز الظهيرة .. ومن غير المعقول أن يكون هناك عمل عسكرى أيا كان مظهره .. وسط هذا الجو من الاسترخاء النسبى الذى تتسم به الحياة الطبيعية فى الجبهة ..

واتخذت نعمت مجلسها بجوار السائق وأمرته بالعودة إلى المستشفى ..

وانطلقت العربة بنعمت تتقاذفها مطبات الطريق ويلفها غباره وفى نفس اللحظة التى انطلقت فيها نعمت إلى المستشفى .. وأثقة من أنه لن يكون هناك شغل .. كان « الشغل » قد بدأ ..

والتكبير يعلو فى المصلى ..

وعربة التعيين تتحرك لتفرغ حمولتها بين المواقع ..

والضحكات تتعالى .. والنكات تتبادل .

كانت هناك أجساد تنساب إلى الماء .. تتوالى فى هدوء وصمت .. وفى أماكن متفرقة من الشاطئ تنزلق كما تنزلق التماسيح .. بثقة وقوة .. وبغير صجيج ولا رشاش .. تشد السلاح والذخيرة إلى ظهورها فى غطاء واق من الماء .. وتسبح تحت الماء فى دفعات قوية هادئة نحو الشاطئ الآخر .

ووقف محمود وراء إحدى الدشم يرقب الأجسام تختفى فى الماء . عبد العزيز . صلاح . صبحى . زينهم . لبيب .. وتوالى الباقون ينزلقون الواحد بعد الآخر . وكل شيء يجرى على الشاطئ فى مجراه الطبيعى .. الصلاة والصيحات وحركة العربات ..

وألقى محمود نظرة على الشاطئ الآخر ..

كل شيء هادئ،كل شيء يبدو ف حالته الطبيعية،لا شيء ينم على أنهم يحسون بشيء ما .. أو يتوقعون شيئا ما ..

ولف محمود حول الدشمة ، وفى ثانية .. كان قد اختفى فى الماء .

سرت فى جسده رجفة الماء البارد ..

غريبة ، لم يكن بظنه بمثل هذه البرودة فالشمس مشرقة ، والجو يبدو دافئا ، وبكل ما يملك من قوة مختزنة ، ضرب الماء بذراعيه ، وضم ساقيه بعنف فاندفع جسده يشق طريقه تحت الماء ، وأمسك أنفاسه ، ثم ضرب الماء بذراعيه ، وعاد يضم ساقيه بكل ما يملك من قوة .

وبعد لحظات ، أحس برمال الشاطئ الآخر تحت قدميه .

وبحذر شديد رفع رأسه ، وجذب نفسا طويلا ، أنقذه من الاختناق ثم تلفت حوله ، فلم يبصر من أولاده سوى رءوس تكاد تدفن فى الرمال ، فبدأ يسحب جسده ببطء أسفل حائط الرمال ، وأخذ الأولاد يتبعونه زاحفين فى حذر شديد ، يدورون حول الجرف .

وكادت الأنفاس تحتبس فى صدورهم ، وهم يقطعون الخطوات القليلة الباقية بينهم وبين الموقع الإسرائيلى .

وأحس محمود بالخوف .

إنه يكره أن يخونه الحظ .. فيكتشف العدو وجودهم فى الخطوة الأخيرة .. وتنتهى العملية بالفشل .

لم يطف الموت بذهنه فى هذه اللحظة قط ، ولو طاف ، لا حتقره ، فهو لا يشكل فى هذه اللحظات تهديدا بألم ، وإنما يشكل منعا لمهمة ، وتعجيزا عن أداء واجب ، وهو قد خرج ليفعل ما يريد أن يفعل ، لا يقبل أن يحول بينه وبين ما يريد شىء ، حتى الموت ، إنه يرفضه ، كمعرقل لمهمته ، وليس كموقف لحياته فقيمة حياته فى هذه اللحظات ، هى تأدية هذه المهمة .

إنه لا يرفض الموت ، ولكنه يرفضه الآن ..

ومن أجل هذا أحس بالخوف ، وهو يخطو الخطوات القلائل الحاسمة .

إنه يكره أن يخونه الحظ .. فيكتشف الإسرائيليون وجودهم ، وهم يطلون عليهم فيحصدونهم ببضع دفعات من رشاش فى يد جبان .

بضع خطوات أخرى تقودهم إلى المواجهة .

فقط .. هذا هو ما يريد .

أن يقف وأولاده أمامهم ، وسلاح كل فى يده .

تلك هى أمنية عمره الدائمة .

و لم يبق دونها غير خطوات .

وبغير إرادة .. قرأ الفاتحة ..

تلاها بسرعة ، خلال الخطوات الباقية ..

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين* الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ آمين .

وقادته آمين .. إلى الخطوة الأخيرة .

و كان كلام الله يتردد على ألسنة معظم الأولاد .

قرأ محمود آية الكرسى ، التى تعود أن يقرأها قبل كل امتحان .. وتعود بها أن يمر بنجاح .

و لم يستطع صلاح أن يمنع الخوف من أن يتسلل إلى نفسه ..

لم يكن خوفا على حياته من أجل حياته .. بل كان خوفا على حياته من أجل أمه والصغار من أخواته .

علمته سنوات السجن التى نزعت أباه من بينهم .. أن يحمل هو وحده مسئولية الأم والصغار .

علمته أن يخاف على حياته . من أجلهم وألا يتركهم ويهرب كما فعل أبوه ..

وفكر عبد العزيز فى سعدية ، ولكنه لم يلبث أن طرحها ، هى وما فى باطنها جانبا .

لم يكن يشعر بالخوف من الخطوات الأخيرة ، كانت لهفته على المواجهة أقوى من خوفه من أى شيء ، أقوى حتى من خوفه من رصاصة تقضى عليه قبل المواجهة .

كان يشعر بثقة شديدة ، ثقة عمياء ، أو بلهاء ، قد تدفعه إلى أن يقفز قفزة يقطع بها الخطوات الباقية ، دون أن يخشى أن تكشفهم القفزة للعدو فيحصدهم برصاصه قبل أن يتمكنوا من مواجهته .

وفى الخطوة الأخيرة ، صمتت الألسن ، حتى كلام الله الذى استعانوا به ليمنحهم العون فى اللحظات الأخيرة ، جمد على شفاههم .

وأصبحت الأنفاس .. لفحات ريح .. ودقات القلوب مطارق ..

وأشار محمود بيده محاولا أن يهدئ الأولاد ، ولعله كان يساعد بحركته على تهدئة نفسه .

وخطا الخطوة الأخيرة .. لتقودهم أمام الموقع ..

كانت المفاجأة كاملة ..

كان جنود العدو فى الموقع يمارسون عملهم اليومى العادى .. واحد يقرأ ، والآخر ينشر قميصه .. وآخران يلعبان الشطرنج ،وآخر يتمطى واثنان فى المراقبة يواجهان الشاطئ بسلاحهما .

ونظر الجنود إلى محمود وجماعته ، وقد شلتهم الدهشة ، وصرخ أحدهم ، والتفت جنديا المراقبة ورفعا سلاحهما فى مواجهة الجماعة .

وقبل أن يلمس أصبعهما زناد الرشاشين ، كانت بضع رصاصات قد استقرت فى صدريهما من الرشاشات المصرية ..

واندفع الجنود الإسرائيليون بأسلحتهم من داخل الموقع على صدى الصياح .. والطلقات ..

وبدأت المعركة .

وانقلب الموقع إلى قطعة من الجحيم .

دمرت القطع المدرعة الظاهرة على أرض الموقع.. بمدافعها،ودمر مركز الاتصال بكل ما فيه .

وقضى على كل من بدا خارج الدشم المسلحة من الجنود الإسرائيليين .

وسقط جنديان مصريان .. لبيب .. وزينهم ..
وبدأ الهجوم داخل الدشم .
بدأ صراع المواجهة .. وجها لوجه .. ويدا ليد .
الغل والحقد ،فى وجوه المصريين .
الرغبة الدفينة فى الثأر ، لكرامة جيش وكرامة شعب .. الثأر لعشرين ألف قتيل .
والارتياع على وجوه الإسرائيليين .. يقفون بغير أدوات تفوق .. بغير تكنولوجيا .. بشرا لبشر .. أو حيوانا لحيوان .
وهجم عبد العزيز على جندى ممتلىء أحمر الشعر ..
ولم يخف الجندى السلاح الذى فى يد عبد العزيز ، بقدر ما أخافته التعبيرات المرتسمة على وجهه .
هتف الإسرائيلى باللغة العربية :
ــ أنا فى عرضك يا مصرى ، لا تقتلنى ..
ونظر إليه عبد العزيز وعظام أصداغه تتلاعب وسأله فى دهشة :
ــ أتتحدث العربية يابن الـ ..
وانطلق سيل من السباب من شفتى عبد العزيز .
فصاح الإسرائيلى فى خوف :
ــ لماذا تشتمنى ..؟
ورفع يديه إلى أعلى قائلا فى ذلة :
ــ أنا سلمت ، أنا أسير .
ودفعه عبد العزيز أمامه خارج الموقع وهو مستمر فى السباب :
ــ فوت يابن الـ ..
وأبصر محمود عبد العزيز وأمامه العسكرى الإسرائيلى فهتف به :
ــ ما هذا ؟

ــ أسير .

ــ ماذا تفعل بالأسرى ، لماذا لم تقتله ؟

ورد عبد العزيز ببساطة :

ــ لقد رفع يديه وقال أنا فى عرضك يا مصرى لا تقتلنى .

وبدت الحيرة على وجه محمود ثم سأل عبد العزيز :

ــ أخذت سلاحه ؟

والتفت عبد العزيز إلى العسكرى الإسرائيلى :

ــ أمعك سلاح ؟

ــ لا ..

ومد عبد العزيز يده يتحسس جيوبه وجسده ثم قال له :

ــ ابق هنا ، ولا تتحرك ، وإلا أفرغت الدفعة الباقية فى رأسك .

وكان هناك جزء من الموقع لم يزل فيه بضعة جنود إسرائيليين يتبادلون الطلقات مع الجنود المصريين . واتجه محمود نحو الموقع ..

قال محمود :

ــ يجب أن نرحل بسرعة ، قبل أن تأتى الإمدادات من الموقع المجاور ..

رد عبد العزيز :

ــ لحظة واحدة .. ننتهى من هؤلاء الكلاب ثم نعود .

ووثب عبد العزيز تجاه الموقع .

وفى لمح البرق انحنى العسكرى الإسرائيلى الأسير على قتيل إسرائيلى بجواره وسحب سلاحه ثم صوبه نحو عبد العزيز وأطلقه فى ثانية .

وتعثر عبد العزيز ثم سقط .

والتفت محمود جزعا ووجد الأسير الإسرائيلى يصوب سلاحه نحوه ويهم بإطلاقه ، فعاجله محمود بطلقة أردته قتيلا .

وقفز محمود نحو عبد العزيز يفحص جرحه وهو يقول :

ـــ قلت لك اقتله .

و لم يجب عبد العزيز ، كان الألم يبدو على وجهه وهو يقول :

ـــ لا أريد أن أموت .

ثم استدرك يقول قبل أن يرد محمود :

ـــ لا أخاف الموت ، ولكن لدى شيئا أريد أن أفعله ..

وازدرد ريقه ثم استطرد يقول :

ـــ لم يخطر ببالى أنى سأصاب ، كنت أعرف أنى سأعود كما عدت دائما .. ولهذا سمعت أمرك .. وعدلت عن النزول .

وهتف محمود :

ـــ ستعود يا عبد العزيز . شد حيلك ، انهض واستند إلى ذراعى هيا ، بسرعة .

وحاول عبد العزيز أن ينهض .

وأطلق صيحة ألم مكتومة :

ـــ ياه ، أنا تعبان ..

ثم صمت محاولا أن يكتم صيحة الألم فى صدره ، ثم استطرد يقول :

ـــ تعبان أوى يا فندم .

وأشار محمود إلى الجنود الذين انتهوا من تدمير بقية الموقع .

ـــ هيا ..

وبدأت أصوات جنازير الدبابات تقترب ..

وعاد محمود يهتف :

ـــ صلاح ، يللا بسرعة ، إنهم قادمون ..

واقترب صلاح فأبصر عبد العزيز مكوما على الأرض وهو يكتم صيحته ويخرج من بين أسنانه صوتا أشبه بالحشرجة :

ـــ ياه ..

وهتف صلاح :

ــ ماله ؟ ..

ــ ضربه ابن الكلب فى ظهره !

ــ ابن الكلب من ... ؟

ــ عسكرى رفع يديه ، وقال إنه فأخذ أسيرا .. ثم تناول بندقية أحد القتلى وضربه فى ظهره .

وانحنى صلاح فوق عبد العزيز ووضع يده حول جسده وحاول أن يرفعه قائلا :

ــ قم يا عبد العزيز ، هيا .

ورد عبد العزيز وهو يهتف :

ــ مش قادر يا فندم ، شيء يتمزق فى جوفى .

ــ سأحملك ، فقط ساعدنى .

وبدأ عبد العزيز يتحامل على ذراع صلاح ، واقترب بقية الجنود . وأقبل صبحى يساعد صلاح فى حمل عبد العزيز

وقال محمود وهو يسمع صوت الدبابات تقترب :

ــ يللا يا جماعة بسرعة .

واندفع الجنود يهبطون نحو الماء .. وهرول صلاح وصبحى وهما يحملان عبد العزيز وقد أغرق الدم ثيابه وأخذت قطراته تتساقط على الرمال .

وبين آونة وأخرى يشد عبد العزيز ذراعيه حول عنق صاحبيه وكأنه يقاوم ألما شديدا ويصيح من بين ضروسه :

ــ ياه .

ويقول صلاح وهو يتمزق ألما :

ــ معلهش يا عبد العزيز سنصل حالا ، وستذهب إلى المستشفى .

ويرد صبحى :

ـ شد حيلك يا عبد العزيز .

ويهتف عبد العزيز فى نبرة إصرار حانق :

ـ لا أريد أن أموت ..

ـ لن تموت يا عبد العزيز !

ويرد صبحى والعبرات تخنق صوته :

ـ ربنا معاك .. انت راجل !

ويرد عبد العزيز كأنه ينفى عن نفسه تهمة :

ـ لايهمنى الموت ، ولكننى فقط أريد أن أنزل لأتزوجها .

وخيل لصلاح أنه يهذى فرد مهدئا وهم يقتربون من صفحة الماء :

ـ ستنزل يا عبد العزيز وتتزوجها .

وقال صبحى :

ـ ربنا ينجيك وتفعل كل ماتريد !

وقال عبد العزيز فى إلحاح بعد أن أطلق آهة ألم :

ـ لا أريدها أن تجهض .

ثم استطرد يقول لصلاح فى عصبية :

ـ سامع ؟! .

ـ أجل ..

ـ واحد منكم يذهب إليها ليمنعها من الإجهاض !

ـ من هى ؟

ـ سعدية .

ـ سعدية من ؟

وبدأ الهبوط فى الماء .

وغطست الأجسام المتربة المبللة بالعرق فى مياه القناة الباردة .

وصرخ عبد العزيز صيحته المكتومة :

ـــ ياه .

وقال صلاح :

ـــ اصبر يا عبد العزيز ، استند علينا ضع يدا على كتفي واليد الأخرى على كتف صبحي .

وهتف عبد العزيز :

ـــ مش قادر ،تعبان قوى .

وقال صبحي :

ـــ اصبر يا عبد العزيز ، خلاص ، سنصل حالا ..

وأحس محمود بيد عبد العزيز لا تقوى على الاستناد إلى كتفه . فمد ذراعه اليمنى واحتضنه خشية أن ينزلق إلى الماء بذراعه اليسرى ، وأمسك صبحي يساعد عبد العزيز بيده الخالية وهو يضرب الماء بيده الأخرى .

وعاد عبد العزيز يطلق صرخته المكتومة التي تمضغ الألم :

ـــ ياه .. ياه ..

ـــ خلاص يا عبد العزيز !

ـــ أحدكم يذهب إليها .. يمنعها .

ـــ حاضر !.

ـــ يلحقها قبل أن تنزله .

ـــ حاضر !.

و لم يحاول صلاح أن يفكر في من هي التي يجب أن يلحقها و لا الذي يجب أن يلحقهاقبل أن تنزله ، ولكن « حاضر » كانت على شفتيه ، نوع من المسكن يهدئ به الفتى الجريح الذي يتمزق باطنه .

وأحس صلاح بالجسد الجريح يسترخي تحت ذراعه .

كف عن الآهة ، وكف عن الألم ! .

وسرت في جسده رجفة وهو يضرب الماء .. ويسمع الدوي يتصاعد من

حولهم ..

بدأت المدفعية المصرية تضرب المواقع الإسرائيلية بعد أن أدركت أن القوة المصرية قد أخلتها ..

وبدأ الإسرائيليون يردون على المدافع المصرية ويحاولون ضرب القوة المصرية أثناء عبورها للعودة .

وأسرع صلاح يضرب الماء بسرعة ، وقد سبقه الجنود إلى العبور وانطلقوا على الشاطئ يحتمون فى الدشم .

قال لعبد العزيز وهو يجد قواه قد خارت تماما :

— اجمد يا عبد العزيز !

وهتف صبحى :

— خلاص وصلنا !

و لم يجب عبد العزيز ..

ووضع صلاح يده على رمال الشاطئ ثم جذب الجسد الخائر من المياه بمساعدة صبحى .

وأطلق عبد العزيز صيحة ألم فاترة .. مجرد آهة خافتة .. لم تستطع قواه الخائرة أن تلفظ مرارة ألمه .

— آه .. خلاص ؟

وعاد يردد رجاءه :

— واحد منكم يذهب إليها ، أنا سأتزوجها ، والله العظيم الست النقيبة تعرف هذا ، وكانت ستجعلنى أنزل ، ولكن سيادة المقدم أمرنى بالعودة فعدت .

ثم تمتم بصوت خافت :

— لم أكن أعرف أنى سأموت ، لم أمت فى المرات السابقة ، كنت أعود دائما .

وسحب صلاح عبد العزيز من المياه وحمله حملا مع صبحى ، وهرول به إلى أقرب دشمة ، والدوى يتصاعد ، والانفجارات تتوالى فى كل مكان .

وصعد محمود من المياه ، كان آخر من صعد ، انطلق فى أعقاب صلاح وحمله المسجى على كتفيه .

وصل إلى داخل الدشمة .

الثياب تقطر منها المياه ، وعلى الشفاه ملوحة البحر .. ورجفة برد تسرى فى الأجساد ، وصوت الدوى يتلاحق فى الخارج ، فرقعة وصوت دك ، وانفجارات تتدحرج كالرعد .

والإنسان يتحرك بغير إرادة ، وبغير تفكير ، وبغير شعور ، كل ما يدخل فى باب الإرادة قد تحجر ، والمشاعر قد جمدت

يفرح لماذا ، أو يحزن لماذا ، ليس يدرى .

ووسط الدشمة المظلمة التى لا يضيئها إلا بصيص من شعاع النافذة المستطيلة الضيقة ، وقف محمود ليلتقط أنفاسه .

هزته رجفة برد ، والثياب المبتلة تلتصق بجسده .

التقط أنفاسه ، وجد صلاح يجلس على صندوق خشبى من صناديق الذخيرة وقد دفن رأسه فى كفيه .

صبحى جذب مشمع فرش . ووضعه على جسد عبد العزيز الممدد على الأرض .

لم يرفع صلاح رأسه من كفيه ، ولم يقف لتحية القائد .

لم يكن يشعر بأنه قادر على أى شىء .

وقف محمود وسط الدشمة .. جسده الطويل انحنى .. ورأسه سقط نحو صدره .. ازدرد ريقه .. لم يعرف ماذا يقول ؟

كان صبحى أول من تحدث ، قال باختصار :

— مات ! ..

ورفع محمود كفه يمسح جبينه وعينيه .. كره أن تمسك مشاعر الضعف بتلابيبه ..

لم يكن أول عسكرى يموت منه فى معركة .

لماذا يشعر إذن بهذا الانكسار والانقباض فى صدره .

يود أن يصرخ ، أن يبكى .

ولكن يجب عليه ألا يترك نفسه لمثل هذه الانفعالات السخيفة . يجب أن ينطلق إلى الخارج بعيدا عن الجسد الميت .

يجب أن يواصل عمله ، يصدر أوامره .. ويلم شعثه ، ويحصى خسائرة ، ويعطى تقريرا للقيادة بنتيجة العملية .

بلاغات عسكرية مفروضة أن تعلن .. بما حدث .

يجب أن يخرج من هذه الدشمة المظلمة وأن يستحم ويغير ملابسه ..

ولكنه يشعر أنه مشدود إلى هذا الجسد .

مشدود بحزن وألم ومرارة ..

إنه لا يعنى أكثر من رقم فى تقرير .. « خسائر ٢ قتلى ، وثلاثة جرحى » ، أحد خمسة ، لايأخذون أكثر من رقم فى تقرير وانتهى الأمر ، ولكنه ، لا يشعر أبدا ، أنه يستطيع أن يحوله كذلك .

كان مخلوقا مميزا عنده، بصفائه وأخلاصه وشجاعته .

ولقد جره من العيادة .

جذبه من فراشه فى المستشفى .

دون أن يعرف ما بها! ..

قال له — عندنا شغل — ثم سأله :

— أنت مريض ؟

قال : لا ..

سأله :

— أتريد أن تنزل إلى مصر ؟

— قال : — لا ..

قال له انتظرنى فى العربة سنعود معا إلى المعسكر .

وأجاب ببساطة :

— حاضر يا فندم .

وفى المعركة ، صدق العسكرى الإسرائيلى ..

وقال له لا تقتلنى يا مصرى فلم يقتله ، وقتله هو ..

أتراه أذنب فى حقه ؟؟

— أجل .. أذنب مرتين .

لم يحاول أن يعرف ما به .

قالت له نعمت إنه مصاب بانهيار فسخر منها ، ومن كل علاجها النفسى ..

قال لعبد العزيز ببساطة : «عندنا شغل »

نسى الفتى كل شىء وسار معه .

هذه مرة .

والمرة الثانية ، إنه لم يقتل الأسير ، إنه أكثر خبرة منه ، فلماذا تركه لحسن نيته وطيبة خلقه ؟ .

كان يجب أن يأمره بقتله ، أو يقتله هو بنفسه ، وبزيادة قتيل ..

لقد قتلوا كل من فى الموقع ، وكانت العملية كلها عملية تدمير ، لا تحتمل الأسر .

ولكنه أقنعه بحسن نيته ، قال له إن الرجل رفع يديه وسلم وإنه اعتبره أسيرا ، وخجل هو أن يقول له اقتله .

ومرة أخرى سرت رجفة البرد فى جسده .. يجب أن يرحل ..

يصدر أوامره بالتعليمات الواجبة ثم ينصرف ..

ولكنه بغير وعى انحنى على الجسد رفع المشمع عن وجهه .

أحس بحنين شديد يدفعه إلى أن يقبله .. انحنى عليه ومس جبينه بشفتيه .

وضغط بأسنانه على شفتيه ..

هذه الدموع المخجلة تأبى إلا أن تتساقط ..

وتركها تتساقط فى صمت لتبلل الوجه الأسمر .. ثم استدار وهو يزدرد ريقه مع ما استطاع أن يمتصه من الدموع ..

ووقف منتصب القامة . قال لصلاح :

ــ ينقل إلى القاعدة .

ثم التقط نفسه واستطرد يقول :

ــ أريد أن أتمم على العساكر .

ووقف صلاح ينفض عن نفسه أحمال الأسى والحزن :

ــ حاضر يا فندم .

ــ يجب أن أعود إلى المكتب لإبلاغ القيادة بما حدث ..

ــ ألن تغير ملابسك ؟

ــ أجل .. عندما ينتهى هذا الجحيم الذى حولنا ..

وبعد برهة خف الدوى ..

سقط قرص الشمس وزحفت الظلمة ..

وغادر محمود الدشمة .. متجها إلى مقر قيادته حتى يغير ملابسه وكان أول ما لقيه بباب الدشمة .. عربة تقف وتنزل منها نعمت .. وإذا بكل منهما يجد نفسه فجأة أمام الآخر ..

لم يجسر أحد منهما على أن يفعل ما يشعر أنه فى حاجة إلى أن يفعله .

لم تثب لتضمه إليها و لم يأخذها فى لهفة بين ذراعيه نظرت إليه فى صمت . كل ما استطاعت أن تقوله هو كلمات خانقة تمتمت بها :

ــ أأنت بخير ؟ ..

وأطلق هو زفرة قصيرة ثم سألها :

ـــ ماذا أحضرك ؟

ـــ سمعت الدوى .. فقلت إن الشيء الذى كنت أتوقعه قد بدأ وأسرعت لأطمئن عليك ؟

وعاد يزفر قائلا فى كلمات مقتضبة :

ـــ الحمد لله ..

وتساءلت نعمت فى قلق :

ـــ لا تبدو على ما يرام ؟

ـــ أبدا ..

ـــ ماذا حدث ؟

ـــ عبرنا القناة ..

ـــ وماذا فعلتم ؟

ـــ دمرنا الموقع ..

ـــ كانت العملية ناجحة ؟

ـــ جدا ..

ـــ إذن لماذا أنت حزين ؟ ..

ـــ مرهق فقط ..

ـــ إذن لماذا لا تسرع فى إبدال ملابسك ؟

ـــ سأذهب الآن ..

وخرج صلاح من الدشمة وقد بدا مطأطئ الرأس . فهتفت به :

ـــ صلاح .. كيف حالك !

ـــ الحمد لله ..

وأحست نعمت أن جوا من الحزن يخيم على الجميع فتساءلت :

ـــ ماذا بكم ؟

وببساطة رد عليها صلاح :

ـــ عبد العزيز مات ..

وأحست نعمت كأن مطرقة هوت على رأسها وعادت تتساءل غير مصدقة :

ـــ مات ؟ .. عبد العزيز ؟

وضاق محمود بموقف الانفعال الذى يوشك أن يحدث ، فقال فى عجلة وبغير شعور : نفذ التعليمات التى أصدرتها إليك وسأذهب لتغيير ملابسى .

التفت إلى نعمت قائلا :

ـــ أظن من الخير أن تعودى إلى المستشفى . الدنيا ليلت ... والطريق مزعج بالليل ..

ولكن نعمت لم تسمع حديثه . كانت مأخوذة بخبر موت عبد العزيز ..

وعادت تسأله غير مصدقة :

ـــ عبد العزيز .. مات ؟

وقال محمود فى شىء من القسوة :

ـــ البعض منا لا بد أن يموت .. لقد عبرنا القناة .. وقتلنا اليهود .. هذه أنباء طيبة ..

ولكن نعمت استمرت تقول وكأنها تحدث نفسها :

ـــ كان يريد أن ينزل .. كان يريد أن ينصف نفسه .. وألا يكون جبانا فى أى مكان ..

ثم التفتت إلى محمود متسائلة فى حزن :

ـــ لماذا لم تدعه ينزل ؟..

ورد عليها محمود فى حزم :

ـــ نعمت .. أرجوك .. عودى إلى المستشفى ..

واستطردت تقول :

ـــ لماذا أصررت على أن تأخذه معك .. لقد كان يريد النزول .. لكى يكفر عن ذنب جناه .. فلماذا لم تتركه يفعل ؟

وزفر محمود زفرة ضيق ثم أمسك بذراع نعمت يجرها نحو العربة قائلا :

ـــ نعمت .. من فضلك .. ليس هذا وقته .. نحن نفعل ما يجب أن نفعله .. نحن لا نعرف من سيموت منا ومتى ؟ .. وأين ؟ . حتى نكف عن إصدار أوامرنا للناس كى لا يموتوا ..

وبصوت يلفه الأسى والحزن ..

ـــ أرجوك يا نعمت .. إن بى ما يكفينى .

وردت نعمت قائلة وهى تشد على ذراعه :

ـــ أنا آسفة .. آسفة جدا .. سأعود إلى المستشفى .. وأرجو أن أراك فى أقرب وقت . وقبل أن أعود إلى القاهرة ..

وأمسك محمود بذراعها وقال فى حزم :

ـــ لن تعودى إلى القاهرة .. قبل أن أراك ..

ـــ حاضر ..

واتجهت نعمت إلى العربة .. واتجه محمود إلى مقر قيادته واتجه صلاح إلى الدشمة .. لينقل الجسد المسجى إلى القاعدة .

(١٠)

قبيل الرحيل

لم تستطع نعمت أن تفعل شيئا سوى أن تعود إلى المستشفى . تثقل نفسها انفعالات صاخبة تكاد تفجرها .

وبين كل هذه الانفعالات التى تجيش بها نفسها .. ومن خلال أصداء الدوى .. وفرقعة الانفجارات .. كان ثمة صوت يلح عليها بنبراته الحادة ولهجته الملحة فى إصرار :

ـــ أريد النزول ..

كانت تستطيع أن تقاوم محمود .. وأن تصر على التصريح لعبد العزيز بالنزول .

ولكنها لم تكن تدرى أن ما حدث يمكن أن يحدث ..

نحن لا نعرف ما سيحدث غدا حتى نستطيع أن نحدد حركاتنا فى إطاره .. بحيث نقدم على هذا الأمر .. أو نحذر من ذاك .

« لا أظنني احتجت هنا إلى شجاعتى لكى أنفذ أمرا بالتقدم .. لكى أهجم على موقع .. لكى ألقى قذيفة .. هذه كلها أشياء نفعلها ببساطة كجزء من عمل أى إنسان .. »

ولقد تصرف عبد العزيز فعلا كما قال ..

أنبأه محمود أن لديهم شغلا .. وطلب منه أن يرتدى ملابسه .. ويذهب إلى المعسكر .. فلم يزد على أن رد قائلا : « حاضر يا فندم » ..

ثم ذهب .. و لم يعد ..

مات .. ببساطة .. كما قال : الذين يموتون منا .. لا أظنهم احتاجوا إلى شجاعة وهم يواجهون الموت .. إن الموت هنا لا يمنحنا حتى فرصة الخوف منه .. وسط الضجيج والدوى والغبار والدخان .. تفلت شظية أو رصاصة .. لتنفذ فى أحدنا فيسقط ..

وسقط الفتى الأسمر .. بشظية .. أو رصاصة ..

مات ..

وكما قال أيضا : .. نحن لا نرى الموت إلا فى أشلاء أجسادنا .. وعند ذلك لا يثير فى نفوسنا الخوف بقدر ما يثير الحنق والحقد . والرغبة فى الثأر ..

ولكنه بالنسبة لها .. قد أثار الخوف .. والحزن والأسى ..

ربما لأنها لاتملك القدرة على الثأر ..

ربما لأن موته .. أكد لها أن الموت هنا ممكن ببساطة .. وأننا لا نملك إلا أن نفاجأ به .. فى أشلاء أحبابنا ..

واستلقت على فراشها بملابسها .. مشدودة مجهدة .. لو أنها استطاعت أن تبقى بجوار محمود .. لكان ذلك أبعث على راحتها .. فإنها تستطيع أن تفعل شيئا .. تدرأ به خطرا .. حتى لا تفاجأ بالموت فى أشلاء الأحباء .. أتى وذهب .. ليترك آثاره .. ويضع بصماته . ونحن نرقب فى استسلام وعجز .

وطرق باب الحجرة ..

ونهضت من فراشها فى عصبية قائلة :

ـــ ادخل ..

وفتح الباب . وسمعت صوتا يستأذن فى الدخول قائلا :

ـــ أنا رشاد ..

ـــ اتفضل ..

ودخل الدكتور رشاد ونظر إليها فى دهشة متسائلا :

ـــ ماذا بك ؟ ..

ــ لا شيء ..

ــ تبدين مرهقة .

ــ لقد عدت الآن من المواقع ..

وتساءل رشاد فى دهشة ؟!

ــ الآن .. الآن ؟

.. ثم استطرد يقول قبل أن تجيب :

ــ لقد قاموا بعملية عبور ناجحة جدا . لقد دمروا الموقع الإسرائيلى بأكمله وكانت خسائرنا ٢ قتلى و ٣ جرحى ..

قالها رشاد بطريقة تقريرية .. لا يشكل فيها القتلى والجرحى .. سوى مجرد أرقام فى .. إحصاء الخسائر والأرواح

وقبل أن ترد نعمت استطرد يقول :

ــ سنعود غدا إلى القاهرة !

وتساءلت نعمت فى دهشة ؟ .

ــ لماذا ؟ ..

ــ انتهت مدة المهمة ..

ــ ألا تستطيع أن نبقى فترة أخرى .

ــ بالنسبة لى لابد أن أعود لأن لدى ما أريد إنجازه فى القاهرة .. وصمت برهة ثم استطرد متسائلا :

ــ وبالنسبة لك .. لا أدرى لماذا تريدين البقاء ــ المفروض أن يكون لديك ما تقومين به فى القاهرة لهؤلاء الذين جئت لبحث حالتهم ..

وشرد ذهن نعمت لحظة ..

هذا هو المفروض ..

بل لقد كان عليها أن تعود قبل الآن إلى القاهرة .. ولكن شيئا فى أعماقها كان يشدها إلى هنا ..

شيئا خفيا على الغير .. ولكن ليس خفيا على نفسها ..

ولكن عندما تفكر الآن .. تحس أن عليها أن تعود ..

إن من حق هؤلاء .. الذين وعدت بأن تبذل جهدها لحل مشكلاتهم أن تعود فعلا لتقوم بهذا الجهد ..

من حقهم أن تذهب إلى بيت صلاح .. لترى أخواته وأمه ولتحاول أن تحصل على الترخيص الذى يريده أبوه من أجل إعالة أسرته .. .

من حقهم أن تفعل شيئا لعبد العزيز ..

أن تذهب للقاء سعدية .. وتخبرها أن الفتى لم يكن جبانا .. وأنه كان مصمما على العودة إليها لكي يتزوجها ويصبح أبا لابنها ..

ومن حقه عليها أن تقدم لها كل ما تستطيع من مُساعدة .. من أجل الخلاص من الجنين .. إذا كان ما يزال باقيا . وبقاؤها هنا — رغم رغبتها فيه — لن يكون له ما يبرره .. بل سيبدو مفتعلا .. وسيثير الأقاويل والشائعات .. وهى تكره أن تجعل منها ومن محمود قصة تلوكها الألسن وتتناقلها الشفاه ..

ثم هى لا تريد منه شيئا .. ولا تملك له شيئا ..

والمشاعر التى تشدها إليه .. لا تحتاج إلى مظاهر ملموسة لكى تمارسها من خلالها .. فهو كائن فى أعماقها .. كائن .. عزيز .. عزيز .

ولم تجد هناك بدا من الرحيل ..

ولكنها تمنت لو استطاعت أن تلقاه قبل الرحيل ..

أن تقول له شيئا .. وتسمع منه شيئا ..

ونظرت إلى رشاد .. وتساءلت :

— متى سنعود ؟

— فى الصباح .

— ألا يمكن تأجيل الرحيل إلى ما بعد الظهر ؟

— الصباح أفضل . ولكن إذا شئت أن نؤجله إلى ما بعد الغداء .. كما

تشائين ..

ــ أفضل هذا .. حتى تكون لدى فرصة مرور أخيرة على بعض المواقع .

ــ أمرك ..

وغادر رشاد الغرفة .. وعادت نعمت مرة أخرى إلى وحدتها .

أبدلت ثيابها واغتسلت .. .

تناولت قرصامهدئا .. وحاولت أن تنام ..

و لم يسهل عليها اصطياد النوم إلى جفنيها ..

انطلق ذهنها .. يقلب الصفحات ..

ما كل هذا الخضم الذى زجت بنفسها فيه ..

وما آخره ..

كانت تضيق بشائعات تطلق .. وزوج يلهو ..

وباستثناء هذا كانت الحياة تسير .. رتيبة هادئة . ولكنها ضاقت بها وثارت لكرامتها .. وأثارت زوبعة لأن زوجها عبد القادر كان على علاقة بزينات شكرى الممثلة .

وانطلقت هى هاربة من تلك الحياة ..

لتجد نفسها غارقة فى الحب إلى أذنيها .

يمكنها أن تنكر هذا أمام الناس .. وتستطيع أن تثبت بكل دليل أنه ليس هناك أى شىء .. ولكن أمام نفسها .. أتستطيع أن تنكر ؟ .

وزجت بنفسها فى غمار حياة الآخرين .. حياة صاخبة مضطربة .: لتخفف من هموم الناس وتحمل مآسيهم ..

رفاقها القدامى .. كانوا أقل هموما .. وأتفه مشاكل .. كانت متاعبهم : علاوة منعت .. أو اسما على مقال حجب .. أو وضع بنط أقل من البنط الذى وضع به اسم محرر آخر .. أو عنوان مقال لم يتضمنه الإعلان عن العدد .. بعد وضع عنوان مقال لمحرر آخر .. فى الإعلان ..

وهربت من هذه المشاكل التى كان الزملاء يرونها مآسى ..
لتجد المآسى الحقة .. ترقد ببساطة تحت مشمع فى دشمة .. لتجد الموت .. يقع — خلسة — من شظية تنحرف يمنة — كما يقولون — أو رصاصة تنحرف يسرة ..
على أية حال ستغادر هذا كله غدا .
لن يبقى منه إلا التزامها بمساعدة هؤلاء الأبطال .. فى حل مشاكلهم الخلفية ..
ولن يبقى منه .. سوى حب فى الأعماق .. سيضمر مع الزمن .. ويذوى مع الأيام ..
فقط .. تريد كلمة وداع ..
لا تريدها وداعا .. وداعا ..
ولكنها .. تريدها .. مجرد كلمة .. أو نظرة .. غدا تذهب إلى الموقع ..
ستدعى أنها تريد أن تسمع من هذا كلمة .. أو تقول لذلك كلمة ..
ثم تراه ..
لا تظن لقاءه بالشيء الصعب .. فهو بضجيجه وصخبه .. غرض واضح .. يمكن أن يكتشف وجوده ..
ثم .. إنه من حقه عليها أن تذهب إليه لتشكره .. وتقول له كلمة وداع ..
أجل .. أجل ..
ستفعل هذا غدا ..
وأغفت .. لتصحو على طرقات ..
ظنته رشاد مرة أخرى ..جاء ليقول شيئا عن رحيل الغد ..
— من ؟
أجاب الطارق :
— أنا ..

وكان هو .. بصوته الأجش .. العريض كمنكبيه .

وقفزت من فراشها لتضع على جسدها معطفا .. وتخلع ذلك المنديل الذى عصبت به رأسها .. وأجرت المشط بسرعة على شعرها وهى تقول :

ــ دقيقة واحدة ..

وفتحت ..

كان محمود يقف بالباب ..

استحم .. ومشط رأسه .. وأبدل ثيابه .. وأزال عنه بهدلة المعركة .. ولكن الإرهاق والهم .. كانا ما زالا مستقرين على وجهه وفى أعماقه ..

قال معتذرا :

ــ أقلقتك ؟

ــ أبدا .

ــ آسف .. كان يجب أن أنتظر حتى الصباح .. ولكنى لم أستطع .. ولم أكد أنهى الواجبات المحتم عملها .. حتى أتيت إليك ..

ــ لا داعى للاعتذار .. فالوقت ما زال مبكرا ..

ــ ولكن تبدين أنك قد استغرقت فى النوم ؟

ــ لم يكن لدى ما أفعله .. وكنت مرهقة .. فغفوت ..

ــ أتودين أن أتركك لتستريحى ؟

ــ أبدا .. سأرتدى ملابسى وآتى إليك حالا ..

ــ سأنتظرك فى الميس ..

وعبر محمود الممر واجتاز الحديقة إلى مبنى الميس .. واستقر فى حجرة الجلوس الصغيرة يتشاغل بإدارة مفتاح الراديو .

وأقبل العسكرى يحييه ويسأله عما يريد ..

سأله محمود :

ــ عندك ساندوتش ؟

ـــ لا ..

ـــ اعمل فنجان شاى ..

ـــ لا يوجد شاى ..

ـــ اعمل قهوة ..

ـــ لا يوجد بن ..

ـــ عندك كوكاكولا ؟

ـــ أحضرها لحضرتك من ميس العساكر ؟

ونظر إليه محمود فى غيظ قائلا :

ـــ لماذا إذن تسألنىعما أريد ؟ .. إذا لم يكن لديك شيء ؟

ثم صرخ فيه :

ـــ غور .. عسكرى غبى !؟

وتمتم العسكرى معتذرا :

ـــ سيادتك .. إذا كنت تريد ..؟

ـــ انتهينا .. لا أريد شيئا ..

وأقبلت نعمت على صوت صياحه .. فتساءلت فى دهشة :

ـــ ماذا حدث ؟؟

ـــ هذا الغبى .. أتى إلىّ يسألنى عما أريد .. وطلبت أى شيء .. فلم أجد عنده شيئا .. حتى فنجان القهوة ! ..

وسألت نعمت فى استنكار :

ـــ ألا يوجد عندكم بن ؟

ـــ خلص الآن ! ..

وهمت نعمت بالاتجاه إلى غرفتها قائلة :

ـــ سأحضر له البن .. وعندى شيكولاته وبسكويت ..

وهتف محمود :

ــ نعمت .. لا أريد أن أضيع الليلة على فنجان قهوة .. أريد أن أتحدث إليك اجلسى ..

ثم نظر إلى العسكرى الذى وقف يرقب منتظرا الأوامر .. وصاح به :

ــ غور .. أى ميس هذا الذى لا يوجد به فنجان قهوة ؟ ..

وانصرف العسكرى ..

وجلست نعمت فى مقعد مقابل لمقعد محمود .. ولكنه انتقل إلى المقعد المجاور لها ومد كفه ووضعها على كفها .. وكأنها حركة غير مقصودة ..

وسحبت نعمت يدها من تحت كفه .. فى صمت ..

وسألها محمود عاتبا :

ــ لماذا سحبت يدك ؟!

ــ نحن فى الميس ..

ــ إذن نذهب إلى الحجرة ..

وهزت نعمت رأسها قائلة :

ــ هكذا .. مرة واحدة ؟؟! ..

ــ وماذا فى ذلك ؟ ..

ــ فضيحة بجلاجل .. تضيع كل أمجادك التى أحرزتها اليوم ..

ــ لا تهمنى ..

ــ إذا كان لا يهمك أنت .. فيهمنى أنا .. هل يرضيك أن يقال إنى أدخلت رجلا إلى غرفتى ..

وأطلق محمود زفرة ضيق ثم قال :

ــ طبعا لا .. ومن أجل هذا .. حضرت إلى هنا ..

ــ إذن فلتستمر فى التصرف كرجل عاقل ..

ــ بل كفى أنت عن هذا التزمت السخيف .. ماذا يحدث إذا وضعت يدى على يدك ؟

ــ قد يرانا ..

ــ ولكنه لا يوجد أحد ؟

ــ قد يدخل فجأة ؟

ومد محمود يده فأمسك بيدها وقال وهو يضغط عليها بحنان :

ــ عندما يأتى هذا الأحد .. سأتركها .

وتركت نعمت يدها فى يده .. تسترخى فى رفق .. وكأنها وسيلتها للتعبير عن استرخائها المطلق .. فى ذاته .. واستقرارها الكامل بغير قيود فى أعماقه ..

وتحسست أصابعه ظاهر يدها فى شبه تعبد .. وقال وهو ينظر فى عينيها وكأنه يرسو على مرفأ أهدابها :

ــ ما كان يجب أن تأتى اليوم ..

ــ لم أستطع البقاء .. وقد علمت ببداية العملية بعد أن تعالى الدوى وتوالت الانفجارات .

ــ أروعك شىء ؟ ..

ــ العملية كلها مروعة .. إنها لست بهذه البساطة التى توضع بها على الورق .. أو توصف بها فى البلاغات .

ــ كيف ؟

ــ يعنى ٢ قتلى و٣ جرحى .. لا يمكن أن تكون إنسانيا بمثل هذه البساطة التقريرية التى تقدم بها إلى الأسماع ..

ورد محمود وهو ينفخ من أنفه نفخة سخرية :

ــ ٢ قتلى .. أهذا مروع .. ماذا تقولين إذن فى ١٥ ألف قتيل ؟ ..

ــ أين ؟ ..

ــ فى المعركة المشئومة التى سميناها بالنكسة..

ــ أحضرتها ؟

ــ طبعا ! .

ـــ ماذا شاهدت فيها ؟

ـــ أسوأ ما بها .. لم أشعر خلالها أنى جندى يحارب. بل شريد يهيم على وجهه .. لقد عدت .. ماشيا .. حافيا .. عاريا .. وكنت أسعد حظا من غيرى .. لأنى عدت ..

ـــ أما زلت تشعر بالمرارة ؟ .

وبرغمه انطلقت منه صيحة ألم « ياه » ثم تمالك وأردف يقول فى صوت أهدأ :

ـــ لا داعى لنكأ الجرح .. حتى الآن لا أعرف لماذا حدث ما حدث .. ومن المسئول عنه .. ولكن الذى أعرفه أننا ذهبنا إلى المعركة كآلة كاملة وعدنا كقطع خردة .. فكت صواميل الجيش فجأة .. و لم يعد أحد يملك السيطرة على أحد .. و لم يعد أحد يعرف .. ماذا يقول .. ولمن يقول ، كل شىء فى المعركة يمكن مواجهته ما دامت صواميل الجيش مربوطة .. أعنى أن هناك سيطرة على حركة الوحدات .. كالعربة المربوطة الصواميل يمكن للإنسان أن يحركها فى الاتجاه الذى يريد يمنة ويسرة .. يتقدم أو يعود القهقرى ، يذهب بها إلى المشوار الذى يريد ، أو يضعها فى الجراج .. أو يذهب بها إلى الورشة .. ولكن عندما تجد العربة قد فكت صواميلها وأصبحت مجرد قطع خردة ماذا يمكن أن يفعل بها .. غير أن يتركها فى الطريق ويمضى .. هذا ما حدث لنا .. أصبح جيشنا .. مجرد قطع خردة . لا يملك أحد السيطرة عليها وسقطنا فى الصحراء فريسة لعدو يتحرك كآلة .. بسيطرة .. وبإرادة .. فعل بنا ما شاء ، حطم ما حطم وأخذ ما أخذ وترك ما ترك ..

وصمت محمود لحظة يزدرد ريقه ثم استطرد يقول :

ـــ صنايعى .

ـــ هذا ما حدث لنا .. فنيا .. أى من وجهة نظر ..

ـــ ولكن لماذا حدث ؟

— الأسباب كثيرة .. تختلف عمقا .. وبعدا .. وقد أستطيع تصورها .. ولكنى لا أستطيع حصرها بدقة العالم الخبير ..

وشردت نعمت لحظة ثم تساءلت :

— وهل يمكن أن يحدث ما حدث ثانية ؟

وصمت محمود ثم هز رأسه وهو يقول :

— لا .. لا أظن .. ليس هناك بالطبع من يستطيع أن يضمن نتيجة عمله مائة فى المائة .. وكل عمل معرض للنجاح أو الفشل .. للكسب أو الخسارة .. ولكن الفشل شىء والضياع شىء آخر .. والفشل يجب أن يكون داخلا فى الحسبان .. ومحسوب ضمن النتائج المتوقعة .. ومردود عليه .. بحسابات الخطة الأشمل .. وإذا لم تفعل هذا .. فخير لنا أن لانتحرك .. وعندما أفكر .. كصنايعى .. أشعر أننا قادرون على فرض إرادتنا على العدو .. بما يسمونه بالطرقات المتواصلة على الصلب .. إن ما قمنا به اليوم يؤكد لنا .. أننا قادرون على مواجهة العدو دائما .. قادرون على ضربه وتلقى ضرباته .. والصبر عليها .. مهما طالت .. وهو يكره هذا ويضيق به .. ويحاول دائما أن يأخذنا بعمليات شاملة .. بكل التكنيك المتفرق .. تنزل بنا ضربة قاضية تقضم وسطنا . وتشلنا وتتركنا فى حالة فزع .. أو تحولنا إلى حالة ضياع .. ولذلك يجب أن نتجنب هذا .. يجب أن نلم كل جرح يوقعه بنا .. بغير ارتياع .. ونرد عليه .. ثم نصمد لضرباته .. نحن فى حلقة ملاكمة لا تستطيع أن تغلب العدو إلا بالنقط .. وهو يريد أن يصطادنا فى ضربة قاضية .. ومن أجل هذا .. يجب أن نحذر الضربة القاضية .. يجب أن نحول المعركة إلى معركة نفس طويل .. ولكن ليس إلى معركة صمت .. يثبت فيها أقدامه بارتياح .. وبغير قلق ..

وصمتت نعمت .. ولم يبد على وجهها الاقتناع .. ثم تساءلت فى حيرة :

— وهل يحتمل شعبنا هذا ؟

— شعبنا يحتمل كل ما هو حتمى .. ولكنه يسخر من كل ما لامبرر له .. شعبنا

يحتمل معركة طويلة .. بل لقد احتملها فعلا خلال حرب لم يكن له فيها ناقة ولا جمل .. تعود صفير الإنذار .. وتعود المخابئ .. ودوى القنابل .. والحياة بالبطاقة .. مرت به واعتادها كشىء طبيعى لابد منه .. لأنه فعلا .. لم يكن منه بد ..

وكان حديث محمود مقنعا .. بمنطق سليم ، لرجل — كما يسمى نفسه — صنايعيا .. ولكن كإنسان عزيز .. لم يكن منطقه مقنعا .. ووجدت نفسها تسأله بلا تفكير :

— معنى هذا .. ستواصل ما فعلته اليوم ؟

وهز رأسه مؤكدا :

— بالضبط .. قد نخسر كما حدث اليوم عسكريا أو عسكريين .. أو على أسوأ الفروض .. قد نخسر الداورية كلها .. ولكنه لا تتصورين الإزعاج الذى سنسببه لهم ..

وأحست نعمت بشىء يلتوى فى باطنها وهو يقول « قد نخسر الداورية كلها » .. ووجدت نفسها تهمس بشعور المصرية وتعبيرها « بعد الشر » ..

واستطرد محمود يقول :

— وبالطبع سيردون علينا .. سيردون بفظاظة وفظاعة .. سيدكون مواقعنا .. ولكننا يجب أن نتحصن جيدا .. كما نفعل الآن . وقد يحاولون أن يضربونا .. فى مواجعنا .. فى الداخل .. ويجب أن نكون على استعداد لذلك .. وأن ندافع وأن نحتمل ..

وتساءلت نعمت فى يأس :

— إلى متى يا محمود ؟

وبحزم رد محمود :

— إلى ما لانهاية ؟ .. نحن فى حرب يا نعمت .. إنهم يحتلون أرضنا .. ولابد ألا نتركهم يستريحون لحظة .. بل يجب ألا نستريح عنهم لحظة .. يجب أن نتعود .. زمارات الإنذار وضرب القنابل فى داخل البلد كل يوم .. وإذا أردنا ألا ندعهم

يستريحون فى أماكنهم .. فيجب أولا .. ألا نسترخى نحن .. ومن غير تشنج أو توتر .. وإذا كنا لانملك السلاح الأقوى .. فنحن نملك النفس الأطول .. ومن أجل هذا يجب أن نواصل إزعاجهم وهم شعب يريد أن يهدأ ويستقر .. فى الوقت الذى يجب أن نحتمل ضرباتهم مهما اشتدت .. ونحن شعب صبور صمود تعود على مضايقات الزمن فى كل العصور ـ تعود مضايقات المستعمر المستغل .. والحاكم المستبد .. وأبرز صفاتنا .. هى التحمل وطول النفس والصبر على الأذى .

وساد الصمت برهة .. وأخذت كف محمود تتحسس كفها فى رفق .. ومناجاة صامتة ..

وعاد الأسى يتسرب إلى نفس نعمت وهى تسترجع كلماته .. « قد يموت منا عسكرى .. أو عسكريان .. أو قد تضيع الداورية بأكملها » ..

وتساءلت فى صوت خافت :

ــ أليس هناك أحد غيرك يقوم بهذه العمليات ؟

ــ هناك كثيرون بالطبع ! ..

ــ إذن عدنى ألا تخرج حتى أعود .

ــ تعودين ؟ .. هل تنوين الرحيل ؟

ــ أجل ..

ــ متى ؟

ــ غدا ..

وبدا الحزن على وجهه ورد معاتبا :

ــ وكنت تنوين الرحيل .. دون أن تخبرينى ؟

ــ كنت سآتى إليك ..

ــ ولماذا هذه العجلة ؟

ــ لقد بقيت أكثر مما يجب ..

ــ وستأتين ثانية ؟

ــ طبعا .. ولكن عدنى ألا تخرج إلى عملية إلا بعد أن أعود ! ..

وهز محمود رأسه فى شىء من الدهشة وقال :

ــ كيف أضمن .. هذه أشياء قد تحدث فجأة ..

وصمت لحظة ثم أردف ضاحكاً :

ــ لا أظننى بمستطيع أن أقول للقيادة أن تنتظر حتى .. أرسل فى طلبك ؟

ــ أتسخر منى .. إننى لا أتصور أن تخرج وحدك مرة أخرى ؟

ــ وحدى ! .. أتنوين الخروج معى ؟

ــ ليتنى أستطيع ؟

وأطلق محمود زفرة قصيرة وردد بصوت هامس :

ــ لا تخشى على .. ليست هى المرة الأولى التى أخرج فيها .. وأعود سليما .. وكما يقولون عمر الشقى بقى ..

وصمت محمود ثم عاد يشد على يدها وهمس قائلا :

ــ أشعر بالسعادة .. وأنا أراك تخافين على .. وددت لو تبقين معى ..إن مجرد وجودك هنا .. يجعل الجبهة كلها فى نظرى شيئا آخر .. ما أحسست قط بزرقة الماء فى القناة .. إلا منذ أن أتيت إلى هنا .. بت كالشعراء .. أرقب من موقعى شروق الشمس من الأفق الأزرق .

وصمت لحظة ثم قال فى صوته الهامس :

ــ لقد خرجت إلى العملية وكأننى أذهب إلى نزهة .. ورحت أتعجل إنهاءها .. لكى أعود لأراك .. هل تصدقين هذا ؟ ..

وضغطت نعمت على يده ثم ردت هامسة :

ــ كفى ..

ــ لماذا ؟ ..

ــ لا تعقد الأمور على ! ..

ــ ماذا تعنين ؟

ــ أعنى أننا يجب أن ننسى ..

ــ ننسى ماذا ؟ ..

ــ ننسى كل هذا الذى نشعر به .

ــ كيف ؟ ..

ــ لأنه عديم الجدوى !

ــ لماذا عديم الجدوى ؟

ــ لأنه لا يمكن أن ينتهى إلى شىء مثمر !

ــ لماذا ؟

ــ لأن كلا منا قد شق طريقه .. وانتهى .. ليس من السهل عندما يستهوينا شىء فى الحياة .. أن نغير طريقنا لأخذه ! ..

ــ يستهوينا ؟! .. أهو مجرد استهواء ؟ .

ــ سمه ما شئت .. ولكن ليس من السهل على الإنسان بعد أن اختار طريقه أن يتردد فى منتصف الطريق لينحرف عنه ويتجه إلى إنسان آخر قد شق طريقه الخاص .. ليتشاركا طريقا جديدا ..

ــ ولم لا ؟

ــ ونترك رفاق الطريق وحدهم ..

نتركهم بعد أن ربطوا حياتهم بحياتنا ؟

ــ ما تشاركنا الطريق قط .. لقد كنا مجرد سائرين فى طريق ! .

ــ لا تقل هذا .. لا تتحدث كالأزواج !!

ــ بل أقول الحق !

ــ وابنتك داليا ؟

ــ ما لها ! ..

ــ تتخلى عنها ؟

ــ لماذا تتحدثين عن التخلى .. إنها ستبقى كما هى ! ..

ــ إنك ستقتلها .. أنت لا تعرف شعور الابنة عندما تجد أباها قد خطفته امرأة أخرى من البيت ..

ــ لماذا تستعملين كلمة خطف ؟

ــ لأنها فى نظر الناس كذلك ! ..

ــ ولكنها ليست كذلك بالنسبة لنا ..

ــ نحن لا نملك فرض وجهة نظرنا الخاصة على الآخرين .

وصمت محمود وخيم عليه اليأس وهو يتساءل :

ــ أهذه هى وجهة نظرك ؟

ــ ذلك هو الواقع .. الذى لا يمكن تجاهله ؟

ــ ألا أشكل فى نظرك أكثر من مجرد .. عملية خطف ؟

ــ أنت تشكل فى نظرى .. خير ما فى الحياة ! ..

ــ وتتركين خير ما فى الحياة يتسرب من يدك ؟

ــ بل أتركه يبقى كما هو .. دائما .. خير ما فى الحياة ..

ــ وتتوقعين منى أن أقبل منك هذا .. وأن أتركك تفلتين من يدى .. وأنت خير ما فى حياتى ! ..

ــ نحن لا نستطيع دائما أن نملك كل الأشياء المشرقة فى حياتنا .. لا نستطيع أن نعدو إلى الأفق لنحتضن الشروق .. وخير ما تفعله لكى ننعم بالزهور .. هو أن نبقيها على أغصانها

وتململ محمود فى مقعده وهو يقول :

ــ أكره هذه الفلسفة .. أكره فلسفة العجز .. أكره أن نصوغ سلبيتنا واستسلامنا .. فى صيغة الحكمة والترفع .

وصمتت نعمت . وبدت كأنها تقاوم أشياء تصخب فى باطنها .. وغلبت على عينيها دموع .. علقت فى جفنيها .. وهمست له فى صوت مختنق :

ــ أكره .. إن أفسد ما بيننا .. أكره أن أهوى بنا إلى قتامة الواقع .. أنت لا تدرى .. النقيض بين ما يحس به أحدنا للآخر .. وبين ما يمكن أن يرانا الناس

عليه .. أكره أن تمرغ فى تراب التهم الحقيرة .. أنت فى نظرى مخلوق رائع .. وأود أن أبقيك هكذا دائما .. لا أريد أن أزج بك فى متاهات الواقع البغيض .. لا أريد أن يقال إننى عشيقتك .. أو أنى اختطفتك من زوجتك .. لا أريد لابنتك أن تكرهك .. أحب أن أبقى وإياك فوق كل هذا .. ألا تصدقنى ؟

وجذب يدها فوضعها على شفتيه .

وهمس بها وعيناه تدمعان :

— كيف لا أصدقك .. إن شد ما يوجعنى .. هو أنى أصدقك .. ولا أملك إلا أن أطيعك !

ونهضت نعمت قائلة :

— هيا بنا !

— هكذا سريعا ؟؟ ..

— تأخر بنا الوقت ..

— لا أصدق أن الوداع قد حان ! ..

وبدا التردد على وجه نعمت وهى تقول :

— كان المفروض أن آتى الموقع غدا ..

— وماذا حدث ؟

— لم أكن أظن أنك ستأتى .. فاخترعت هذه الحجة لكى أراك ..

— إذن تأتين إلىّ غدا ! ..

— أتريد ذلك ؟

— طبعا ..

— إذن نرجئ وداعنا إلى غد ..

— لن أستطيع غدا وداعك كما يجب .

وأمسك بكفها بين يديه ورفعها إلى فمه .. وألصق شفتيه بها .. وأخذ يتحسسها فى خشوع وأناة ..

ونظرت حولها فى قلق وسحبت يدها من يده .. ثم ضمته إليها فى حنان ووضعت رأسها على صدره .. وهمست :

ــ خد بالك من نفسك ..

وضمها إليه برفق ..

ودون أن تنظر إليه تركته واندفعت إلى خارج الحجرة وهى تتمتم :

ــ تصبح على خير ..

ــ وأنت من أهله .. سأنتظرك غدا ! ..

واختفت فى الحديقة متجهة إلى حجرتها ..

وتحرك هو إلى عربته فى الخارج متجها إلى المعسكر .. -

(١١)

مهمة .. فى عرب يسار

كان لقاء نعمت بمحمود فى الموقع لقاء خاطفا .. فلقد أصر الدكتور رشاد على الرحيل فى الصباح حتى يصلوا إلى القاهرة قبل انتهاء وقت العمل ..

ودعته بمصافحة سريعة باليد .. حاولت جهدها وسط جمهرة الموجودين من الضباط والجنود أن تضعها فى الإطار الرسمى .. شكرته على ما وجدته من تعاون وما لقيته من رعاية وتمنيات بالتوفيق والنصر .. و .. مع السلامة ..

وصافحت الضباط وصلاح وبقية الجند ووعدت بأن تبذل كل جهدها لكى تحقق رجاءهم .. انطلقت بها العربة فى طريق السويس .. وشرد الذهن طول الطريق .. يقلب فيما فات .. ويدبر فيما هو آت ..

وكأن أكثر ما يشغلها .. هو ما تنوى أن تستقر عليه .

لقد اقتلعت نفسها فى ساعة انفعال من حياتها المستقرة .. وتركت البيت إلى المستشفى لترحل إلى الجبهة .. ولقد استطاعت الجبهة بكل ما حوته من صخب وضجيج وانفعالات أن تسيطر على كل أحاسيسها وتستحوذ على تفكيرها فلم تفكر لحظة فيما تنوى أن تفعله بعد عودتها .

وظلت الجبهة بما فيها ومن فيها تشغل كل أحاسيسها وتفكيرها .. والعربة تنهب أرض الطريق وتطوى تلاله على الجانبين لم تحاول أن تستفسر عن هذا المبنى أو ذاك البرج .. حتى بدأت معالم القاهرة تلوح بمبانى هليوبوليس منبسطة فى الأفق ..

وأفاقت أمام القاهرة الممتدة أمام الصحراء ..

واندفع إلى ذهنها خاطر مفاجئ .. لم تعرف من أين أتى ..

أهذه هى القاهرة ؟ أهكذا ممكن أن تبدو للغزاة القادمين من الشرق ؟ وأحست بشىء يلتوى فى أعماقها ..

لماذا يبدو الطريق منبسطا هكذا .. لماذا لا توضع فيه العراقيل والحوائل .. لا يمكن أن تترك القاهرة هكذا مكشوفة الصدر مفتوحة الذراعين ..

ولكن لماذا تظن أنها كذلك .. إنها لا تعرف شيئا فى أصول الحرب .. لا تعرف كيف يمكن أن يدافعوا عن القاهرة .. ولكنها أحست أنها عزيزة عزيزة .. وأنها تود لو أحاطتها بكل السياجات والسدود والقلاع والحصون .. ولكن وسائل الحرب لم تعد كما كانت من قبل .. لم تعد رماحا ترمى وسهاما تصوب حتى نتقيها بالأسوار وبالقلاع ..

ورغم ذلك لم تستطع أن تمنع نفسها من الخوف على مدينتها العزيزة لمجرد أن أبصرتها كما يمكن للعدو أن يبصرها .. تمنت لو استطاعت أن تضمها إلى صدرها .

وعبرت البرج والثكنات وبدت المبانى الجديدة فى مشارف ألماظه وهليوبوليس وسألها السائق مستفسرا :

ــ إلى أين يا فندم ؟

وبدا كأن العسكرى يتوقع أن تذهب بها إلى مكان غير المستشفى .. يذهب بها إلى البيت مثلا ..

وأجابته بغير تفكير :

ــ إلى المستشفى ..

ثم بدأت تسائل هى نفسها :

ــ وبعد المستشفى ؟!

هل ممكن أن تتخذ المستشفى مقرا دائما لها ؟

إن المفروض أن تبيت فى المستشفى فى أيام النوبتجية .. وفى بقية الأيام .. تعود إلى البيت .. أى بيت ؟

لقد قالت لعبد القادر فى انفعال .. إنها هى التى ستترك البيت عندما قال لها إنه

سيبيت فى أحد الفنادق حتى تهدأ أعصابها ..

أخذت حقيبتها وانطلقت إلى الجبهة ..

وأمضت الأيام التى أمضتها فى الجبهة .. ثم عادت ..

وكان المفروض أن تعود .. إذ لم تكن الجبهة مقرا طبيعيا لها . حتى تترك البيت إليها . بل حتى هؤلاء الذين تعتبر الجبهة مقرهم الطبيعى .. لهم بيوت يعودون إليها .. أما هى فقد أخذت حقيبتها وتركت البيت فى غضبها وانفعالها .. إلى غير عودة ..

وبات عليها الآن أن تفكر فى بيت ما .. تعود إليه ..

على أية حال ستذهب إلى المستشفى وتفكر على مهل .. إنها لن تعود إلى عبد القادر قطعا .. ولكن عليها أن تنهى أمرها معه بطريقة عاقلة .. يجب أن يجربا عملية الانفصال .. ويسويا أمرهما فى هدوء ..

وهى لابد أن تعود إلى البيت لتجمع حاجياتها .. فهى لم تأخذ سوى ما احتاجت إليه فى رحلتها على عجل .. ولعل أحدا لم يعبث بأشيائها .. لعله تصرف بشىء من الخلق و لم يدع أحدا يقتحم البيت فى غيبتها ..

وصلت إلى المستشفى ولقيها موظف الاستقبال فى ترحاب وبشاشة وسألته وهى تتجه إلى المصعد :

ـــ ألم يسأل عنى أحد ؟

ـــ سأل عنك كثيرون .. ولكن الأستاذ عبد القادر لم يكف عن السؤال يوما .. يبدو أنه لم يتعود غياب سيادتك .. لقد أغلق التليفون منذ لحظة بعد أن سأل عن مكان وجودك فى الجبهة وكيفية الاتصال بك .

وقبل أن تفتح باب المصعد سألها الموظف :

ـــ أأطلبه لسيادتك ؟

وأجابت نعمت قبل أن تغلق باب المصعد ..

ـــ سأطلبه أنا من فوق ..

و لم يثر فيها سؤال عبد القادر أى شعور ..
لم يهمها إذا كان قد سأل .. أو لم يسأل ..
لم تشعر أنها فى لهفة على أن ترد عليه ..

بل لم تشعر أنها تود أن تتخذ معه إجراء مضادا حاسما .. فلم يكن وسط كل الانفعالات التى شحنتها فى أيام الجبهة . يشكل شيئا هاما يحتاج إلى الحسم .

كل ما كان يشغلها تجاهه .. هو أن تستقر معه على أمر .. تحدد على أساسه معالم حياتها المقبلة ..

ولقد تصورت أن خير ما يمكن أن تفعله هو أن تحضر أمها من الإسكندرية لتستقر وإياها فى مسكن معقول ، و كانت تعتقد أن هذا هو ما يمكن أن يساعدها عليه عبد القادر ..

لم يكن من المعقول أن تعيش فى شقة وحدها . و لم يكن من الممكن أيضا أن تذهب للحياة مع أمها فى الإسكندرية .. إذا كانت تنوى الاستمرار فى عملها الحالى . وهى لا تجد ما يمكن أن يمنعها من ذلك ..

و لم تكد تصل إلى الدور العلوى .. حتى تلقاها أحد الجنود بقوله :

ــ التليفون عايز سيادتك .. حمد الله على السلامة ..

ــ الله يسلمك ..

وذهبت إلى أقرب غرفة تليفون ورفعت السماعة قائلة :

ــ أنا النقيب نعمت هانى ..

وأجاب عامل التليفون :

ــ حمد الله على السلامة يا فندم الخط مع سيادتك ..

وسمعت صوت عبد القادر يهتف :

ــ نعمت ؟ غير معقول ! .. ما كل هذه الغيبة ؟

ــ كنت فى مهمة ..

وقال مازحا :

ـــ بدت آثارك فى ضرباتنا للعدو ..

و لم يجد مزاحه صدى فى نفسها وردت بطريقة صارمة :

ـــ حاولت أن أؤدى واجبى هناك ..

ـــ وتركت واجبك هنا ؟

وتجاهلت ما يحاول الإشارة إليه وقالت :

ـــ لدى مهام كثيرة لابد أن أؤديها للجنود .

ـــ ومتى تعودين إلى البيت ؟

و لم ترد أن تدخل فى مناقشة خاصة . عن طريق « السويتش » وهى تعلم هواية عامل السويتش ـــ وكل سويتش ـــ فى التصنت على المكالمات . فقالت باختصار شديد :

ـــ بعدين ..

ـــ سأمر لآخذك ..

ـــ لا داعى لأن تتعب نفسك ..

ـــ ليس هناك تعب . العربة جاهزة ..

ـــ لا تضيع وقتك فلدى عربة .

ـــ ليس عندى ما أعمل .. سأمر عليك فورا ..

ـــ أرجوك .. إن لدى عملا .

ـــ أنتظرك حتى تنتهى ..

ـــ قد يطول .

ـــ سأنتظر معك .. لقد أوحشتنى بعد طول الغيبة ..

ـــ ولكنى ..

ـــ ولكنك ماذا ؟

ـــ قد أغادر المستشفى فى أى وقت ..

ـــ سآتى لك فورا ..

وضع عبد القادر السماعة قبل أن يمنحها فرصة الرد ..

وضعت نعمت السماعة فى استنكار .

وكان عليها أن تسلم ..

ــ على أية حال .. لقد كانت تنوى الذهاب لتسوية الأمر .. فلتذهب الآن وخير البر عاجله ..

ولم تكد تزيل عن نفسها غبار الطريق .. وتلم حاجياتها فى الحقيبة الأخرى .. حتى أقبل جندى يخبرها أن الأستاذ عبد القادر يطلبها . وبعد لحظة أقبل عليها عبد القادر وقد علت شفتيه ابتسامة مرحبة وبسط يده وهو يهتف مازحا وكأنه ليس بينهما خصام :

ــ أهلا بسعادة القائد ..

ومدت نعمت يدها وأجابت ترد التحية :

ــ أهلا وسهلا ..

واستطرد يقول فى مزاحه :

ــ رحلة أخرى ونزيل آثار العدوان ..

ولم يبد على سماتها أى قبول لمزاحه . فاستطرد يقول :

ــ ولكن قبل هذا .. لابد من إزالة آثار العدوان على .

وتساءلت فى دهشة :

ــ عليك أنت ؟

ــ طبعا .. عدوان على حقى كزوج ..

وازدادت دهشتها مما بدا محاولة متبجحة لقلب الأوضاع وتساءلت :

ــ أنا الذى عدوت عليك ؟

ــ أليس عدوانا أن تهجرينى هكذا وتتركى البيت ؟

وهزت رأسها فى أسف وقالت فى كلمات مقتضبة وهى تحاول إنهاء المناقشة :

ــ أظننا انتهينا من هذا الموضوع ..

ـــ أى موضوع ؟

ـــ الموضوع الذى تركت البيت من أجله ..

ـــ إنك لم تعطنى حتى فرصة المناقشة ! ..

ـــ لم يكن هناك ما يدعو للمناقشة ..

ـــ كان يجب أن تسمعى وجهة نظرى .. إننى ..

والتفتت نعمت حولها فوجدت المكان يحفل بالرائح والغادى .. وبدا كأن بعض الممرضات يرهفن السمع لالتقاط الحوار فردت نعمت مقاطعة فى شيء من الحدة :

ـــ لا أظن هذا وقته ..

ـــ إذن متى نتحدث ؟؟.

ـــ كان المفروض أن نلتقى لننهى الموضوع ..

ـــ دعينا أولا نناقشه ..

ـــ لم يعد بيننا ما يناقش .. سأراك لنتفق على إنهاء الأمر ..

ـــ أمرك .. المهم أن نجلس معا لنتحدث فى هدوء .. .

ـــ إنى كما ترى هادئة ..

ـــ إذن دعينا نذهب إلى البيت لنتحدث ..

ـــ سآتى ..

ـــ متى ؟ ..

ـــ بعدين ..

ـــ وماذا وراءك الآن ؟؟..

ـــ المفروض أن ألتقى بالقائد وأقدم إليه تقريرا بالمـهمة ! ..

ـــ الآن ؟ ..

ونظرت نعمت فى الساعة وتمتمت :

ـــ الساعة الآن الواحدة !

ـــ الدنيا لم تطر .. لماذا لا ترينه غدا ؟

وبدا التردد على وجه نعمت ثم قالت :

ـــ لا بد أن أنهى بعض الأمور .. على الأقل أثبت حضورى .

ـــ سأنتظرك إذن .. حتى تنتهى .. سأزور الأستاذ عبد الرحمن على فقد علمت أنه دخل المستشفى منذ بضعة أيام .. ثم أعود إليك ..

وتنهدت نعمت مسلمة بالأمر .

ليس هناك ما يدعو إلى الإصرار على موقف عدائى .. وما دامت ستلتقى به فلم لا يكون الآن ؟

وهو على أية حال ـــ لم يسىء معاملتها قط .. وكان معها رقيقا دائما وهى لا تشعر تجاهه بأى إحساس بالخصومة .. ولكنها فقط تحس أن هناك عجزا من مواصلة الحياة معه ..

أحست بهذا عندما تركت له البيت آخر مرة ... وازداد هذا الإحساس بعد العودة من الجبهة ..

منذ رحيلها أحست أن كرامتها تأبى عليها قبول سلوكه الذى يعرضها فى المجتمع للهوان .. وبعد العودة أحست أن شيئا فى باطنها يجعلها ترفض مواصلة الحياة معه لأنها تفضل أن تعيش وحدها .

أحست أن شيئا أبعدها عنه .. وعن الارتباط به ... أو بأى إنسان آخر ..

أحست أن شيئا فى باطنها .. يجعلها تشعر بالذنب .. لو واصلت البقاء معه ..

إحساس لا يمنحها أملا فى شىء . ولكنه فقط يحبب إليها الحرية .. ويجعلها تأنس لوحدتها ..

وهى لا تريد أن تجعل هذا الإحساس سببا للفراق .. فلقد وجد فعلا بعد أن قررت الفراق .. ولكنه فقط بات يؤكده ويحتمه ..

وبعد دقائق كانت تجلس فى العربة بجوار عبد القادر وانطلقت العربة على طريق الكورنيش وهو يسألها قائلا :

ـــ نتغدى فى النادى .. أم فى البيت ؟

وترددت نعمت .. لم تكن تفكر فى الغداء معه .. لم تكن تريد أية محاولة للاستقرار .. كانت تريد أن تنهى الأمر معه وتنطلق لتدبر أمرها .. ولكنها أحست أن رفض الغداء أمر غير طبيعى .. وردت بعد لحظة تفكير ..

ـــ نذهب إلى البيت ..

واستمرت العربة فى طريقها إلى كورنيش النيل حتى كوبرى قصر النيل ثم دار من النفق إلى الجزيزة .. إلى الزمالك .. وبعد لحظات كانت تقف بباب العمارة ..

أقبل عليها البواب مرحبا فى شوق .. وتلقت ابتسامات الترحيب ، من هنا وهناك ... يملؤها إحساس بأنس العودة إلى البيت .

وزاد الإحساس وهى تعبر باب الشقة وتسمع ألفاظ الترحيب الحارة من الخدم والطباخ .. وترى المكان بكل ما يحمله من ألفة ..

و لم تستطع أن تمنع من نفسها الإحساس بالقلق .. وهى توشك أن تتركه بعد ذاك إلى غير عودة .. إلى مكان لا تعرف مجرد شكله .. بل لا تعرف إذا كانت تستطيع أن تجده أم لا ..

ودخلت حجرتها ..

كل شىء .. كما تركته .. نظيفا مرتبا .. لم تمسسه يد إلا لتزيل عنه الغبار .. ومرة أخرى عاودها الحنين إلى المكان .. ولكنها طردته فى حزم ..

فتحت الدولاب ومدت يدها تجذب الملابس من فوق الشماعات . لتضعها على الفراش حتى تجمعها فى الحقائب .

وأقبل عبد القادر وراءها يسأل فى دهشة :

ـــ ماذا تفعلين ؟

ـــ أجمع ملابسى ..

واقترب منها وأمسك ذراعها فى رفق .

ـــ لماذا ؟!

— لأنى سأترك البيت ..

— لماذا تتركين البيت ؟

— لأنى قررت أن نفترق .

— لمجرد شائعات ؟

— أنت تعرف أنها ليست شائعات ! ..

— ماذا تعنين ؟ ..

— أنت تعرف ما أعنى .. تعرف ما قيل فى السفارة عن السيدة زوجتك .

— هل تعنين أنى تزوجتها .. أجننت ؟

— أنا التى جننت .. أنا التى قلت لهم يقدمونها .. كحرم عبد القادر بك .

— وما ذنبى أنا .. أنهم فعلوا ؟

— لأنك أقدمت على ما جعلهم يفعلون ذلك .

— أنا لم أفعل شيئا غير عادى ..

— غير عادى فى نظرك .. لأن ذنوبك باتت من فرط تكرارها .. أشياء عادية ..

— على أية حال .. أنا آسف على ما حدث .. هذا السفير الغبى ..

— غبى أو غير غبى . أنت مسئول عما حدث ..

— قلت لك آسف لن تحدث مرة أخرى ..

— تحدث أولا تحدث .. إنها لن تعنى بعد ذلك شيئا بالنسبة لى ..

وعادت نعمت تجمع الملابس .. وأمسك عبد القادر يدها ، يجرها خارج الغرفة وهو يقول :

— اهدئى يا نعمت .. واعقلى ..

— أنا هادئة تماما ... وعاقلة تماما ..

— ولكن لماذا تتركين أنت البيت .. إذا كنت تريدين أن نفترق فترة ..

وقاطعته نعمت قائلة فى إصرار :

— بل أريد أن نفترق نهائيا ..

— أرجوك يا نعمت .. لا مبرر أبدا لكل هذا .. إذا كنت ما زلت منفعلة فسأترك لك البيت لفترة ..

— أنا لست منفعلة .. لقد اتخذت قرارى وانتهى الأمر ..

— أمرك .. ابقى فى البيت .. سأرحل أنا لفترة .. حتى تفكرى فى هدوء .

— لست فى حاجة إلى مزيد من التفكير .. سأرحل أنا الآن نهائيا ..

— إلى أين ؟

— إلى المستشفى .. حتى أجد بيتا ..

— وتعيشين وحدك ؟

— سأحضر أمى من الإسكندرية ..

— وهل وجدت بيتا ؟

— سأبحث ..

— تبحثين عن بيت ؟! .. يا نعمت اعقلى .. هذا بيتك ..

وجذبها إلى حجرة الطعام .. وجلس الاثنان إلى المائدة واستطرد عبد القادر يقول :

— لدى فكرة أرجو أن تريحك .. إنى سأذهب فى رحلة صحفية طويلة .. ستبدأ بطرابلس وتونس والجزائر ثم الرباط لتغطية مؤتمر القمة .. ثم أذهب فى جولة إلى أوروبا .. وبعد ذلك أهبط إلى السودان . لتغطية زيارة الرئيس .. إنى سأبدأ الرحلة قريبا .. وسأترك لك البيت طوال هذه المدة .. ابقى فيه على راحتك حتى تهدئى .. ثم نتفق عندما أعود على كل ما تريدين ..

— قلت لك ..

— حسن .. أعرف أنك هادئة .. على الأقل ابقى وحدك الآن .. سأرحل أنا وأترك البيت .. وإذا أصررت بعد عودتى من السفر على الفراق سأحاول أنا أن أدبر لى مسكنا .. إنى أستطيع أن أعيش فى بيت أختى ..

ـــ لا أريد أن أسبب لك متاعب ..

ـــ لقد كنت أعيش معها دائما .. وسيسعدها أن أعود إليها ..

ثم استطرد ضاحكا :

ـــ ما دمت مصرة على طردى ..

ـــ أنا لن أطردك .. سأبحث لى عن شقة صغيرة ..

ـــ أنا أمزح يا نعمت .. ابقى هنا فى البيت وسأفعل كل ما يستقر عليه رأيك ..

وتناولا الغداء .. ودار الحديث بينهما عن السياسة والحرب والصحافة .. قال عبد القادر :

ـــ لقد ضقت بالمجلة وبالعمل فيها .. ولقد أحسست بفرط حاجتى إلى التنفس بعيدا عنها .. ولعل فى هذه الرحلة ما يريح الأعصاب بعيدا عن جو القلق الذى نعيش فيه .

وذهب عبد القادر ..

واستقرت نعمت وحدها فى البيت ..

كان هذا هو أفضل الأوضاع بالنسبة لها ..

كانت تنعم بوحدتها .. فى مكانها المألوف المأمون .. لم تعد تقلقها فكرة البحث على مكان تستقر فيه .. على الأقل لفترة من الوقت ..

وكان أول ما فكرت فيه بعد الاستقرار .. هو البدء فى مهمتها من أجل أولئك الذين تركتهم فى الجبهة .

كان مشوارها الأول .. على طريق صلاح سالم .. إلى عرب يسار .. الحى لم تخطئه عيناها .. على سفح التل أسفل سور القلعة .. بيوته العتيقة والشارع المنحدر على ناصيته الجامع المخطط ، وفى الجانب الآخر تبدو الحديقة المحاطة بالأسلاك .. وعبرت شريط الترام .. ثم شريط السكة الحديدية ، أوقفت نعمت العربة وتركتها على ناصية الطريق العريض واتجهت إلى الحى يغمرها إحساس بالقلق .. كانت

ترتدى ثوبا داكنا بسيطا متعمدة ألا ترتدى الثوب العسكرى حتى لا تلفت النظر إليها ..

لم يكن المكان غريبا على ناظريها .. كانت كلمات عبد العزيز ما زالت ترن فى أذنيها يصف الحى أيام طفولته .. السجن مكان الحديقة .. والمقابر ممتدة على الجانب الآخر .. والملعب أمام المقهى .. والمآذن الطائرة الرءوس .. كأنها المجاذيب بلا طراطير .. أو أولياء الله بغير عمائم ..

لم تشعر نعمت أن المكان غريب عليها .. ولكنها أحست أن الأعين ترقبها فى حذر .. إنها غريبة عن المكان .. وكان أهله يعرفون كل طارق لأبوابه ويسألون الغريب بأعينهم عما يريد .

عبرت قفصا رصت عليه قطع من الحلوى .. والتف حوله بضعة أطفال .. ثم عربة يد بيضاء ملونة مزركشة توسطتها صينية كشرى .. وفى ركن منها أطباق وملاعق وقصعة ماء .. دكان بقال وعلاف .. ولبشة قصب تستند على جدار بيت .. وقفص رصت عليه أعواد قصب مقطوعة ..

وكلما خاضت فى الطريق المنحدر .. ازداد تطلع الناس إليها .. وازداد اضطرابها .. وبدأت هى تتطلع باحثة عن سعدية .. وراء كل قفص .. وبجوار كل قصعة .. واسعة العينين .. باسمة الثغر .. هاتفة النظرات .. أو كما وصفتها أم عبد العزيز .. لبؤة بنت لبؤة ..

وفجأة .. وجدت .. وجها كالوجه الذى وصفه لها عبد العزيز .. لم يكن هو الشىء الذى وصفه .. ولكنه شىء مثله ..

كان أكثر ما يميزه .. عينين واسعتين .. بغير نظرات منادية مستدعية .. وبغير سمات مرحة .. وبغير بسمة تستعرض الأسنان الذهبية بين الشفتين ..

كان وجها ساكنا شارد النظرات .. حزين السمات .. مغرقا فى الشرود حتى تكاد نظراته لا تستقر على شىء منظور .. بل تغوص فى أعماق المرئيات .. وكأنها تعبرها إلى شىء .. بعيد .. بعيد ..

أهذه هى سعدية .. الجذابة المغرية ؟ . وهدأت نعمت خطاها أمامها لحظة .. وكادت تعبرها منكرة إياها .. لولا الليمون على القفص .. والفول فى القصعة . والفجل فى المشنة .

وتوقفت نعمت ..

كان المفروض أن تقول سعدية شيئا .. كلمة ترحيب أو سؤال عما تريد .. أو حتى كلمة استنكار عن وقفة لا مبرر لها من مخلوقة تتطلع إليها نظرات أهل الحى فى استنكار بمجرد عبورها إلى داخل الحى .. وبدأت نعمت بالتحية فى لهجة مترددة :

ـــ صباح الخير ..

ولم ترد سعدية .. وكأنها لم تسمع التحية ..

كانت تجلس متربعة .. وقد ثنت ساقيها أسفلها .. وانحدر الثوب الأسود الفضفاض على جسدها وافترش الأرض حولها ..

وتساءلت نعمت فى صوت خافت وجل :

ـــ سعدية ؟

وتركزت عينا سعدية على نعمت فى شىء من الدهشة المحوطة بالشك .. وردت فى لهجة عدائية متحدية :

ـــ نعم ..

ولم تعرف نعمت كيف تبدؤها الحديث .. وكيف تطمئنها إليها . وقد ملأت نظراتها الريبة والخوف ..

عادت نعمت تقول فى لهجة رقيقة :

ـــ صباح الخير ..

وفى غير حماس .. وبحذر شديد أجابت سعدية :

ـــ صباح الخير ..

وأحست نعمت أن أعين المارة تحاول أن تتطلع إليها .. مستفسرة عما تبغى

هذه الزائرة الغريبة .

وحاولت نعمت أن تخلص من الأعين المتطلعة .. فمدت يدها إلى قفص الليمون وأخذت بضع ليمونات وتساءلت وكأن وقفتها لمجرد الشراء ..

— بكم ؟

— بثلاثة أبيض ..

ومدت نعمت يدها إلى حقيبتها فأخرجت ورقة بخمسة قروش وتناولتها سعدية فى صمت ومدت يدها إلى طبق صغير وضعت فيه القروش . وأخذت تعد الباقى وتسلمه إلى نعمت .

وانتهزت نعمت فرصة الحركة الطبيعية التى بدأت تجرى بينهما وانصراف الأعين المتطلعة عنهما وقالت فى صوت رقيق :

— كيف حالك يا سعدية ؟

وتطلعت إليها سعدية فى دهشة وهى تعد النقود .. مستغربة من إصرار السيدة الغريبة على مناداتها باسمها ولكنها لم تملك إلا أن أطلقت زفرة وأجابت باقتضاب تحاول أن تنهى به الحديث ..

— نحمده ..

— كنت أريد أن أتحدث إليك ..

وازداد الشك فى نظرات سعدية .. وبدأ الحذر .. يشدها .. ويخرجها من حالة الاسترخاءوالشرودوقالت فى لهجة متحدية :

— نعم ..

ولم تجد نعمت بدا من النفاذ مباشرة إلى ما تريد .. حتى لاتزداد شكوك سعدية فردت فى لهجتها الرقيقة :

— أنا كنت فى الجبهة ..

وردت سعدية متسائلة وقد زادت بها الدهشة :

— الجبهة ..

ــ أجل ..

ــ أنت ! ..

وردت نعمت مفسرة :

ــ أجل .. إنى أعمل فى المستشفى العسكرى ..

وتغيرت نظرة الشك فى عينى سعدية .. وتحول التحدى .. إلى تطلع .. وتساءلت فى لهفة :

ــ أنت ذهبت إلى هناك ؟ ..

ــ أجل ..

ــ هل .. هل يذهب الناس إلى هناك ، وهل يمكن .. ؟

وتحفزت سعدية للنهوض .. وخشيت نعمت من أى رد فعل ممكن أن تقوم به يلفت الأنظار ويلم الناس عليهما .. فقالت مقاطعة تحاول تهدئتها :

ــ إنى أريد أن أتحدث معك .. ولا أريد أن ألم الناس علينا ..

وعادت سعدية تتساءل فى شك وتحد :

ــ ماذا تريدين منى ؟ ..

ــ عندى كلام يريحك .

واستمرت نعمت فى حذرها المتشكك وتساءلت فى تحدى :

ــ أى كلام ..

ــ كلام .. قاله لى عبد العزيز ..

ووثبت سعدية من مكانها فجأة .. ذهب عنها كل التشكك والتحدى .. وأمسكت بذراع نعمت تقول فى لهفة مستجدية :

ــ هل رأيته ؟

ــ أجل ..

ــ هل سيعود ؟

وأحست نعمت بمهمتها تتعقد .. وهى تجد سعدية توشك أن تفقد وعيها

والناس قد بدأوا يتزاحمون حولها ..

وأقبل كهل فى حانوت بقال مجاور .. وقد شهد تطور الموقف .. ونهر الأولاد الذين أخذوا فى التجمع حول سعدية ونعمت :

ـــ يا الله يا ولد منك له ..

ثم تقدم إلى نعمت قائلا فى لهجة هادئة :

ـــ صباح الخير يا ست .. أى خدمة ؟

وأجابت نعمت وقد أنست إلى الرجل :

ـــ إنى أعمل فى مستشفى القوات المسلحة .. وكنت فى الجبهة عندما وقع الحادث لعبد العزيز ..

وتنهد الرجل فى حزن ثم قاطعها قائلا :

ـــ الله يرحمه ويحسن إليه ..

وفى عصبية تحولت سعدية إلى الرجل وجذبت ذراعه قائلة فى صوت يشبه النحيب :

ـــ ولكنه سيعود .. قالوا لى إنه سيعود ..

وأمسك الرجل بكتف سعدية يهزها فى شىء من العنف ..

ـــ اهدئى يا سعدية .. اهدئى وقولى إنا لله وإنا إليه راجعون ..

وقالت نعمت للرجل :

ـــ لقد رأيته قبل أن يقع الحادث .. وكنت أرغب أن أحدث سعدية ..

وأجاب الرجل وهو يشير إلى باب بجوار حانوته ..

ـــ تفضلى يا ست .. تفضلى فى البيت .. حتى لا يتزاحم الناس حولكما ..

ثم عاد ينهر الصبية الذين أخذوا فى التجمع ثانية ..

ـــ امش يا وله .. شوف لك شغلة منك له ..

وجذب سعدية من ذراعها متجها بها إلى الباب الصغير المنخفض قائلا :

ـــ تعالى يا سعدية .. ادخلى مع السيدة .. وسآخذ بالى من البضاعة .. إنها

تريد التحدث إليك .. ولا يصح أن نتركها على قارعة الطريق .. هيا .. ادخلى ..

ثم التفت إلى نعمت قائلا :

ـ اتفضلى يا ست .. البيت ليس قدر المقام . ولكنه خير من البقاء هنا وسط هذا الزحام ..

وأحست نعمت أن تصرف الرجل خير منقذ لها..واتجهت إلى باب البيت وهى تتمتم قائلة :

ـ متشكرة يا حاج .. إنى آسفة إذا كنت سأثقل عليك ..

ـ أستغفر الله .. أنتم فى عيوننا جميعا ليساعدكم الله ويرعاكم تفضلى ..

واقترب من الباب ثم صاح ينبه من فى الداخل إلى الضيفة القادمة ..

ـ يا أم محمود .. يأم محمود..

وتعالى صوت من الداخل فى صبر نافد ..

ـ مالك يا إبراهيم .. فيه إيه ؟

ـ ضيفة قادمة ..

وأقبلت من الداخل امرأة قصيرة يغطى رأسها الأشيب طرحة سوداء وتساءلت فى دهشة :

ـ ضيفة ؟!

وعندما أبصرت نعمت قالت فى ترحيب تشوبه الدهشة :

ـ أهلا وسهلا ..

وزادت دهشتها وهى تبصر سعدية تتبع الزائرة الغريبة وهتفت متسائلة :

ـ خير .. ماذا حدث ؟؟

وحاول إبراهيم أن يشرح الموضوع لزوجته فقال باختصار :

ـ السيدة تعمل حكيمة فى الجبهة .. وقد رأت عبد العزيز قبل أن يكرمه الله .. وهى تريد أن تتحدث إلى سعدية .

ولم تعترض نعمت على وصف الرجل إياها بالحكيمة لقد وجدت فيه خير

وصف لها يمكن أن يجعلها مقبولة لدى القوم .. وجلست على أريكة فى حجرة ضيقة وأم محمود تتقدمها قائلة فى ترحيب :

ــ اتفضلى يا بنتى .. خطوة عزيزة ..

وقالت لسعدية فى كلمة قلقة مترددة .. وكأنها مضطرة إلى أن تسلم بما ليس منه يد ..

ــ ادخلى يا سعدية .. ادخلى يا بنتى ..

وعادت تسائل نعمت تدعوها لفنجان قهوة ..

ــ تشربيها إيه يا بنتى ؟

ــ متشكرة جدا لا داعى للتعب ..

وانصرفت أم محمود تعمل القهوة وعاد إبراهيم مستأذنا إلى حانوته وجلست سعدية مشدودة على الأريكة بجوار نعمت وهى تنظر إليها متطلعة فى لهفة وهمست فى استجداء :

ــ هل سيعود ؟

وردت نعمت فى لهجة قاطعة جتى تنهى هذا الوهم التى تتعلق به سعدية ..

ــ لا يا سعدية ــ لقد أكرمه الله بالاستشهاد ..

وسقط رأس سعدية على صدرها ..

ورفعت كفها تغطى وجهها . وندت عنها آه مكتومة يائسة .

ومدت نعمت يدها تربت ظهر سعدية وهمست تدعو الله أن يصبرها ويريحها واستطردت تقول :

ــ لقد حدثنى عنك طويلا .. قال لى كل شيء ..

ورفعت سعدية رأسها وبدت عيناها محمومتين والدموع تنحدر فى صمت على خديها ثم همست فى ألفاظ يقطعها انفعال الحزن ..

ــ لقد تركته ينصرف غاضبا .. ليتنى ما فعلت ..

وردت نعمت فى إنكار ..

ـــ غاضبا من قال هذا ؟

ـــ قلت له إنى حامل .. بدوت كأنى أريد أن أشده إلى بحملى .. أن أستغله .. وأقسم أنى لم أقصد هذا .. كل ما كنت أريد .. هو أن أحفظ شيئا منه وقد قال لى إن الزواج غير ممكن . قلت له إنى لا أريد الزواج .. إن ابنه هو كل ما أريد ..

وعادت نعمت تربت ظهر سعدية . وتحيطها بذراعها فى ضمة رقيقة حنون ..

ـــ اسمعى يا سعدية .. لقد أتيت إلى هنا .. لأنقل لك ما قاله لى .. لقد وجدت أن من حقك أن تعرفيه .. فهو خير عزاء لك عن رحيله ..

و لم يبد على سعدية أنها تحاول أن تعرف شيئا مما قال .. كانت مغرقة فى الحزن واليأس ..

واستطردت نعمت تحاول أن تجذبها من هوة الأسى ..

ـــ لقد حضر إلى المستشفى لأنه كان يريد أن ينزل إلى القاهرة .. كان مصرا على الحضور إليك ..

وبدا التوتر على وجه سعدية .. شدها الكلام من هوة اليأس الغارقة فيها واستطردت نعمت قائلة :

ـــ و لم يكن نزوله إلى القاهرة بالسهل .. ولكنه أصر على النزول .. وهدد بالهروب .. وعندما استفسرت منه عن سبب إصراره .. قال لى إنه يريد أن ينزل لكى يتزوجك ..

وصرخت سعدية فى لهفة مرتاعة غير مصدقة :

ـــ يتزوجنى .. يتزوجنى أنا ؟؟؟

ـــ أجل .. قال لى إنه يشعر أنه كان جبانا عندما رفض الزواج .

ـــ ولكننى لم أسأله إياه .. كل ما كنت أريده هو أن أحتفظ بما أحمل ..

ـــ قال لى هذا .. ولكنه أحس أنك أهل لشركة العمر .. وأصر على العودة لكى يتزوجك .. ولكى يجعلك تحتفظين بحملك .. ابنا له ..

ومرة أخرى سقط رأس سعدية على صدرها .. وانحدرت الدموع من عينيها في صمت أليم ..

وعادت نعمت تربت ظهرها فى حنان :

ـــ وبعدين.. إنى لم آت لأؤلمك.. لقد أتيت لأحمل لك العزاء.. ولأنصفه عندك ..

وهزت سعدية رأسها والدموع تتأرجح فى مقلتيها .

ـــ ومن قال إنه يحتاج إلى إنصاف .. إنه خير الناس .. ما ساءنى أبدا .. إنه ضاق بحملى .. لقد كان على حق .. ولكننى كنت أطمع منه فى شيء .. لقد كانت لى نشأتى .. التى لم تحفل قط بقيود المجتمع .. علمتنى أمى أن العلاقات مع الرجال .. لاتحتاج لأى تعقيدات .. كنت أحيانا أمنح نفسى لرجل لمجرد المجاملة .. لأنى أخجل أن أقول لا .. لم أحس قط ، طوال حياتى مع أمى أن لهذه العلاقة قيمة أكثر من السلعة أو المنحة ـــ حتى لقيته .. فعرفت أنها شيء أكبر كثيرا من هذا .. أحسست أنها شيء قيم وثمين وممتع فاستقررت معه .. و لم أطلب شيئا أكثر من هذا ، وعندما شعرت بالحمل فى باطنى .. أحسست بسعادة لا توصف .. وكأنى أحمله هو نفسه فى ذاتى .. وأنا أجدنى قد أخذت فى باطنى جزءا منه .. و لم أحاول أن أفكر فى وضعه فى المجتمع ؟ أو فى شرعيته .. لأنى لم أعرف لهذه الأشياء قيمة .. خلال حياتى كلها .. وظلمته معى .. لأنه يعرف قيمة هذه الاشياء .. كما يعرفها الناس جميعا .. أنا وحدى كنت شاذة عن المجتمع .. حاولت أن أنشئ لى مجتمعا خاصا بى .. وظلمته معى .. عندما حاولت أن أشركه فيه ..

وصمتت سعدية برهة .. تزدرد ريقها وتبتلع دموعها واستطردت تقول :

ـــ ولكننى أقسم أنى لم أصر على شيء .. لقد كان هو أهم من أى شيء .. وكنت أنوى الخلاص من حملى .. ما دام هذا يريحه ..

وتنهدت نعمت .. ياللمقاييس العجيبة فى مجتمعنا . !

أين يمكن أن نضع هذه المخلوقة فى مجتمعنا .. بهذا المنطق .. وبهذا التفكير ..

فى أسفل الدرك ؟! .

هل هى قديسة .. هل هى بطلة .. أم هى مجرد .. ما أطلقت عليها أم عبد العزيز .. لبؤة بنت لبؤة ..

و لم تعرف نعمت كيف تجيب .

كان المهم أن تحدد .. ماذا يمكن أن تفعله لها ..

و لم تكن تعرف ماذا يمكن أن تقدم لها .. وهى لاتعرف كيف تصرفت بحملها .. هل خلصت منه .. هل ما زالت تبقيه .

وكان عليها أن تسأل سعدية :

— وماذا فعلت به ؟

وهزت سعدية رأسها وأجابت :

— لا شىء ..

وصمتت نعمت برهة ثم قالت فى صوت خافت :

— إنى على استعداد لمساعدتك ..

وتنهدت سعدية ثم أجابت فى كلمات مقتضبة :

— كتر خيرك ..

— سأعطيك عنوانى .. فى البيت وفى المستشفى .. وسأعطيك نمرة التليفون .. وتستطيعين أن تتصلى بى فى أى وقت .. وأنا تحت أمرك فى أى شىء !

وعادت سعدية تقول كلمتها المقتضبة :

— كتر خيرك ..

ومدت نعمت يدها إلى حقيبتها فأخرجت ورقة بعشرة جنيهات وقدمتها فى تردد قائلة :

— هل يمكن أن تأخذى هذه ! ..

وتساءلت سعدية :

— لماذا ؟؟

وردت نعمت فى لهجة مترددة ..

ـــ لأنك .. لأنى .. أعتقد أنه ليس لك وضع شرعى يجعل لك الحق فى مكافأة .. ولعلك تكونين فى حاجة ..

ومدت سعدية يدها ترد يد نعمت بما فيها وقالت فى يأس :

ـــ لست أحتاج لشىء .. لم أكن أحتاج إلا إليه .. ولقد ذهب ! ..

ـــ أرجوك ..

ـــ لا .. لا أريد شيئا ..

وصمتت نعمت برهة .. ترقب تمثال اليأس الرابض أمامها ثم قالت :

ـــ هل أستطيع أن أرى أمه ..

وهزت سعدية رأسها بالنفى قائلة :

ـــ لقد ماتت ..

وتنهدت سعدية وهى تستطرد قائلة :

ـــ ماتت بعد أن عرفت .. لم تبق سوى بضع ساعات .. ولفها الصمت برهة ثم قالت :

ـــ لقد غسلتها بيدى .. أحسست بمعزتها الشديدة .. وأنا أمسك بها .. أمسك بما حمله هو كما حملت حملى منه وأوسدتها الثرى بيدى ..

ونهضت نعمت وهى تجاهد فى وقف دمعتها ..

ومدت يدها ببطاقة كتب عليها العنوان والتليفون .. وقالت مودعة :

ـــ سأنتظر أن تكلمينى .. إنى على استعداد لأن أقوم لك بأى شىء ..

(١٢)

رسالة قصيرة

أنهت نعمت مهمتها الأولى فى عرب يسار .. وفارقت سعدية وهى لا تعرف ماذا تستطيع أن تفعل من أجلها .. بل لم تعرف ماذا تنوى المرأة العجيبة أن تفعل بنفسها وبحملها .. بعد أن فقدت صاحب الحمل الذى كانت تتوق لأن تحتفظ لنفسها بشىء منه .. وبعد أن عرفت أنه عزم قبل رحيله على أن يعود للزواج منها ويسألها الاحتفاظ بما تحمله كابن شرعى له ..

وكان عليها فى الأيام التالية أن تذهب إلى يلبغا لترى أسرة صلاح .. وأباه الغريب فى بيته الذى يملؤه الإحساس بالذنب بمجرد خروجه من السجن وحرمان أسرته من ابنه صلاح .. عائلها الوحيد بإرساله إلى الجبهة ..

ولكن كان عليها أولا أن تحصل على ترخيص الكشك المطلوب للرجل .. حتى يكون هناك معنى لزيارتها .. وحتى تحمله معها بالإضافة إلى طمأنينتهم على صلاح ..

ولم تكن تعرف السبيل إلى الحصول على الترخيص .

المفروض أن المحافظة هى الجهة المسئولة عن منح هذه التراخيص .. ولو أن المسألة سهلة لاستطاع الرجل الحصول عليه دون حاجة إلى مساعدتها .. ولكنه كما قال صلاح .. حاول حتى يئس .. ومن أجل هذا تحتاج المسألة إلى جهد للسعى فى سبيل الحصول عليه ..

وهى تعرف أن عبد القادر صديق للمحافظ .. وهو قادر على رجائه من أجل الحصول على التصريح ، وهى تستطيع أن تجده فى المجلة .. فإن موعد مؤتمر الرباط الذى قال إنه سيسافر من أجله لم يحن بعد ..

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحا .. وهى تعرف أن عبد القادر لا يذهب إلى مكتبه قبل الثانية عشرة فى الأيام العادية .. فما بالك فى رمضان .. وقد تعود أن يسهر حتى الفجر مع شلة من الأدباء وأهل الفن فى الفيشاوى أو فى أى ملتقى آخر لأهل الفن ..

واتجهت بالعربة إلى المستشفى .. كان الوقت ما زال مبكرا وشابورة خفيفة تعلو صفحة مياه النيل وتلف الأبنية والطرقات لتنبئ بيوم شتاء دافئ .. وعربات النقل تنطلق مسرعة تحمل بعضها أسياخ حديد التسليح والأخرى شكارات الأسمنت .. وبعضها الآخر تحمل مجموعات عمال أو جنود ..

وبدت جزيرة الذهب .. يلفها الضباب على الجانب الآخر من صحفة الماء .. ومن ورائها تصاعدت أطراف المداخن من الشاطئ الغربى البعيد ..

وعبرت العربة الكوبرى الذى يعلو مدخل ميناء أثر النبى .. وبدت المراكب تزحف إلى رصيف الميناء محملة بالشوالات .. أو الصفائح ..

وواصل ذهن نعمت يخطط لمشاوير اليوم ..

لديها الكثير مما تفعل .. المرور على المرضى فى المستشفى وحضور اجتماع المدير .. ثم الذهاب إلى وزارة التربية والتعليم وإدارة المعاشات ثم محاولة استخراج الترخيص إما بالذهاب إلى المحافظة مباشرة أو بالذهاب إلى عبد القادر لرجاء المحافظ نفسه وليوفر عليها مشقة التنقل بين المكاتب وهوان الرجاء .. وعليها بعد ذلك زيارة أسرة صلاح .. ثم المرور على السمسار الذى وعد بأن يريها عدة شقق خالية فى الزمالك وجاردن سيتى ..

أشياء كثيرة عليها أن تفعلها طوال اليوم .. ولكن النهار طويل .. لا تقطعه فترة الغداء .. فقد تعودت كما يفعل كل الناس فى رمضان .. الصائمون منهم وغير الصائمين ألا يعودوا إلى البيت إلا قبيل موعد الإفطار والطرقات قد خلت من المارة والعربات تعدو فى سباق كأن الناس كلهم على وشك الموت جوعا إن لم يلحقوا مدفع الإفطار ..

ووصلت إلى المستشفى .. ووضعت العربة الصغيرة أسفل المظلة .. وسارت إلى الداخل ..

كان الهدوء يسود مدخل المستشفى .. وجندى يتثاءب أمام باب المصعد .. وآخر يتمطى وراء مكتب الاستعلامات .. وعمال النظافة يسحبون أدواتهم ..

كان قدومها مبكرا .. ولكنها كانت تود أن تنهى عملها فى المستشفى حتى تفرغ لكل هذه المشاغل التى كان عليها أن تقوم بها خارجه ..

وقبل أن تتقدم إلى المصعد سمعت صوت سرينة إحدى عربات الإسعاف .. وتوقفت لحظة .. وتوالت أصوات العربات تقبل على باب المستشفى .. وتدور إلى مكان الاستقبال ..

وتساءلت نعمت :

ـــ ما هذا ؟

ورد العسكرى فى غير مبالاة :

ـــ دفعة جرحى ..

ودخلت نعمت المصعد .. ضغط الجندى زرار الدور .. وكان ذهن نعمت يدور كالنحلة وراء قول الجندى بلهجته اللامبالية «دفعة جرحى» ثم يقفز إلى قول آخر يهتف بلا مبالاة أشد .. « قد يقتل عسكرى .. ويجرح آخر .. أو تضيع الداورية بأكملها » ..

ولم تستطع أن تأخذ دفعة الجرحى القادمة .. بنفس اللامبالاة .. وهى تعرف أن مثل هذه الداوريات التى خرج فيها محمود لعبور القناة .. ستتكرر .. وأنه فى كل مرة .. كما قال ببساطة « قد يقتل عسكرى .. أو يجرح آخر .. أو قد تضيع الداورية بأكملها » ..

احتمال خروج محمود إلى داورية العبور قائم ..

واحتمال جرحه .. قائم ..

واحتمال .. وجوده ضمن دفعة الجرحى قائم .

وهزت رأسها محاولة أن تطرد عنها الوساوس القاتمة .. ونهرت نفسها عن التفكير السيء . ، قائلة لنفسها فى لهجة زاجرة ..

ـــ غير معقول أن أفزع كلما قدمت دفعة جرحى .. إنه مستشفى عسكرى .. والجبهة ساخنة .. كل يوم عبور .. وكل ساعة ضرب .. وفى كل آونة تقذف الجبهة إلينا بدفعة جرحى .. والمفروض هنا أن نحترف استقبال الجرحى .. لا أن نروع من استقبالهم .

ومع ذلك لم تستطع أن تقاوم الرغبة الملحة فى الذهاب إلى الاستقبال .. ليس المفروض أن تجلس هكذا صامتة أو تتسكع بين غرف المرضى .. والمستشفى يستقبل هؤلاء الأبطال العائدين بجروحهم ..

وذهبت إلى هناك .. تقدم يد المساعدة ..

ألقت نظرة على القوائم ..

لم يلفت نظرها اسم ما .. أو اسم بالذات ..

وأخذت تمر بها وجوه .. فوق النقالات تختلف قدر إصاباتها .. البعض لا يبدو وجهه من الأربطة .. والبعض فاقد الوعى .. والبعض الآخر يرقد فى استسلام مرهق .. ولكنه يعى ويسمع ويتحدث ..

وسمعت صوتا يهتف باسمها :

ـــ نعمت ..

وتلفتت فوجدت أحدهم يبتسم لها فى إرهاق واستطاعت أن تميز فى وجهه المرهق الملازم نبيل أخد ضباط محمود وردت فى ترحيب :

ـــ أهلا وسهلا .. سلامتك ؟؟

ـــ بسيطة .. شظية فى الفخذ ..

ـــ ربنا ينجيك ..

ـــ كانت عملية مرهقة .. ولكننا أهلكناهم .

وصمت لحظة ثم استطرد يقول .. والجندى يدفع النقالة به ونعمت تسير

بجواره :

ــ كان سيادة المقدم معنا ..

ثم استدرك يقول ضاحكا :

ــ أو على الأصح كنا معه ..

وحاولت نعمت جهدها أن تكتم انفعالها وتساءلت فى تؤدة :

ــ وكيف حاله ؟؟

ورد نبيل فى أسف :

ــ يعنى ! ..

ولم تستطع نعمت أن تخفى حدة سؤالها :

ــ يعنى ماذا ؟؟

ــ ليس على ما يرام ! ..

ــ كيف ؟ ..

ــ تعارك مع القائد ..

وأطلقت نعمت تنهيدة راحة .. لايهم أن يتعارك مع إنسان ما .. المهم أنه بخير .. وتساءلت نعمت لتؤكد ذلك :

ــ أليس بخير ..

ــ أجل .. ولكنه متضايق .. ولا يريد أن يواصل العمل مع القائد ..

ودخلت العربة إلى غرفة الفحص ..

قام الطبيب النوبتجى بالكشف .. وقال وهو يربت على كتف نبيل :

ــ بسيطة .. تمزق فى عضل الفخذ ..

وأدخل نبيل إلى غرفة العمليات .. ولم يطل بقاؤه فيها ..

وبعد بضع ساعات عادت نعمت إلى غرفته لتطمئن عليه .. كان يحاول أن يغالب الإرهاق الذى يثقل جسدة بابتسامة يرسمها على شفتيه .. وتمتم بصوت خافت :

ــ الحمد لله ..

ـــ حمد الله على سلامتك ..

وصمت برهة محاولا أن يتمالك ثم استطرد يقول :

ـــ لم يكن الهجوم سهلا .. كان يمكن أن نضيع فى شربة ماء .

ـــ كيف ؟

ـــ اكتشفوا عملية العبور فى آخر لحظة .. وأطلقوا المشاعل .. جعلوا الليل ظهرا .

ـــ هل عبرتم بالليل ؟ .

ـــ أجل .. لم نعرف إلا قبلها بساعات .. عرفنا بعد الظهر أننا سنعبر ليلا .. عرف كل منا موقعه فى جماعته .. وعرف موقع باقى الجماعات .. وعلمنا كل شىء عن المعونات التى ستقدم إلينا ..

ـــ أية معونات ؟؟

ـــ المدفعية .. عزلت المنطقة التى كنا سنهجم عليها عن بقية المناطق .. عطلت تقدم أية دبابات لمعاونتها .. واستفردنا نحن بها .. دمرنا دباباتها بمدافعنا الصغيرة المضادة للدبابات .. واصطدت أنا إحداها بشحنة مفرقعات وضعتها فيها .. ففجرتها بمن فيها ..

ـــ استرح الآن .. لا ترهق نفسك بالحديث .

ـــ بل دعينى أتحدث .. فإن فى الحديث إليك راحة أكثر ..

وأخذت نعمت تنصت إلى الفتى بحاسة الصحفى.. تستوعب كل ما يقول!.

وواصل نبيل حديثه فى صوت خافت ..

ـــ سأحدثك من الأول .. بدأنا العبور فى الظلام .. ركبنا القوارب ببساطة كأننا فى عملية تدريب .. كل شىء كان يبدو كأنه مجرد طابور تدريب .. ولم أحاول أن أقنع نفسى بغير ذلك حتى لا أعقد لنفسى الأمور .. لم أحاول أن أفكر فى أشياء أكثر من أنى أقوم بتدريب للعبور والهجوم .. لم أدخل فى روعى أنى أقوم بعمل خطير .. لم أفكر فى أمى . أو إخوتى .. لم أفكر فى أنى قد أذهب لكيلا أعود

أو لكى أعود جريحا بشظية فى فخذى .. كنت أجلس فى الزورق — هل أقول متبلدا — لم أكن أفكر فى أكثر من أنى أريد أن أصل للشاطىء الآخر .. أن أضع قدمى على الأرض .. وأمسك بسلاحى فى وجه العدو .. ولم يكن على إلا أن أجلس وأصمت .. وأدعو الله فى قلبى .. لكى يسترنا .. وسترنا الله .. وصلنا جميعا نزحف على سطح الماء تحت ملاءة الظلام السوداء .. صامتين .. لا نسمع حتى دقات قلوبنا أو فحيح أنفاسنا ..

— ولكنك قلت إن العدو كشفكم وأطلق مشاعله !.

— ليس قبل أن يصعد الرجال من آخر القوارب .. ولكن رجال القوارب الأولى — وكنت أنا والمقدم محمود من بينهم — كنا قد ركبنا مواقعه .. فتحنا الثغرات فى دفاعاته .. وشققنا طريقنا إلى باطن مواقعه بمدافعنا موجهة إليه .. وعندما بدأ يطلق النار على آخر قواربنا .. كنا كما قلت لك قد ركبناه .

— ركبتوه كيف ؟؟

— أعنى ركبنا مواقعه .. بتنا فوق دفاعاته .. بمدافعنا موجهة إليه .. ونيراننا مركزة عليه .. وسفكنا دمه .. وأسكتناه وحمينا رجال القوارب من نيرانه ..

وصمت نبيل لحظة يتمالك أنفاسه ثم استطرد يقول :

— كان سيادة المقدم محمود قاسيا ! ..

— كيف ؟؟

— كان المفروض أن نأخذ أسرى .. ولكن رفض ..

— رفض أن يأخذ أسرى ؟؟

— أجل .. قال فى عنف .. وهم يرفعون أيديهم .. اضرب .. وحاولت أن أذكره .. بأن التعليمات بأن نأخذ أسرى قدر ما نستطيع .. لأن العدو ينكر خسائره .. ينكر قتلاه وجرحاه .. ويكذبنا فى كل مرة .. ومن أجل هذا طلبت القيادة أن نحضر أكبر قدر من الأسرى ..

— وماذا حدث ؟؟

— رفض سيادة المقدم التسليم .. رفض الأسرى .. كانت تتملكه قسوة الثأر .. ضرب بعنف .. وأمرنا أن نضرب بعنف .. أسقطنا ما بين سبعين وثمانين قتيلا .. ودمرنا دباباتهم .. لقد أبدنا الموقع .. حتى لقد بدأت مدفعية العدو تضرب الموقع بمن فيه وما فيه .. ضربتنا وضربت ما تبقى من جنود العدو معنا .. هل تصدقين أن بعضهم مات بنيران بعضهم الآخر .. ومنعت مدفعيتنا أى محاولة للعون من التقدم .. ضربت دبابات النجدة .. وضربت كل الإمدادات التى حاولت أن تقترب من الموقع .. وواصلنا نحن ضرب الإبادة .. ونحن ننشد فى نشوة الثأر « الله أكبر » ومن الجانب الآخر فى القناة يعلو صوت قواتنا لترد علينا فى صوت يدوى كالرعد « الله أكبر » .

وصمت نبيل .. وسألت نعمت :

— وكيف عدتم ؟؟

— عدنا .. وطائرات العدو تلقى بصواريخها وتلقى بقذائف الإضاءة .. وكنا قد وصلنا إلى الشاطئ .. إلى أحضان قواتنا وتلقونا باللهفة والدفء .. ليضعونا فى المواقع الحصينة التى تتفجر حولها الصواريخ فى ظلمة الليل التى حولتها القذائف المضيئة إلى نهار ..

وصمت نبيل .. وانتظرت نعمت أن يقول شيئا عن محمود ولكنه استغرق فى صمته .. وسألت نعمت فى شيء من التردد .

— وسيادة المقدم .. ماذا فعل ؟

— ذهب إلى القيادة .. ليقدم تقريره عن المعركة .. وعاد ثائرا ! ..

— لماذا ؟! ..

— قال إنهم غاضبون لأنه لم يحضر أسرى ..

وتمتمت نعمت قائلة :

— وهل كان يستطيع أن يحضر أسرى ؟

— فى معركة حامية .. كالتى خضناها .. لا تكون هناك وسيلة للتفاهم غير

النيران .. من العسير أن يتوقف وسط المعركة ليأخذ أسرى ..

ــ ولماذا كانوا يصرون على الأسرى ؟

ــ لأن العدو كما قلت يكذب فى أرقام قتلاه .. ولا شيء يكشفه كالأسرى ولهذا غضبت القيادة .. لأنه لم يحضر أسرى .

ــ وماذا قال محمود ؟ ..

ــ قال لهم .. لم تكن هناك وسيلة للتفاهم سوى القتل .. هل تريدون أن أحضر لكم قتلى .. فى المرة القادمة سأحمل قتلاهم على ظهرى .. وأحضرهم لنستعرض جثثهم أمام العالم .. حتى لا ينكر العدو خسائره .. ثم ترك القيادة وعاد ثائرا .. لقد كان متعب الأعصاب ..

وتنهدت نعمت قائلة :

ــ معذور .. كان الله فى عونه ! ..

ثم تساءلت فجأة :

ــ لماذا لا يأخذ أجازة ؟..

ــ عرضوا عليه هذا .. ولكنه رفض قائلا إنه ليس متعبا حتى يأخذ إجازة . ثم طلب نقله إلى أحد المواقع البعيدة المنعزلة .. حتى يهدأ ..

ــ وهل وافقوا ؟..

ــ أعتقد أنه سيذهب إلى جزيرة شدوان !..

ــ شدوان ؟؟..

ــ أجل ..

ــ أين هى ؟!..

ــ فى البحر الأحمر على مدخل خليج السويس ..

وتنهدت نعمت فى أسى وضيق وتمتمت قائلة :

ــ لماذا لا يحضر إلى هنا ليرتاح بعض الوقت .. لماذا يصر على العناد .. إنه فى حاجة فعلا إلى الراحة !..

ثم تساءلت :

ـــ وهل سيذهب إلى هذه الجزيرة فعلا ؟؟ .

ـــ سمعته يقول هذا .. ولكن لعله يعدل عندما تهدأ أعصابه !! ..

ونظرت نعمت إلى الساعة .. كانت قاربت الحادية عشرة .. وكان عليها أن تنهض لتبدأ مشاويرها ..

ومدت يدها تشد على يد نبيل وهى تقول :

ـــ حمد الله على سلامتك .. سأضطر إلى تركك لأن لدى بعض المشاغل .. هل يمكن أن أفعل لك شيئا .. أى شىء ؟

ـــ كنت أريد أن أطمئن أمى .. ولكنى أخشى أن يصدمها مجرد نبأ وجودى هنا فى المستشفى !! ..

ـــ إذن لماذا لا تحدثها بنفسك ؟ .. فأفضل ما يطمئنها هو سماع صوتك .. عندما تستريح قليلا .. سأطلب من عامل التليفون أن يطلب لك الرقم .. وقل لها أنك حضرت من أجل سبب بسيط .. مغص .. أو أى شىء !!..

ـــ سأفعل هذا ..

ـــ هل تريد منى أن أقوم أنا بشىء .

ـــ أبدا ..

ـــ ألا تريد أى نوع من الطعام ؟؟ ..

ـــ لا تقلقى نفسك بشىء .. سآكل كل ما يقدم إلى ..

ـــ سأحضر لك راديو صغيرا من مكتبى وسأحاول أن أمر عليك قبل أن أعود إلى البيت .. إن لدى بعض المشاكل الخاصة بالجنود .. وسأحاول أن أسعى لحلها لهم .. كيف حال صلاح ؟؟

ـــ بخير .. اشترك معنا فى المعركة الأخيرة .. لقد قمنا بها بالاشتراك مع إحدى سرايا الجبهة .. حقيقة لقد كانت من خير ما قمنا به من عمليات .. إن العدو قد أنكر فى بلاغاته ما أنزلنا به من خسائر .. ولكنى أؤكد لك أننا حصدناهم ..

ـــ ليقل ما يقول .. المهم ما فعلناه .. لقد آن لنا .. أن نركز على ما يجب أن تفعل .. فإن ما يفعل .. أهم مائة مرة مما يقال ..

وهز نبيل رأسه قائلا :

ـــ أجل .. المهم أن نفعل .. ما زلت أذكر كلمات عبد الناصر « ليس يضيرنا أن تكون كلماتنا أقل من قدراتنا فذلك أكثر أمانا من أن يقع العكس .. فليس عدونا بعيدا .. وليس عدونا جاهلا .. ولن يكون لكلماتنا وزن إذا لم نتحقق من قدرتنا على تدعيمها » ..

وتركت نعمت الغرفة وهبطت إلى أسفل .. وفى دقائق كانت تنطلق بالعربة إلى المجلة ..

وفى زحام الطريق كان ذهنها يزدحم بما قال الفتى الجريح .. بالمعركة التى وصفها .. بمحمود يضرب بعنف .. لا يريد أن يأخذ أسرى .. ولا يجد سوى النيران وسيلة وحيدة للتفاهم ..

وهى تعرف لم فعل ذلك .. كان يرى فى يد كل أسير بندقية تصوب إلى ظهره .. طلب من عبد العزيز من قبل أن يقتل الأسير .. ولكن الأسير غدر به .. تناول بندقية قتيل وصوبها إلى ظهره ... وكان على محمود فى هذه المرة أن يتركهم كلهم قتلى ..

كان محمود يذكر دائما الخمسة عشر ألف قتيل .. كان يذكر عودته .. عاريا حافيا كان الثأر يملك عليه نفسه الثأر لنفسه .. والثأر لجيشه .. والثأر لبلده .. والثأر لعروبته ..

وعلمته الهزيمة القسوة ..

وحجبت كل ما فى باطنه من حنان ورقة .. كان يعرف أن الحرب .. حرب .. وأنه لا يجب أن يرحم العدو .. لأن العدو لم يرحمه .

وأحست نعمت بمرارة .. وهى تجد نفسها .. تسلم بالحرب .. وبالقسوة .. وماذا يستطيع أن يفعل الإنسان .. أمام القسوة .. والحرب .. إلا أن يكون

قاسيا ، ومحاربا ، على الأقل لكى يبطل القسوة .. وينهى الحرب ..

ووصلت أمام باب المجلة ..

واندفع إليها المنادى الأعرج محييا فى لهفة :

ــ أهلا ست نعمت .. يا مرحبا ..

وعندما هبطت بحلتها العسكرية هتف معجبا :

ــ يا ما شاء الله يا ما شاء الله .

وأحست نعمت بشىء من الخجل من هذه الضجة التى أحدثها الرجل .. ودلفت بسرعة إلى داخل المجلة ..

وكان أول من لقيها زميلتها فاطمة ..

ولم يكن تهليلها أقل من تهليل المنادى .. هتفت بها :

ــ وشك ولا وش القمر ما هذه الغيبة ؟!

ــ كنت فى الجبهة ..

ــ هكذا مرة واحدة ..

ــ لقد مكثت هناك فترة طويلة ولم أحضر إلا من بضعة أيام .

ــ وكيف الحال هناك .. يبدو أن الضرب على أشده ..

ــ ربنا يحميهم .. يستحقون كل تقدير ..

ــ تعالى ..

وجذبتها إلى حجرتها قائلة :

ــ ماذا تشربين ؟

ــ لا شىء .. لقد أتيت للقاء عبد القادر ..

ــ وكيف حالكما .. لقد سمعنا إشاعات ..

ــ إشاعات عن ماذا ؟؟

ــ يعنى !!

ــ يعنى ماذا ؟!

ــ يقولون أن هناك سوء تفاهم بينكما ..

ــ حقيقى ..

ــ وإلى أى حد وصل !!

ــ إلى آخر حد ..

ــ ماذا تعنين ؟

ــ أعنى أنى طلبت الانفصال ..

ــ إذن ليس الأمر إشاعة ؟

ــ لا .. لا .. إنه حقيقة .. وقد تركت له البيت منذ مدة .. وذهبت إلى المستشفى ثم إلى الجبهة .. وأنا أقيم الآن وحدى فى البيت حتى نتفق على حل ..

ــ أنت مجنونة !!

ــ لماذا ؟؟ ..

ــ ماذا يدفعك إلى هذا !! ..

ــ لا داعى لنبش الماضى .. لقد حزمت أمرى وانتهيت ..

ــ ولكن لماذا .. قولى .. لى ..

ــ لأنه .. لأنه ..

وقاطعتها فاطمة فى تساؤل ساخر :

ــ لأنه يخونك ؟!!

ــ أجل ..

وانطلقت فاطمة تقهقه ثم قالت :

ــ يا حبيبتى .. ثلاثة أرباع الرجال خائنون ــ بالمفهوم الجنسى للخيانة ــ والربع الآخر .. لا يعرف كيف يخون ..

ثم نظرت إليها فى غيظ :

ــ فاهمة ؟؟!!

ــ ولكن ..

ـــ ولكن ماذا .. لا يمكن أن تضعى لزوج مثل الأستاذ عبد القادر مقاييس تقليدية للزوج الصالح .. إن حياته .. كالمدينة المفتوحة .. أو بلغة المال كالاقتصاد الحر .. إنه يعامل جميع أنواع البشر .. وله علاقات بكل أنواع النساء .. أرتيست .. ومانيكان .. وسيدات مجتمع .. فهل يمكن أن تضعى حظرا على تشابكاته معهن . ؟

ـــ لم أقصد هذا .. ولكن أقصد أن يحترم كرامتى كزوجة .

ـــ وماذا فعل حتى جعلك تشعرين بمثل هذا ؟

ـــ فى أحد الاستقبالات فى السفارة الفرنسية .. قدم أحد الدبلوماسيين الممثلة زينات شكرى على أنها مدام عبد القادر ..

وانفجرت فاطمة مقهقهة وهى تقول :

ـــ حيوان .. ما ذنب عبد القادر فى هذا ؟ ..

ـــ لأنه منحها ما جعل الناس يفرضون لها هذا الوضع ..

ـــ يا ستى .. وماذا حدث .. شبكت .. أنا مستعدة يقول عنها إنها مدام .. زوجى وحلال عليها ..

ثم صمتت لحظة وأردفت تقول :

ـــ ألم يمنحك .. كل ما تريدين .. ألم يوفر لك الحياة المريحة .. الهانئة .. ألم يحسن معاملتك .. أنت لم تعرفى قرف الحياة .. وقسوتها .. لم تعرفى مرض الأولاد وافتقارك إلى فيزيتة الطبيب إذا مرضوا آخر الشهر .. لم تعرفى كيف تستيقظين ذات يوم فلا تجدين معك طعام اليوم .. اعقلى يا نعمت وربنا يهديكى ..

وتنهدت نعمت وتمتمت بصوت خافت :

ـــ قلت لك لقد انتهى الأمر ..

ـــ ستندمين ..

ثم صمتت برهة وأردفت :

ـــ إلا إذا كنت قد رأيت لك طريقا آخر ؟

ــ ماذا تقصدين ؟؟

ــ أقصد أن هناك رجلا آخر !!

وصمتت نعمت برهة تفكر ..

هل هناك رجل آخر ؟؟!!

وقد يكون هناك هذا الرجل الآخر .. ولكنه بالطبع لم يكن سببا لطلب الانفصال .. فقد طلبته قبل وجوده .. وعندما يحدث الانفصال لن يكون له أية علاقة به ..

وهزت نعمت رأسها ..

واستطردت فاطمة تقول :

ــ وحتى لو كان هناك هذا الشخص الآخر .. فأنت مجنونة .. أولا .. لأنه ما من شخص يستحق أن تضحى من أجله بحياة هانئة مستقرة .. وثانيا .. لأن أى شخص آخر .. يمكن أن يفعل ما فعل الشخص الأول ..

وأقبل الأستاذ سعيد سكرتير التحرير .. فحيا نعمت فى حرارة .. قائلا :

ــ أهلا وسهلا .. خطوة عزيزة .. ما هذه الغيبة الطويلة .. هل استغنيت عنا ! .

ــ وهل أستطيع ؟ ..

ــ إذن لماذا كل هذه الغيبة ؟!

ــ يعنى .. ذهبت إلى الجبهة فترة ثم انشغلت بعد ذلك بمشاكل الجنود ..

ــ كان الله فى العون .. لقد أتيت الآن من عند الأستاذ عبد القادر .. كنت أعرض عليه الماكيت .

والتفت إلى فاطمة وهو يقول فى عجلة :

ــ سنأخذ فى الصفحات الأولى موضوع الهجوم الأخير على موقع العدو فى القناة .. وصلت إلينا صورة ممتازة .. وسيختصر موضوع الإعصار الذى اجتاح شرق الباكستان إلى صفحتين بدل أربع صفحات .. وفى صفحة الفن سنأخذ

خبر طلاق الأمير خالد من زوجته الممثلة شمس البارودى .. و ..

وقاطعته نعمت قائلة عن إذنكما سأصعد أنا إلى الأستاذ عبد القادر ..

والتفتت إلى فاطمة :

ـــ سأمر عليك بعد أن ألقاه ..

وصعدت نعمت إلى الدور العلوى .. ودخلت من الباب الرئيسى مباشرة .. دون المرور على السكرتيرة .. وفوجئ عبد القادر بها .. فنهض مرحبا وقد بدت عليه الفرحة :

ـــ أهلا وسهلا .. ما هذه المفاجأة ؟؟!!

ـــ أتيت فى رجاء ..

ـــ خير ؟؟!! ..

ـــ أريد ترخيصا لكشك سجائر ..

وتساءل عبد القادر وهو يضحك فى دهشة :

ـــ لماذا .. كفى الله الشر .. هل خدمة الجيش أصبحت غير مريحة إلى هذا الحد ؟

ولم تملك نعمت إلا أن تضحك وردت قائلة :

ـــ لم أقصد ترخيصا لى ..

ـــ لمن إذن ؟ ..

ـــ لوالد أحد الجنود فى الجبهة ..

ـــ ولماذا لم يتقدم بطلب الترخيص ؟.

ـــ لقد تقدم .. ولم يعطوه إياه .

ـــ وماذا تريدين منى ؟

ـــ أن ترجو المحافظ ..

ـــ أهو مهم إلى هذا الحد ؟!

ـــ مهم لأنه العائل الوحيد لأسرته ..

ـــ وماذا كان يعمل ؟

ـــ كان سجينا ..

ـــ هكذا !! .. ومن كان يعولهم قبل أن يخرج من السجن ؟

ـــ الابن ..

ـــ وماذا حدث ؟ ..

ـــ بمجرد خروج الأب .. جند الابن .. فقدت الأسرة عائلها الابن .. دون أن يملك الأب إعالتها .. بسبب السابقة الأولى ..

ـــ مفهوم .. والمطلوب الحصول له على ترخيص لكشك السجائر ..

ـــ أجل ..

ـــ وهل معه نقود ؟

ـــ أعتقد هذا .. على أية حال المهم الحصول على الترخيص وتدبير النقود بعد هذا أمر سهل ..

وصمت عبد القادر لحظة ثم قال :

ـــ حاضر .. عينى الاثنين .

ثم رفع السماعة وقال للسكرتيرة :

ـــ أعطنى المحافظ ..

ثم التفت إلى نعمت متسائلا :

ـــ ما هو الاسم ؟؟

وأخرجت نعمت من حقيبتها ورقة صغيرة كتب عليها الاسم ورقم الطلب وتاريخه ..

وضع عبد القادر الورقة أمامه ..

وبعد لحظة دق الجرس وقالت السكرتيرة :

ـــ سيادة المحافظ .. معاك يا فندم ..

وعلا صوت عبد القادر يقول فى ترحيب :

ــ أهلا وسهلا سيادة المحافظ .. يا فندم كنت منور امبارح فى الاجتماع .. تحت النظر يا فندم .. حاضر يا سيادة المحافظ .. والله لنا رجاء .. بخصوص رخصة كشك سجاير .. لأحد خريجى السجون ..

واستطرد عبد القادر .. يشرح الموضوع ثم أملى الاسم ورقم الرخصة وختم حديثه قائلا :

ــ يا فندم ألف شكر .. سأرسل الرجل لمدير مكتبك .. غدا الساعة العاشرة .. أهلا وسهلا .. مع السلامة .

ووضع عبد القادر السماعة وهو يقول لنعمت :

ــ خلاص يا ستى .. الموضوع انتهى .. أرسلى الرجل غدا الساعة العاشرة .. صباحا لمدير مكتب المحافظ .. وسيجرى له اللازم ..

ونظرت إليه نعمت نظرة ملؤها الشكر وتساءلت :

ــ حقيقة سيأخذ الترخيص ؟؟

ــ طبعا !!.

ــ متشكرة جدا ..

وضحك عبد القادر :

ــ متشكرة لماذا ؟!

ــ لأنك فعلت لى هذا الجميل ؟

ــ المفروض أنى أفعله ..

ــ إننا سنرفع الهم عن أسرة .. وسنجعل جنديا فى الجبهة يحارب وهو قرير العين . !

ــ أنت إنسانة طيبة .. وأرجو أن يهديك الله ..

وأجابت فى هدوء :

ــ متشكرة .. ربنا يهدينا جميعا ..

ونظر إليها وهى تمد يدها محيية :

ــ هكذا بسرعة ؟!

ــ لا بد أن أذهب لهذه الأسرة ..

ــ كنت أود أن آخذ بعض أشياء من مكتبى .. هل يمكننى أن أحضر ؟

ــ بالطبع يمكنك .. إنه بيتك ..

ــ أخشى أن أضايقك !!

ــ إنى فى المستشفى فى معظم الأوقات .

ــ وإذا كنت موجودة .. هل يضايقك حضورى ؟! .

ــ من حقك أن تحضر وقتما تشاء .. وعندى اليوم موعد مع السمسار .. لأشاهد بعض الشقق فى الزمالك وفى جاردن سيتى ..

وهز عبد القادر رأسه .. وقال فى دهشة :

ــ عجيبة .. لماذا تصرين على كل هذا ؟!

ــ هكذا أفضل ..

ــ إذن .. ابقى فى البيت .. لقد قلت لك إنى على استعداد لتركه لك ..

ــ ولكنى لست على استعداد لمضايقتك ..

ــ إنى لن أتضايق .. إننى أعيش الآن مع أختى .. وعندما أتضايق .. أحجز فى شبرد .. المسألة ليست مشكلة بالمرة .

وقالت نعمت فى حزم :

ــ هذا ليس حلا .. لابد أن أجد لى أنا بيتا .. وسأرسل فى طلب أمى لتعيش معى ..

وشدت على يده ثم غادرت الحجرة ..

وانطلقت بالعربة إلى شبرا ..

قال لها صلاح إن البيت أقرب من ناحية الترعة البولاقية ..

ولكنها كانت تعرف أن شارع « يلبغا » أسهل عن طريق شبرا ..

وانطلقت فى الشارع المزدحم حتى عبرت شارع مسرة ثم مدرسة التوفيقية ..

وشارع شيكولانى .. ثم وصلت إلى يلبغا .. وعبرت يمينا فى الشارع الضيق المزدحم .. وبدأت تقرأ أرقام البيوت وقرب آخر الشارع وصلت إلى ٣ ..

وصعدت الدرج .. إلى الدور الثالث .. ودقت الجرس .

وانتظرت فترة ثم طرقت الباب ..

وخرجت لها فتاة صغيرة .. سألتها :

ــ الست موجودة ؟ ..

ــ نقول لها مين ؟

وترددت نعمت برهة ثم قالت :

ــ واحدة من طرف صلاح ! .

ومن وراء الفتاة الصغيرة برزت سيدة وخط الشيب رأسها وبدت التجاعيد فى وجهها .. وبدت الدهشة على وجه السيدة وهى تتساءل :

ــ أيوه ؟؟!!

ــ أنا نعمت .. كنت فى الجبهة وقابلت صلاح !

وأفسحت السيدة الطريق قائلة لنعمت :

ــ اتفضلى يا ستى .. اتفضلى .. إزاى صلاح ؟ ..

ولم يكن فى لهجة السيدة من الحماس والترحيب والفرحة ما توقعته نعمت .. كانت رنة الحزن أغلب على صوتها .. ولاحظت نعمت أنها تتشح بالسواد ..

ومع ذلك لم تؤخذ نعمت بمنظر السيدة ولا بلهجتها .. كانت فى مجموعها أقرب إلى ما توقعته ..

كان كل شىء فى البيت كما وصفه صلاح .. وأطلت وجوه الصبية والبنات من وراء الباب ثم اختفت .. ولم يبد أثر للأب .. ربما كان نائما فى غرفته !!

أطرقت السيدة فى وشاحها الأسود وملامحها الحزينة ثم تنهدت متسائلة :

ــ إزاى صلاح ؟؟..

ــ بخير .. يهديكم تحياته وأشواقه .. ويسأل على الأولاد ..

وساد الصمت .. انتظرت السيدة أن تتم نعمت حديثها .. وحاولت نعمت أن تجد أقصر طريق إلى ما تريد دون أن تضايق السيدة ..

قالت نعمت :

ــ حدثنى صلاح عن الرخصة !! ..

ولم يبد على السيدة أنها أدركت شيئا .. ولم تعلق بشىء ؟؟

واستطردت نعمت تقول :

ــ وقد استطعت أن أحصل على موافقة المحافظ على منح الرخصة .. والمطلوب أن يذهب الوالد فى الساعة العاشرة للقاء مدير مكتب المحافظ .. من أجل أن يجرى له اللازم ..

وبدا الشرود فى عينى السيدة .. ثم أطلقت تنهيدة طويلة وقالت وكأنما تحدث نفسها :

ــ الوالد .. مات ..

وللحظة .. لم تفهم نعمت ما تقصد السيدة وتساءلت :

ــ أفندم ؟؟!! ..

وقالت السيدة بلهجة جامدة :

ــ الوالد .. مات ..

وهتفت نعمت مذهولة :

ــ مات .. كيف .. لقد قص على صلاح كل شىء .. وكان عنده أمل ..

وتمتمت السيدة فى نبرة خافتة :

ــ انتحر ..

وصمتت لحظة ثم استطردت تقول :

ــ خلص من هم الدنيا !!..

وتملك نعمت إحساس بالأسى والحزن. بلغت مأساة الرجل نهايتها .. لم يعد فى حاجة إلى رخصة .. وإلى كشك .. وإلى مال لإعالة الأسرة .. خرج من الحياة

وأغنى الناس عنه».

ووجدت نعمت نفسها تتساءل فى لوعة :

ـــ ولكن .. لماذا .. وكيف ؟؟

وردت السيدة باختصار :

ـــ ألقى بنفسه فى النيل .. وترك لنا هذه الورقة .. لم يعثروا على جثته بعد .. لم نقم عزاء ولم نشيع جنازة .. ولم ينشر النعى .. ولا قلنا لصلاح شيئا .. لم يعرف أحد سوى الأقارب .. ولم يحس أحد بذهابه .. كما لم يكن يحس بوجوده أحد ..

وصمتت المرأة لحظة مغرقة فى الشرود :

ـــ لقد خرج من السجن .. ثم ذهب وكأنه ما عاد ..

ومدت السيدة يدها تحت حشية الأريكة وأخرجت ظرفا سلمته إلى نعمت قائلة :

ـــ هذا كل ما ترك .

وأخرجت نعمت رسالة الرجل المنتحر ومرت بعينيها عليها تقرأ بسرعة :

« حاولت عمرى أن أقدم لكم ما يسعدكم .. حاولت أن أغنيكم وأريحكم ولكنى أخطأت السبيل .. وجنيت عليكم بالسجن .. وأوقعت بكم الذل بدل أن أوفر لكم السعادة والعزة .. وخرجت إليكم .. فإذا بحريتى شر من سجنى .. وإذا بى أقضى عليكم مرة أخرى .. بأن أكون طليقا بينكم .. بعد أن قضيت عليكم من قبل بدخولى السجن بعيدا عنكم .. ويئست من أن أكون لكم شيئا .. ووجدت أن خير ما يمكن أن أهديه لكم لأكفر عن كل سيئاتى هو أن أرحل عنكم .. وإذا كانت حياتى وبالا عليكم .. فلم يعد لى ما أستطيع أن أهديه لكم سوى موتى .. فليعنى الله على الوصول إليه .. وليغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر » ..

وطوت نعمت الرسالة ثم أعادتها فى سكون إلى السيدة .

— إنى آسفة .. هل أستطيع أن أفعل لكم شيئا ؟

وردت السيدة قائلة .. وهى تودعها للباب :

— كتر خيرك .. إنى أشعر أنى فى دوامة .. ولا أدرى ما أفعل .. ولكننا سنرسل فى طلب صلاح .. وأرجو أن يعيننا الله ويهيئ لنا من أمرنا رشدا ..

(١٣)

حنين مع الريح

رحل محمود إلى جزيرة شدوان ..

كان يحتاج إلى فترة سكينة أو ما سماه « أنتراكت » يخلو خلالها إلى نفسه .. بعد معاركه المتواصلة مع العدو .. والتى انتهت بمعركة مع القيادة ..

لقد رفض النزول إلى القاهرة .. رغم الحنين إلى شىء ما بها .. يحس أنه ملك عليه نفسه .. بل لعل هذا الشىء ذاته هو الذى قذف به بعيدا إلى الجزيرة النائية كهروب من أمنية طائشة .. وأمل سرابى لا يحمل بريقه سوى اليأس والحرمان ..

وشد رحاله إلى الجزيرة .. بحقيبته وسلاحه وفراشه السفرى .. وبضع روايات بوليسية .. وسنارة صيد .. وكان أشد اهتماما بالروايات والسنارة .. إنه لم يشعر قط أنه ذاهب ليخوض معركة .. كانت الجزيزة لا تضم أكثر من مائة عسكرى لحراسة الفنار والرادار لإرساء السفن فى البحز الأحمر .. وحمايتها من الصخور والشعب المرجانية ..

كان محمود يحس أن وجوده فى الجزيرة الصخرية المنعزلة .. ليس أكثر من عملية استجمام لابد أن يعود بعدها إلى ممارسة القتال الفعلى فى القنال ..

وكانت أقرب نقطة عمار إلى الجزيرة (غير القواعد البحرية) هى الغردقة التى لا تتجاوز الثلاثين كيلو مترا وأقرب نقطة للعدو هى شرم الشيخ التى لا تتجاوز الخمسين كيلو مترا إلى الشمال الشرقى للجزيرة ..

واستقر محمود فى كوخ حجرى صغير على الشاطئ الجنوبى .. نصب له خليل المراسلة فراشه السفرى ووضع الحقيبة على أحد المقاعد الخشبية ..

ووقف الملازم شريف ينتظر أوامر محمود ..

وقال محمود متسائلا .. يقول أى شىء لمجرد الكلام :

— ها .. كيف حالكم ؟

— الحمد لله يا فندم ..

— كله تمام ؟؟

— تمام يا فندم .. أى أوامر ؟؟

وهز محمود رأسه وقال :

— كل شىء يستمر كما هو .. ليس لدى تعليمات خاصة بأى شىء .. إذا احتجت أنت إلى شىء — وأرجو ألا تحتاج — فتعال إلى ..

ثم أشار إلى بضعة جنود من مركز رئاسته .. قدموا معه :

— دبر لهم ما يلزم للإعاشة وضمهم إلى قوتك .. اترك لى خليل فقط ..

ثم صمت لحظة وتساءل :

— كيف تتصلون بالدنيا .. أعنى التعيينات والصحف .. كيف تدبر لكم ؟؟

— المركب تأتى مرتين فى الأسبوع .. تحضر التعيينات والمياه وأحيانا الصحف .. ولدينا مطبخ للجنود .. وطباخ للضابط .. وعندنا فى المخزن من التعيين الجاف والعلب المحفوظة ما يكفينا لأكثر من أسبوع .. والأهالى هنا من الصيادين يهيئون لنا السمك بوفرة .. كلهم أناس طيبون .. وعلاقتنا بهم وثيقة .. ودرويش أفندى موظف الفنار .. رجل طيب وكثيرا ما يستضيفنا .. وقد دعانا اليوم إلى الإفطار عنده فى الفنار .. احتفالا بوصولك ..

وضحك محمود وقال ساخرا :

— بوصولى أنا .. لم يخطر ببالى أن وصولى إلى الجزيرة .. شىء يستحق الاحتفال .. لقد أتيت لأسترخى وأهدأ ..

وقال شريف :

— نعتذر له .. يا فندم ؟ ..

ــ لا .. لا .. سأستريح الآن ومر على قبل موعد الإفطار لنذهب سويا ..

ودخل محمود إلى الكوخ الصغير . خلع الحذاء وتمدد بالفانلـة الصوف والبنطلون .. وكان متعبا فأغفى .. واستيقظ على ريح باردة تهب من خلال الباب .. وجلس على فراشه يتمطى ..

ثم قفز من الفراش ..

ووقف بباب الكوخ يرقب الشمس تنحدر نحو الأفق الغربى .. واشتدت هبات الريح .. وعلا الموج يلطم صخور الشاطئ المرجانية .. وبدت مرتفعات الجزيرة تتكسر على قمتها أشعة الغروب الحمراء لتلقى بالظلال السوداء على الجانب الآخر ..

ودس محمود قدمه فى الحذاء .. وسار على الأرض الصخرية تجاه الشاطئ .. وأخذ شهيقا طويلا ملأ صدره بريح البحر .. وأطلقه فى زفرة بطيئة كأنه يغسل بها كل ما فى جوفه من هموم ..

لماذا أتى إلى هنا ؟ ..

ليستريح ؟!! .. إنه يكره الراحة ..

ليهرب ؟ ..

يهرب ممن ؟ .. ومن ماذا ؟

هل ضاق بقتال العدو ؟ ..

مطلقا !! لقد بات يفعله كأنه طابور تدريب ..

لماذا إذن تشابك مع القيادة ؟ ..

لماذا فقد أعصابه ؟!! ..

أهو ذلك الإحساس الذى يملؤه بالحنين .. إلى شىء ضائع .. شىء مفقود .. شىء ميئوس منه ؟ ..

ولكن لماذا يشعر أنه كذلك ؟!! ..

لأنها هى أصرت على أن تجعله كذلك .. لأنها تتصرف بإزائه بحزم جائر قاتل

وبالمقاييس المثالية .. لماذا لا تتصرف معه كبشر .. وهما الاثنان من جنس البشر .. إنهما ليسا من فصيلة أخرى .. تسمو على البشر .

أم لعلها كذلك ..

ومن أجل هذا تحاول أن تجعله كذلك ..

وعاد يستنشق ريح البحر ويزفرها ..

ثم كر عائدا تجاه الفنار ..

وفى الطريق لمح شريف مع بقية الضباط يهتف به :

ـــ ذهبنا لسيادتك فلم نجدك ! ..

ـــ خرجت للتمشى ..

ـــ الجو يبرد فى الليل .. ألا ترتدى سيادتك المعطف ؟ ..

ـــ لا داعى .. إن الفانلة ثقيلة ..

ساروا تجاه الفنار ..

وفجأة التفت محمود متسائلا :

ـــ ولكن لماذا نثقل على الرجل ونكلفه ؟

ـــ إننا نساهم بما لدينا من أطعمة .. وطباخنا هو الذى يطبخ ..

وضحك محمود قائلا :

ـــ قل لى هذا !!..

ودار محمود حول مبنى الفنار وصعد بضع درجات تؤدى إلى شرفة خشبية ليجد درويش أفندى ومعه بقية موظفى الفنار وجهاز الرادار .. وقد ارتدى عباءة فوق القميص والبنطلون وبدا بجسده الأعجف ووجهه الأسمر ورأسه الأجرد إلا من شعيرات قصيرة بيضاء كأنها قطعة من أرض الجزيرة .. وهتف به الرجل مرحبا :

ـــ أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا ..

وأشار بيده إلى الباب :

ــ تفضلوا .. فالجو قد بدأ يبرد ..

ودخل محمود إلى حجرة فسيحة أحيطت بالأرائك .. ووضعت فى جانب منها منضدة رصت عليها الصحاف والأطعمة ..

وجلس الجميع على الأرائك .. ينصتون إلى القرآن يعلو من راديو وضع فى ركن من أركان الحجرة .. وكانت الحجرة تطل على فناء يتوسطه الفنار وفى الجانب الآخر من الفنار يبدو مبنى آخر مكون من بضع حجرات .. ينحدر منه درج يؤدى إلى الشاطئ الصخرى ..

واختتم المقرئ قراءته .. وارتفع صوت المذيع يقول نحن الآن فى انتظار مدفع الإفطار .. ثم دوى المدفع ..

وبدأ الجميع فى شرب أكواب قمر الدين المعبأة فى العلب .. ثم انتقلوا إلى المائدة والتفوا حولها .. خليط من شتى الأعمار والمهن .. يشدهم حيط دقيق وثيق هو العرق المصرى ليدفع فى أعماقهم شعورا بالحنين والحب .. والقلق على شىء غير محدد المعالم ولكنه راسب فى الأعماق .. اسمه .. مصر ..

مضوا يمضغون اللقمة فى صمت .. كلمة من هنا .. وكلمة من هناك .. حتى انتهى الإفطار .. ودارت عليهم أكواب الشاى ..

صلى البعض .. وأنصت البعض الآخر إلى المسلسلة الإذاعية .. وجرى الزهر وتحرك قشاط الطاولة فى أيدى البعض الآخر ..

ثم بدأت نشرة الأخبار ..

وعلا صوت المذيع بالنشرة ..

انتهت المحادثات التى يجريها نائب رئيس الجمهورية السيد أنور السادات فى موسكو مع السيد ليونيد بريجنيف سكرتير أول اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى وقد أذيع نص البيان ..

وعلق محمود على البيان يقول :

ــ المهم هو السلاح .. إن أمريكا تدعم عدونا بالسلاح يوما بعد يوم .. وهو

يكره مواجهتنا .. ويحاول دائما أن يدمرنا قبل المواجهة ..

واسترسل المذيع فى إذاعته :

استطاع جنودنا البواسل إبقاء العلم المصرى مرفوعا فى عملية رأس الجسر التى قاموا بها قرب البلاح أكثر من ٢٤ ساعة .. حاول العدو نزع العلم ثلاث مرات .. انسحب فى المحاولة الأولى بعد تحطيم دباباته .. وفشلت المحاولة الثانية بعد تدمير عرباته النصف مجنزرة .. ثم تقدم فى محاولة ثالثة تحت مظلة من ١٢ طائرة سكاى هوك فأسقطت وسائل دفاعنا إحداها على الضفة الأخرى للقناة ..

وعاد محمود يعلق على النبأ قائلا :

ـــ فى كل مرة لقيناه وجها لوجه .. ضربناه بعنف .. لقد كنا نثير فيه الذعر .. شاهدت الكثير من لقاءات المواجهة ..

ومد أحدهم يده إلى مفتاح الراديو يخفض صوته .. وأرهف الجمع إلى حديث محمود الذى استطرد يقول :

ـــ إن العدو يمر بأيام مرهقة فى هذه المرحلة .. لقد فقد أكثر من مائة قتيل فى اشتباكات مباشرة .. وضرب بالمدفعية وعمليات قناصة وانفجارات ألغام .. لقد استطعنا أن ندقه جيدا .. فى كل لقاء ..

وتمتم درويش أفندى بصوت خافت وكأنه يحدث نفسه :

ـــ إذا كنا كذلك فلماذا جرى لنا ما جرى ..

وتطلعت الوجوه إلى محمود .. وضعت فناجين الشاى على المائدة .. واستقر زهر الطاولة فى الأكف .. ومد صياد عجوز عنقه فى لهفة على الرد .

ومد محمود ساقيه وعقد ذراعيه فوق صدره وأفرغ من صدره زفرة طويلة .. طال صمته بعدها حتى بدا كأنه لن يقول شيئا .. وبدا الشك فى الأبصار وهم الزهر بالحركة .. وهمت الأيدى تتناول فناجين الشاى ..

وقطعت الحركة ـــ الوشيكة ـــ ضحكة قصيرة ساخرة أطلقهامحمود من أنفه .. ثم قال :

ـــ كلنا نريد أن نعرف لماذا جرى .. ما جرى .. نطلق السؤال فى حيرة .. وكأننا لا نعرف .. ثم نجيب عليه فى ثوان .. فى حزم .. وكأننا نعرف معرفة اليقين .. نتصيد الذنوب والخطايا للذين نكره .. ونطلقها فى شماتة نولول بها كأننا الضحايا .. وهم الجناة ..

لم تبد على الوجوه علامات الفهم .. أو الاقتناع ..

وتساءل درويش أفندى فى شىء من الإلحاح :

ـــ ولكن لماذا هزمنا ؟ ..

وأحس محمود كأنه قد وضع فى قفص الاتهام و لم يملك إلا أن يبتسم قائلا :

ـــ أشعر كأنى مسئول عن الهزيمة !!..

وقال أحد الموظفين :

ـــ العفو يا فندم .. نحن نريد أن نعرف .. ما دمت تقول إننا لا نخشى ملاقاة العدو ..

ـــ ليس فقط لا نخشاه .. بل أقول إننا عندما نلتقى .. وجها لوجه .. فهو الذى يخشانا .. هذا شىء أقوله ليس بالنقل والرواية .. ولكن بالتجربة ..

ومن جديد عاد يرتفع السؤال الملح من تلك المجموعة العجيبة التى ضمها الفنار فى الجزيرة النائية ..

وبدأ محمود الحديث :

ـــ لست أظنني أعرف ما أستطيع أن أدعى أنى قادر به على الرد على السؤال المحير .. ولكنى كأى مواطن لى وجهة نظر .. وقد لا تكون وجهة نظرى هى المثلى .. ولكنها وجهة نظر عسكرى عاش ظروف المعركة .. وماقبل المعركة ..

وتساءل درويش أفندى فى نبرات واضحة محددة :

ـــ هل فشلنا فى السياسة .. أم فشلنا فى القتال ؟؟

ورد واحد من الجمع :

ـــ كانت سياستنا خطأ .. لأننا ..

وقاطعه آخر :

ـــ بل كان فشلنا عسكريا ..

وقال محمود ضاحكا فى سخرية :

ـــ ولأم المخطئ الهبل ..

وتساءل الصياد العجوز :

ـــ يعنى إيه ؟؟!!

ورد محمود :

ـــ يعنى أننا لانبحث عن عيوبنا إلا بعد الفشل .. فإذا كان النجاح حليفنا .. فكل ما بنا حسن ..

وقال درويش معقبا :

ـــ وما دمنا فشلنا .. فلنبحث معا عن عيوبنا ..

وأجاب محمود :

ـــ لا يمكن أن يكون هناك سبب بعينه لما حدث لنا .. بل لا يمكن أن نعفى حتى سوء الحظ .. من أن يكون أحد هذه الأسباب .. ولو حالفنا الحظ فى المغامرة .. لكنا الآن نعدد أسباب انتصارنا بدلا من البحث عن أسباب هزيمتنا ! ..

وتساءل شريف :

ـــ ولكن هل هى مغامرة ؟ ..

ـــ كل حركة فيها نوع من المغامرة .. وتختلف نسبة نجاح المغامرة .. بقدر ما يوضع لها من حسابات ..

ـــ وهل وضعت حسابات مغامراتنا جيدا ؟! ..

ـــ بغير شك ! ..

ـــ وهل فشلنا لمجرد سوء الحظ .. الذى قلت إننا لا نستطيع أن نعفيه من أن يكون أحد أسباب الفشل ؟؟!!..

ـــ نبحث كل الأسباب .. ونرى أين يقف فيها سوء الحظ ؟

وتساءل أحد الموظفين :

ــ هل كان جيشنا معدا للمعركة ؟؟ ..

ــ أفضل أن نبحث المسألة بالتسلسل بدل أن نبحثها بالأسئلة المتناثرة !! ..

وتساءل درويش أفندى :

ــ هل كنا كأمة قادرين على القتال .. معدين له .. أم أن الذنب يقع على عاتق الجيش ؟! ..

ورد أحدهم :

ــ أليس هذا الجيش من تلك الأمة ؟!!

وقال محمود :

ــ هل تحول السؤال ليكون : هل هزمت الأمة .. أم هزم الجيش ؟! ..

ورد الصياد العجوز :

ــ أجل !! ..

وقال محمود :

ــ بالقطع لم تهزم الأمة .. وإن كان ذلك لا يمنع من أن تكون هى بتخلفها .. أحد أسباب الهزيمة ..

وتساءل درويش :

ــ كيف ؟! ..

ــ فى نظرى أن الأمة كالأفراد .. قد يكون هناك فرد .. يعانى بعض العلل وبعض الضعف .. وهو يحاول أن يتقدم .. وقد يخطىء ويتعثر .. ولكنه .. يواصل العيش .. يتقدم بقدر ما يبذل من جهد ويتعثر بقدر ما يرتكب من أخطاء .. ولكنه عندما يقدم فجأة على معركة تودى به .. أو تصرعه .. لا يمكن أن ننسب مصرعه للعلل الطبيعية التى اعتادها .. رغم ما يمكن أن يربط بين العلل المعتادة التى أضعفته وبين انهياره فى المعركة المفاجئة التى أقدم عليها .

ومرة أخرى بدا عدم الفهم على الوجوه .. و لم يجد محمود بدا من أن يعيد

الشرح .. قائلا :

ـ أقصد .. أننا كشعب . لنا عللنا كمجتمع عانى مما يسمونه التخلف .. وأن مجتمعنا مليء بالمساوئ .. ولكننا نتقدم .. بما نملكه من مزايا وقدرات تعادل المساوئ .. وكان يمكن أن نواصل تقدمنا بكل ما نملكه من حسنات ومساوئ .. ولكن عندما ندخل معركة .. تصيبنا بضربة قاضية .. لا يمكن أن نرجع إصابتنا لمجرد علل مجتمعنا الطبيعية .. رغم ما يمكن أن يكون من أثر لهذه العلل على قدرتنا فى خوض معركة .. ولكن يجب أن نحدد الخطأ المباشر الذى كان سببا لهزيمتنا فى المعركة ..

وتطلع أحد الموجودين إلى محمود .

ـ إننا نحاول أن نتساءل ؟! .

ـ إذا وضعنا جانبا .. خطايا مجتمعنا الطبيعية .. التى نحاول مقاومتها .. مسلمين بأنها لابد من أن يكون لها أثر عام على قدرتنا فى أى اتجاه .. بما فيه الاتجاه العسكرى .. وحاولنا أن نبحث عن أسباب الهزيمة فى محيطها الخاص كان علينا أن نبدأ بالسؤال .. هل كنا معدين عسكريا للمعركة التى خضناها ؟ ..

وصمت محمود برهة .. حتى بدا كأنه يوجه السؤال إلى الجمع ..

وقبل أن يحرك درويش شفتيه بالإجابة رد محمود :

ـ لكى نكون منصفين .. لا نستطيع أن نجيب بلا أو نعم .. قاطعة ..

ورد الصياد العجوز فى نوع من التبرم :

ـ بماذا نجيب إذن ؟؟.

ـ لقد كنا نعد لمعركة خلاص .. ولكن كما قال عبد الناصر .. لأحد الوفود الفلسطينية .. ليس لدى حل جاهز لاستعادة فلسطين .. ولكنى أبنى من أجل الإعداد لمعركة الخلاص .. ولكن المعركة التى خضناها .. فرضت فى وقت لم نعد له .. وبأسلوب .. لم نرده !!

ـ كيف ؟؟ ..

ــ المشكلة التي عانينا منها .. وما زلنا نعانى منها حتى الآن .. هى المعادلة الصعبة .. هل نصفى المشاكل العربية ونحقق الجبهة العربية الموحدة أولا .. ثم نواجه إسرائيل بأمة عربية واحدة تتكون من مائة مليون عربى قادر .. أم نواجه إسرائيل بما نحن عليه .. بما هو فى الإمكان .. وهو بغير شك .. ليس أفضل ما كان وما يمكن أن يكون ..

وقال أحد الضباط :

ــ لقد حاولنا جهدنا .. أن نحقق وحدة الحرية والاشتراكية والتقدم ..

ورد محمود :

ــ حاولنا إلى حد القتال .. وذهب جيشنا إلى اليمن ليساند ثورتها من أجل هذه الوحدة ..

ورد درويش أفندى :

ــ وتركنا إسرائيل ؟؟ ..

ــ لم نتركها .. ولكننا كنا نعد لها بطريق أطول .. وأسلوب أبعد ..

ورد أحد الموظفين :

ــ ولكنها لم تتركنا نمضى فى طريقنا .

وعقب درويش على كلامه :

ــ تلاحقت الأحداث بسرعة .. بدأت بهجمات الفدائيين على إسرائيل من الحدود السورية .

وعقب أحد الضباط :

ــ وتجمعت الحشود الإسرائيلية فى جنوب سوريا ..

ــ وأبلغنا الاتحاد السوفييتى بهذه الحشود !!..

ــ هل كان يحاول أن يدفعنا إلى المعركة ؟! ..

ورد محمود جازما :

ــ الاتحاد السوفييتى حذرنا من الدخول فى معركة .. عندما أنبأنا بالحشود

الإسرائيلية ! ..

وتساءل صوت :

ــ ولماذا حركنا قواتنا إذن ؟؟ ..

ورد محمود :

ــ أولا لأننا نتحرك بإرادتنا نحن .. وثانيا لأن لدينا التزام الأخوة والدم للشعب السورى .. أنتركه يهدد .. ونقف صامتين !!..

وتساءل أحد الموظفين :

ــ حتى هنا .. وكان يمكن أن ينتهى الأمر .. حشد هناك .. وحشد هنا .. لماذا طلبنا سحب قوات الأمم المتحدة ؟؟

ورد محمود :

ــ هنا تأتى الحركة الجسور .. أو التى نطلق عليها وصف المغامرة .. والتى إذا نجحت .. تصبح عملا رائعا .. وإذا فشلت .. يصبح علينا .. أن نبحث فى أسى وندم ــ كما نفعل الآن ــ عن أسباب الفشل ..

وتساءل الصياد العجوز :

ــ وماذا دفعنا إليها ؟

ــ كانت قوات الأمم المتحدة .. عقب حرب ٥٦ تقف على شرم الشيخ .. وكانت السفن الإسرائيلية تمر من المضيق .. وكانت الإذاعات العربية .. تلهبنا بسياطها .. لأننا نترك إسرائيل تمر .. وكانت فرصة سانحة .. لسحب قوات الأمم المتحدة وإعادة السيطرة على المضيق ..

وتساءل أحد الموظفين :

ــ ألم نتوقع معركة ؟ ..

ورد محمود :

ــ بالطبع أدخلناها فى حساباتنا ! ..

ــ أكنا قادرين عليها ؟ ..

ـــ كنا قادرين .. بالطريقة التى تصورتها القيادة العسكرية وقتذاك ..

ـــ أية طريقة ؟؟!!

ـــ الهجوم .. كانت القيادة مقتنعة بأنها قادرة على هزيمة إسرائيل بتوجيه الضربة الأولى .. كانت خطتها مرسومة على حسابات الهجوم .. ضرب المطارات .. وضرب الأماكن الاستراتيچية ..

ـــ وماذا حدث ؟؟ ..

ـــ حذرنا كما هو معروف بتجنب البدء بالهجوم .. وكان علينا أن نحسب حساب الرأى العام العالمى ..

ـــ ثم ؟ ..

ـــ تلقينا نحن الضربة الأولى .. ضربة محكمة .. اتضح أنه كان يعد لها بإحكام منذ عام ٥٦ .. دمرت طائراتنا على الأرض كما هو معروف بعد ساعتين من المعركة ..

ـــ ولماذا كنا نذيع كل لحظة أننا أسقطنا طائرات العدو ؟؟ ..

ـــ كانت طائرات العدو تلقى خزانات البنزين الفارغة .. فنرصدها على أنها طائرات أسقطناها .. ووجدت قواتنا نفسها تقف على خط المواجهة .. وتقاوم الضربات الأولى باستبسال وشجاعة .. ولكن الأوامر صدرت بالتقهقر .. بعد أن فقدنا طائراتنا كمحاولة من القيادة .. لإنقاذ قواتنا من الدمار ..

ـــ وماذا حدث بعد ذلك ؟ ..

ـــ حاولنا أن نقف على خط الدفاع الأخير قبل القناة .. واحتشدت مدرعاتنا فيه .. وصدرت الأوامر لما تبقى من طائراتنا لوقايتنا أثناء العمل .. وهبت علينا يومها ريح الأمل .. كان كل شيء يبعث على التفاؤل .. حتى ضربت طائرات العدو مطاراتنا .. فدمرت المجارى الجوية للطائرات .. وعجزت الطائرات عن التحليق .. وواجهت قواتنا فى وقفتها الأخيرة .. معركة الدمار الشامل .. بغير غطاء جوى .. وتفككت صواميل الجيش ودمرت قواته .. وعدنا نلهث مشردين فى الصحراء ..

وبدا الأسى على الوجوه .. وبدت لمعة الدموع فى عينى الصياد العجوز وهمهم قائلا :

ــ يادى المصيبة يا ولاد .. يا خسارتك يا مصر !!

وتمتم درويش أفندى فى اعتزاز وهو يغالب دمعه :

ــ مصر كبيرة يا عم خلف .. كبيرة بغير حدود .. ياما مات منها ناس وبقيت كما هى .. مصر المزارع .. مصر الصحارى .. مصر النيل .. مصر الأهرامات .. مصر الأجيال .. تجرى كمياه النيل .. لا تجف فيها الحياة .. ولا يخبو فيها الأمل ..

وقال محمود وهو يرسل زفرة قصيرة :

ــ مصر باقية كما بقيت دائما .. ولكنها جرحت .. مصر تنزف .. وهى تحتاج إلى عمل حاسم يوقف نزيفها .. ويبعثها من جديد لكى تواصل انطلاقها .. بكل ما تملكه من قدرات .. فى الأرض وفى البشر ..

وقال درويش أفندى :

ــ البركة فيكم !! ..

ورد محمود :

ــ فينا جميعا .. نحن على الجبهة لا نملك إلا حياتنا .. ونحن نقدمها بيسر .. لا نحاول لحظة أن نفكر فى أن لها قيمة .. ولكن الذين وراءنا .. يملكون الكثير .. يملكون الجهد الذى يجب أن يبذلوه .. فى كل ضربة فأس فى مزرعة .. وفى كل دورة ترس فى ماكينة .. وفى كل سطر يقرؤه تلميذ فى مدرسة .. فى كل مشرط فى يد الطبيب .. وفى كل خط يرسمه مهندس .. وكلمة يطلقها مدرس .. الذين وراءنا يملكون بجدهم وانضباطهم .. أن يلموا جرح مصر النازف .. وأن يساندونا لكى نفرض على العدو إرادة مصر .. من أجل الحرية .. والكرامة .. والحياة الآمنة .. ومن أجل أن يعود كل فلسطينى مشرد آمنا إلى بيته ..

ورد عم خلف الصياد :

ــ ربنا كريم ..

ثم نهض محييا :

ـــ تصبحوا على خير ..

وقال له درويش :

ـــ إلى أين ؟ ..

ـــ حل موعد النوم ..

وقال محمود :

ـــ ما زال الوقت مبكرا .. رمضان يحب السهر يا عم خلف !

ـــ نحن لا نعرف السهر .. الصيد يحب البكور ..

وقال محمود :

ـــ تصطاد بالشبك .. والا بالسنارة ؟

ـــ بالاثنين ..

ـــ عندى سنارة .. وأريد أن أصطاد معك .. أريدك أن تعلمنى الصيد على أصوله ..

ورد الرجل بتواضع :

ـــ العفو يا سعادة البيه .. أنا تحت أمرك !! ..

ـــ مر علىّ فى أى وقت .. غير الفجر .

ـــ أى وقت أنا موجود تحت أمرك .

وخرج الرجل .. وبدأ الجمع ينفض ..

وقال درويش وهو يودعهم :

ـــ لم نعرف متى العيد ؟!!

ورد شريف :

ـــ المفروض أنه بعد غد !!..

ثم التفت إلى محمود قائلا :

ـــ كنا نظمنا إجازات العيد بين الجنود .. هل أعرضها على سيادتك ؟

ـــ لا .. لا .. مشيها كما هى ..

ـــ وسيادتك ستنزل فى العيد ؟ ..

ـــ لا .. سأبقى .. تستطيع أن تنزل أنت ..

ـــ كنت قد رتبت الإجازة بالتبادل مع بقية الضباط ..

ـــ افعل ما تريد ..

ـــ هل تريد سيادتك أن تمر على المواقع غدا ؟ ..

ـــ نمر معا فى أى وقت تريد .. ولكن ليس فى الفجر ..

وضحك شريف ثم تساءل :

ـــ العاشرة معقول ؟؟ ..

ـــ أجل ..

وعاد محمود إلى الكوخ .. بعد أن ودع الجمع ..

كانت الريح باردة .. أحس بها تنفذ إلى عظامه من خلال الفانلة .. وحاول أن يتلمس طريقه بين الصخور وهو يشعر بلسعة البرد ..

كان خليل فى انتظاره .. بعد أن أعد الفراش ..

وتساءل محمود :

ـــ أخبارك إيه ؟؟..

ـــ الحمد لله ..

ـــ بردان ؟! ..

ـــ الريح لاسعة ! ..

ـــ أين ستنام ؟ ..

ـــ توجد دكة خشبية فى المطبخ .. لقد أعددت لسيادتكم السحور ووضعته على منضدة فى الحجرة ..

ـــ إذن اذهب واسترح ..

ـــ هل أوقظك للسحور ؟ ..

— لا داعى .. سأتناول أى شىء قبل أن أنام ..

وخلع محمود ملابسه واستلقى على الفراش ..

وأحس بجسده فى حاجة إلى الراحة .. ولكن ذهنه .. كان يقظا مشدودا :

مرة أخرى .. عاد يتساءل :

لماذا أتى إلى هنا ؟؟ .

هل ضاق بكل شىء ..

الحقيقة .. أجل ..

هل ضاق بالقتال ..

لم يضق به .. ولكنه لم يعد يستهويه كما بدا فى أول الأمر .. لقد بات عملا .. معادا .. أشبه بطوابير التدريب .. وحتى انفعال الثأر .. قد أخذ يخف .

إنه يريد عملا كبيرا ..

يريد شيئا يرد كرامة مصر كلها ..

وهو لا يعرف متى يمكن أن يأتى هذا العمل الكبير ..

لا يبدو أن هناك تخطيطا لشىء كبير .. وهو لا يعرف السبب ..

هل لأن الأسلحة لم تستكمل بعد ؟ ..

هل هى متوقفة على أمور سياسية لا يدركها هو .

ولكن لماذا يلقى بنفسه هنا ..

أهو نوع من الهروب ؟؟ ..

الهروب من ماذا ؟!!..

من كل شىء ..

ولكنه لم يستطع أن يهرب من شىء .

مناقشة الليلة .. قد دفعته إلى اجترار المشكلة .. ودفعته إلى الإحساس .. بأن كل الناس .. فى كل مكان فى مصر .. يعيشون المشكلة .. حتى عم خلف الصياد .. ودرويش أفندى مسئول الفنار .. ثم هو هل يقطع بعدم الدخول فى معركة فى

مثل هذا المكان ؟ ..

ألم يهاجم العدو .. الجزيرة الخضراء .. وحاول النزول فيها أكثر من مرة. لقد نزل بقواته المحملة فى القوارب .. ولكن قواتنا اكتشفتها فى نقطة النزول واستطاعت المدفعية فى شاطئ القناة أن تصطادها وأن تغطى حامية الجزيرة وتمنع أى محاولة لضربها بطيران العدو ..

ولكن هل ممكن أن يكرر محاولته هنا ؟

ـــ من يدرى ؟ ..

على أية حال لابد أن يتفقد مواقع القوات وتدريبهم .. ولكن أى قوات ؟ ..

على رأى المثل .. يا جحا عد غنمك : إنهم لا يزيدون على مائة عسكرى .. والباقى صيادون وموظفون فى الفنار وفى جهاز الرادار ..

ولكن ما له وكل هذا ..

لماذا لم يأخذ إجازة ويذهب إلى القاهرة .. فيستجم برهة ويقضى العيد مع الأهل ..

ـــ أى أهل ؟

سامية زوجته .. دائمة التجهم والتبرم .. وهى قادرة على إثارة النكد بغير مبرر ..

داليا ابنته ..

أليس لها حق عليه .. إنها الوحيدة المظلومة معه ..

لماذا لا ينزل ولو لبضعة أيام ليراها .. ويعطيها عيديتها ؟ .. أجل .. لابد أن ينزل ..

ونعمت !! ..

أيذهب ليراها ؟ .. ليقول لها كل سنة وأنت طيبة ..

شىء واجب ..

ولكن هل هذا هو كل ما يريد أن يقول لها ؟!

وأطلق تنهيدة حارة .. حملها بعض الأسى الذى يرسب فى أعماقه ..
هذه المخلوقة التى يحاول نسيانها .. باتت ترسب مع الأسى فى أعماقه ..
إنه يهرب منها هى ..
إنها وحدها سبب مجيئة إلى هنا .
لم يضق بالقتال .. ولم يضق بأى شىء .. سواها ..
كما أحس بها أجمل ما فى حياته .. أحس بها أبعد شىء عن حياته ..
إنه يريدها ملتصقة به .. جزءا منه .. يريد أن يمد يده كل لحظة .. فيجدها ..
يتحسس شعرها .. يقبل طرف أنفها .. ويتحسس بشفتيه النمش الخفيف الذى يتناثر أسفل عينيها وفوق خديها ...
يريدها له .. ملكه .. مهما قال الناس عنها .. ومهما قالوا عنه ..
يريد أن يغير طريقه .. لأنه يشعر أنها هى وحدها باتت ضوء طريقه ..
ولكنها .. تريده بعيدا .. وتريده .. مجرد نموذج ..
لا تريد كما قالت أن تشوه صورته .
وكأن لديها مجرد صورة أو تمثال ..
وأغمض جفنيه .. وحاول أن ينام .. فلم ينم ..
وحملت إليه الريح صوت ارتطام الموج بالشاطئ الصخرى .
ومد يده يعبث بمفتاح الراديو ..
ووسط الهدوء الذى لا يقطعه .. سوى صوت الموج الآتى من بعيد ..
انبعث من الجهاز الصغير ..
همسة حلوة .. من مصر .. ضفيرة .. جدلت فيها الكلمة الرقيقة .. باللحن الجميل .. بالصوت الساحر العذب ..
يا هدى الحيران فى ليل الضنا ..
أين أنت الآن أم أين أنا ..

يا بعيد الدار عن عينى ومن قلبى قريبا ..
أناديك بأشواق ولا ألقى مجيبا ..
وأحس كأن الصوت يحكى شكواه .. ويبث حنينه .. وتمنى لو تنقل الريح الشكوى .. وتحمل الحنين ..

(١٤)

قاتل أو مقتول

استمرأ محمود البقاء فى الجزيرة النائية ..

ذهب مرة إلى القاهرة .. ثم عاد وهو يشعر أن الجزيرة باتت خير ملجأ له ..

تعارك مع زوجته كالعادة .. وترك لها البيت وخرج ولقى ابنته برهة .. ثم ذهبت فى رحلة مع المدرسة ..

وسأل عن نعمت .. الهدف الأول .. لعودته إلى القاهرة .. أو الهدف الأول الذى يرسب فى أعماقه .. بغير أمل فى البلوغ .. وبغير رجاء فى التحقيق .. فلم يجدها فى المستشفى .. ولم يعرف إلى أى مدى يمكن أن يزعجها لو حاول الاتصال بها فى البيت .. ولكنه حاول مرة وأخرى فلم يستطع العثور عليها ..

وأخيرا ذهب إلى المستشفى ..

لقيها تسير بين عنابر المرضى .. ندت عنها صرخة دهشة وفرحة ولهفة لم تستطع أن تكتمها ..

أمسك بيدها وكأنه يضمها إلى صدره ..

تأمل عينيها الواسعتين .. والتمش أسفلهما وأنفها الدقيق المرفوع بفتحتيه الضيقتين اللتين طالما حيره كيف يسمحان بدخول الهواء ..

وبدا العتاب فى عينيها :

ـــ لماذا رحلت إلى الجزيرة ؟؟! ..

وأطلق من أنفه الزفرة القصيرة الساخرة وسألها :

ـــ ولماذا لا أرحل .. مكان ناء يمنحنى فرصة للاسترخاء ..

ـــ والهروب ؟؟ ..

ـــ ربما ..

ـــ من أى شىء ؟ ..

ـــ من كل شىء ..

ـــ حتى منى ؟ ..

ـــ أحاول أن أقنع نفسى بذلك حتى أمنحها إحساسا بالكبرياء .. ولكنى أعرف أنى أهرب من شىء هارب .. شىء غير موجود .. ولكنها كما تعرفين محاولة لرد الاعتبار ..

ـــ لماذا تتحدث هكذا ؟ ..

ـــ ألسنا كذلك ؟ ..

ـــ أنت تعرف مشاعرى ..

ـــ وأستمتع بها على البعد .. هل يمكن أن يمنحنى القرب شيئا أفضل ؟ .

وتنهدت وهى تحاول أن تسحب يدها .. وقد بدأ القلق ينتابها من وقفتهما فى الممر .. وردت فى نبرة يائسة :

ـــ سيعقد لنا القرب الأمور .. وقد يفقدنا كل شىء .. حتى هذا الإحساس الممتع الذى ننعم به على البعد والذى لم يمنحنا القدَر سواه ..

ـــ تبعثين اليأس فى نفسى .. وتملئيننى بالأسى والرغبة فى الهروب ..

ـــ ألا يقنعك ما بيننا ؟ ..

ـــ بالطبع لا .. أود أحيانا .. لو أختطفك .. وأهرب بك على ظهر حصان كفرسان العصور الوسطى .. كم ساورتنى الرغبة فى أن أقدم على حماقة .. أن أفعل بك ما أريد .. بدلا من أن أخضع لما تريدين .. ولكنى أخشى أن أفعل ما يؤلمك .. وأنا لا أطيق التفكير فيما يخدش مشاعرك .. وأخشى أن تكرهينى فأفقد حتى ما تبقى لى من متعة .. تمنحنى العزاء على البعد والقدرة على تحمل الفرقة ..

وزاد بها القلق من وقفتهما وبدا أن المكان لا يحتمل أكثر من هذا اللقاء الخاطف

.. إن حدود عملها المرضى .. وهو لم يأت كمريض ..

وأحس بأن المفروض ألا يطيل اللقاء .

قال هامسا :

— هل ألقاك ؟ ..

وسألت يائسة :

— كيف ؟؟ ..

— فى أى مكان ..

— هل هناك مكان يمكن أن يجمعنا بطريقة طبيعية ؟ ..

— نذهب إلى مكان عام .. شبرد .. هيلتون ؟! ..

— غير معقول ! .

— نذهب إلى مكان خاص ..

و لم تجبه بأكثر من نظرة لوم رادعة .

وعاد يتساءل فى يأس :

— نذهب إلى الجبهة ؟ ..

ثم أردف يقول بضحكة ساخرة :

— هذا هو المكان الطبيعى الذى يجمعنا بطريقة لا تثير الأوقاويل .. أو ..

وبسط كفيه فى استسلام :

— أجرح .. وآتى إلى هنا ..

— بعد الشر !! ..

— بل هو خير الخير .. الشر هو ما أنا فيه ..

— لا تقل هذا ..

ورد فى يأس :

— سأعود إلى الجزيرة ..

وتساءلت فى أسى :

ـــ هل تكتب لى ؟؟ ..

ـــ سأحاول ..

وصمت قليلا .. ثم أردف فى حزن :

ـــ أرسلت إليك ذات ليلة مع ريح البحر .. « أقبل الليل » .

ـــ أسمعها دائما .. « يا بعيد الدار عن عينى .. ومن قلبى قريبا » ..

وأرسلت زفرة قصيرة مريرة وهمست :

ـــ ألا يكفينا هذا .. ليتك تكون سعيدا به ..

ـــ سأحاول ..

ـــ وستكتب إلى ؟ ..

ـــ أيضا سأحاول ..

ـــ وستأتى ؟؟..

ـــ لألقاك بضع دقائق .. فى ممر المستشفى ؟ ..

وردت فى عتاب حزين :

ـــ وماذا تريدنى أن أفعل ؟ ..

ـــ لا شىء ..

ثم قال ساخرا :

ـــ فى المرة القادمة .. سأفرض وجودى عليك .. سأبقى مدة أطول .. سأعود جريحا ..

ـــ لا تقل هذا .. ستعود دائما بالسلامة .

ومدت يدها تضغط يده وتقول فى حنان :

ـــ مع السلامة .. سأنتظر رسائلك ..

وضغط يدها وتمنى لو استطاع تقبيلها .. ولكن طرقات الأقدام على أرض الممر من حولهما .. لم تسمح بأكثر من ضغط يد .. وكلمة وداع هامسة ..

وعاد إلى الجزيرة ..

أحس فيها بشيء من السكينة والاستقرار ..

وذهب يقضى وقته بين المرور على مواقع الجنود .. ومراقبة تدريبهم .. وبين لعب الطاولة مع درويش أفندى فى الفنار .. أو الجلوس على صخور الشاطئ للصيد مع عم خلف ..

حاول مرة أن يكتب إليها ..

ــ أمسك القلم .. وكتب . وشطب .. ثم مزق الورق ..

وراح ينغمر مرة أخرى .. فى تدريب الجنود .. ولعب الطاولة والصيد .. والدردشة .

ومرة أخرى حاول أن يكتب ..

عزيزتى ..

أحاول كما قلت لى أن أنعم على البعد بالمشاعر الحلوة ..

وأكون كافرا بالنعمة .. لو أنكرت متعتها .. ممتع أن أستعيد على البعد كلماتك الحلوة .. « ومن قلبى قريبا » .. ممتع أن أحس أنى قريب إلى قلبك قربك إلى قلبى .. ممتع ألا أتساءل مع شوقى :

موقعى عندك لا أعلمه

آه لو تعلم عندى موقعك

ممتع أن أشعر أن موقعى عندك بات كموقعك ــ الذى تعلمين ــ عندى ..

ممتع أن أستعيد لناظرى .. وجهك المشرق .. وبسمتك الحلوة .. وهمساتك الرقيقة .. ونظرتك اللهفى ..

ممتع أن أستعيد ضغطة يدك على يدى .. وكأنها ضمة حانية ..

وأنا أحيا فى وحدتى .. على رصيدى من مشاعرك .. أجتره فى الذهن وألوكه بين الحنايا .

ولكنى أصحو فجأة .. على لسعة حرمان .. فنحن لا نستطيع أبدا أن نعيش على الحجر يغلى فى القدر ..

أصحو فجأة .. لأحس بلهفة على .. ضمك .. ضمك أنت .. بلحمك ودمك .. بعد أن مللت ضم الهواء .. وعناق الأوهام ..

يا حبيبتى .. أكره أن أكون كافرا ..

ولكنى لا أطيق أن أعانق شبحك .. وأنت موجودة ..

أستطيع أن أثب إليك .. لأشم عبقك .. وأمس يدك .. وأتحسس عينيك ورموشك وطاقتى أنفك .. وشفتيك .. أنا أعرف طريقى إليك .. إنه طريق حياتى ..

وإذا كنت قد أخطأت الطريق فى أول العمر إلى غيرك .. فإنى أعرف هذه المرة طريقى إليك ..

خلال المعارك التى خضتها .. كنت أحس دائما أن العمر لحظة .. يذهب فى طلقة .. أو شظية ..

وعندما أفكر فيك الآن أشعر أن العمر لحظة .. يأتى .. فى ضمة .. أو لمسة .. أو همسة ..

هل تجاوزت حدى فى الكتابة ..

هل استطعت أن أعبر عن نفسى ..

إذا كنت لم أفعل .. فعذرى .. أنى محب .. ولست بكاتب ..

اكتبى أنت إلى .. تمنحينى بعض ما أجتره .. ما دامت أحيا على الاجترار .. وما دامت متعتنا قد اقتصرت على مشاعرنا الحلوة ..

نختطفها من الريح .. نلوكها على البعد .. « أناديك بأشواق .. ولا ألقى مجيبا » .

وأرسل محمود الرسالة .. وبنفسه إحساس من يضع رسالة فى زجاجة ويقذف بها مع البحر .. تصل أو لا تصل ..

وعاود أعماله الروتينية فى الجزيرة ..

جلس يلعب الطاولة فى فناء الفنار ..

قذف درويش أفندى الزهر وهو يقول :

ـــ دوبارة ..

وحرك قشاطا هنا وقشاطا هناك وواصل حديثه قائلا :

ـــ انتهى مؤتمر الرباط دون قرارات .. قالوا إنه قد حدثت أزمة حادة فى آخر المؤتمر وإن عبد الناصر غادر الجلسة قبل الأخيرة بعد أن شرح لهم فى اجتماع مغلق فى أول جلسة تطورات الموقف فى عامين ودور مصر فى المواجهة العسكرية ..

وقذف محمود الزهر وهو يسأل :

ـــ من أين عرفت هذا ؟؟ ..

ـــ يعنى حاعرفه من أين .. من إذاعة التقطتها فى الراديو .. قالوا إن عبد الناصر غادر الجلسة الأخيرة نتيجة لعدم الاتفاق على الحشد العسكرى للمعركة وأنه قال « إن المؤتمر لم يخرج بشىء .. ويجب أن يعلن للناس أن المؤتمر فشل حتى لا نخدع الناس ونمنيهم بالآمال الكاذبة » ..

ـــ معه حق .. كفانا قرارات سرية .. ومؤتمرات لانخرج منها بشىء ..

ـــ طب وآخرتها ؟؟ .

ـــ لا شىء .. يجب أن نعتمد على أنفسنا .. وعلى الممكن فعلا .. وليس على الأمانى ..

وأخذت الأيام تمر بعد ذلك فى الجزيرة .. لا تخلو من ملل ..

لا يقطع مللها سوى أنباء عن هجمات قواتنا فى القنال ..

ومع بداية العام الجديد بدأت الضربات تشتد ..

أسقطت ٦ طائرات إسرائيلية فوق جبهة القتال .. انفجرت طائرتان فى الجو وسقطتا فوق الأراضى المصرية ..

اشتعلت الجبهة بمعارك عنيفة ..

وبدأت قواتنا هجومها على مواقع العدو فى سيناء فاشتبكت فى معركة حامية ثلاث ساعات وأنزلت بالعدو خسائر كبيرة .. ودك الطيران مواقع العدو فى

الشط والقنطرة .. حاولت طائرات إسرائيل الانتقام فأسقط الدفاع الجوى طائرة سكاى هوك ..

وتوالى إسقاط طائرات العدو .. أسقطت ثلاث طائرات أخرى بضربة رائعة .. ..سقطت الأولى عند بير عريب.والثانية بالقرب من شاطئنا فى خليج السويس وهبط طيارها بالبارشوت وتعذر إنقاذه من سمك القرش .. وأصيبت الثالثة بقذيفة مباشرة فانفجرت فى الجو شرق عجرود ..

وبدأ العدو ضرباته فى العمق .. لإحداث أكبر قدر من التأثير النفسى والسياسى فتسللت طائراته إلى هاكستب .. ووادى حوف .. وأُسقطت طائرتان سكاى هوك ..

وجلس محمود مع درويش أفندى .. وقد بدا عليهما القلق ..

قال محمود :

ــ هذا غير معقول .. لقد بدأ العدو يضرب قواتنا فى معسكراتها .. وغدا يضربون أهدافا أخرى .. ونحن لا نستطيع أن ندافع أو نرد !!..

أجاب درويش :

ــ لقد قال السادات فى أسيوط فى أحد الاجتماعات الشعبية .. إننا نجتاز اليوم مرحلة غاية فى الحساسية والخطورة .. وإن خطة العدو خلالها تتركز فى القيام بغارات جوية على الخطوط الخلفية بهدف التأثير على خطوطنا الدفاعية وإثارة الذعر فى الجبهة الداخلية على أمل إشاعة روح اليأس بين صفوفنا والتسليم بشروط العدو .. ولكن هناك خططا تم وضعها لمواجهة هذه الحملات المسعورة والرد عليها . وعلى الجبهة الداخلية أن تؤكد تماسكها حتى تفوت على العدو أهدافه ..

ورد أحد الموظفين :

ــ ربنا يستر ..

وقال عم خلف :

ــ مصيبة .. لماذا لا نذهب ونضربهم فى قلبهم كما يضربوننا فى قلبنا ؟؟ ..

وأجاب محمود :

— ليس لدينا طائرات تصل اليهم ..

وضرب عم خلف كفا بكف :

— مصيبة ياولاد .. مصيبة .. إننا هنا نستطيع أن نواجههم .. ولكن ماذا يفعل الناس فى الشوارع والبيوت ..

وقال محمود :

— لابد أن نعدهم إعدادا كاملا للمعركة .. لن تكون المعركة مجرد مواجهة على الخطوط الأمامية ..

وانصرف الجمع .. وملء قلوبهم إحساس بالضيق والغضب ..

ومرت بضعة أيام ازداد إحساس محمود خلالها بالملل .. واستقر رأيه على العودة إلى الجبهة والأنباء تتوالى باحتدام القتال على شاطئ القناة .. وتوالى الغارات فى الداخل ..

وحزم محمود متاعه .. واستعد للعودة ..

استيقظ فى الصباح .. شرب الشاى الذى أعده له خليل .. ثم ذهب لوداع درويش أفندى ..

كان الجو صافيا .. الريح هادئة .. وأشعة الشمس المشرقة تنبئ بيوم دافئ ..

وقف درويش أفندى يشد على يد محمود ويودعه فى تأثر :

— ستقطع بنا .. أخذنا عليك .. وملأت أيامنا بالحياة وأضعت منها الوحشة ..

— سأعود إليكم ..

— كلام .. الذى يذهب عنا لا يعود إلينا ..

— لقد قضيت معكم أياما طيبة ..

— نرجو هذا .. ونرجو أن تذكرنا بالخير ..

— دائما .. سأعطيك عنوانى فى مصر .. لعلنا نلتقى يوما .

وقبل أن يخرج درويش أفندى ورقة ليكتب العنوان .. سمع أزيز طائرات .. ثم صوت دوى ..

وتوقف فى مكانه لحظة .. وازداد الأزيز وازداد الدوى .

العدو يغير بطائراته .. على الجزيرة ..

ماذا يبغى منها ؟ .. أتراه يريد أن يحقق ما لم يدرك بعدوانه على الجزيرة الخضراء ..

الجزيرة نائية .. بعيدة عن مرمى المدفعية .. بعيده عن الإمداد .. وحاميتها لاتزيد عن مائة جندى .. ويستطيع أن ينقض عليها من البر والبحر والجو .. قبل أن تعينها أقرب قاعدة ..

وهتف محمود بدرويش :

ــ العدو يهجم .. انزلوا المخابئ ..

ثم اندفع بأقصى سرعة نحو المواقع ..

وبعد لحظات كان يكمن مع شريف فى موقع القيادة ..

وازدادت ضربات العدو .. وأخذت تمر السكاى هوك موجة إثر موجة تفرغ حمولتها فوق الأبنية والمواقع .. وفى كل مكان ..

وتطلع شريف إلى محمود متسائلا :

ــ نضرب ؟؟ ..

ــ تضرب ماذا .. ولماذا .. دعهم يلقوا بحمولتهم .. ومر عساكرك بالاختباء فى المواقع جيدا .. لا نريد خسائر لا مبرر لها .. ولنحتفظ بذخيرتنا نطلقها فيما يجدى ..

وأعطى شريف أوامر للمواقع المتناثرة فى الأخوار الصخرية ..

واستمر ضرب الطائرات فى عناد وإلحاح ..

٤ ساعات من الضرب المتوالى .. والجزيرة تهتز من الانفجارات ..

وتساءل محمود :

ـــ يوجد إصابات ؟؟ ..

ـــ قليلة .. وقد سحبنا الجرحى وراء الجبل فى مكان آمن .. حتى نوفر لهم الإسعاف اللازم ..

وبدأ الدوى يهدأ .. وسمع صوت أزيز من نوع آخر ..

وهمس شريف :

ـــ هليوكوبتر !! ..

وهز محمود رأسه موافقا ..

وساد الصمت ..

وبدأت الهليوكوبتر محاولة النزول قرب المواقع ..

وتساءل شريف :

ـــ نفتح نار ؟؟ ..

ـــ افتح ..

وبدأ ضرب المدافع من المواقع الصخرية بعنف ..

ودارت الهليوكوبتر دورة ثم انطلقت هاربة نحو السماء .

وقال محمود ..

ـــ نفدت بجلدها ..

وهدأ الدوى برهة .. ولكن لم يلبث حتى اقتربت موجة جديدة من السكاى هوك .. وعاد الدوى أشد مما كان .. تركيزا وعنفا ..

كانت محاولة للتأديب .. لأن نيران المواقع جرؤت وأبعدت الهليوكوبتر ومنعت إنزال الجنود ..

وكان الاتصال مع القيادة مستمرا بواسطة جهاز اللاسلكى .

أبلغت القيادة أن الهليوكوبتر .. طارت .. ثم أبلغت أن الضرب عاد أشد مما كان ..

وأبلغت القيادة أن الإمدادات تعد للإرسال إلى الجزيرة فورا .. وأن على قوات الجزيرة الصمود .. حتى النهاية .

وهز محمود رأسه مسلما وهو يبتسم ساخرا :

ـ العدو أمامكم وفوقكم .. والبحر حولكم من جميع الجهات .. نحن أسوأ حالا من طارق بن زياد .. حيث كان العدو أمامه والبحر وراءه ..

وقال شريف لمحمود :

ـ اللاسلكى عطل .. ماذا نفعل ؟؟..

ـ وماذا نستطيع أن نفعل .. سوى القتال ..

ـ قالوا إن الإمدادات تعد للإرسال فورا !!..

ـ تأتى .. أو لا تأتى .. هنا قدرنا ولا بد أن نواجهه ..

وقذفت طائرات العدو المواقع بقنابل دخان .. نشرت فوقها سحابة دخان كبيرة .. أظلمت الجو وأعمت الجنود عما يدور حولهم ..

وبدأ النزول ..

أفرغت الهليوكوبتر .. حمولاتها .. فوق الطرف الآخر من الجزيرة فى أقصى الشمال ..

وخرج جندياں يحملان مدفعى آر . بى . ج .. يقتربان من مواقع العدو فى محاولة للاستكشاف .. واشتبكا مع الطائرات .. ففتكت بهما ..

وبدأ صوت العدو من مكبرات العدو من مكبرات الصوت باللغة العربية .. محاولا إقناع القوات المدافعة عن الجزيرة بالاستسلام ..

علا صوت العدو منذرا :

« لا فائدة من المقاومة » .

« نحن نهاجم من البر والبحر والجو » .

وهمس محمود معلقا ..

ـ نعرف يا جبناء ..

وعاد الصوت يهتف :

« أين طيرانكم » ؟؟

ورد محمود :

ــ الله أعلم !!

وواصل مكبر الصوت نداءه :

« لن يصلكم أى إمداد » ..

ورد محمود فى حواره الخافت مع الميكروفون :

ــ غير مهم ..

واستمر الميكرفون يذيع :

« أنتم شبان أبرباء .. لن نقتلكم .. نريد أسرى فقط » .

وضغط محمود على ضروسه فى غيظ وتمتم قائلا :

ــ أسرى .. والله لن تأخذونا إلا جثثا ..

ثم وجه القول إلى شريف :

ــ أنا لا أتعامل بالأسرى .. بطلت هذا من يوم موت عبد العزيز .. ليس هناك وسيلة للتعامل مع السفاحين غير القتل ــ وكما يقول المثل ــ يا قاتل .. يا مقتول ..

وبدأ العدو تقدمه .. عبر التباب والصخور .. وأطلقت المواقع نيرانها تحصد القوات المتقدمة ..

وتوالى هبوط طائرات الهليوكوبتر المحملة بالجنود ومعداتهم تحت حماية المقاتلات .

واستمر الضرب من المواقع على الموجات المتقدمة ..

وفجأة سقط صاروخ فى مخزن الذخيرة .

وقال محمود فى غيظ :

ــ غير معقول .. نحن فى حاجة إلى كل طلقة ..

ورد شريف :

ــ سآمر العساكر .. بإنقاذ كل ما يمكن إنقاذه من صناديق الذخيرة ..

وبدأ العساكر يحملون الصناديق بعيدا عن المخزن المتفجر .. وتوالت

الانفجارات وسط الصناديق ..

والجنود ينقلون الصناديق فى بساطة وكأنهم ينقلون مخزن تعيين يحوى جوالات عدس لا مخزن ذخيرة متفجر ..

وحمل أحدهم صندوقا يحتضنه بذراعيه .. وكانت النار قد مست طرف الصندوق ..

وفجأة انفجر الحمل بصاحبه ..

وأحس محمود وهو يرقب المنظر .. بشيء يلتوى فى باطنه .. ولكنه تغلب على ضعفه .. وصاح بالجنود الذين توقفوا برهة أمام الجندى الصريع ..

— وبعدين .. احنا فى عرض كل طلقة ..

وبدأ الليل يسقط .. أرخى سدوله رويدا رويدا .. حتى عمت الظلمة ..

وأحس محمود ببعض الارتياح ..

قال شريف :

— سأنقل الجنود إلى المواقع المتبادلة .. فقد عرف العدو مواقعنا .. وسيحاول أن يضربها ..

ورد محمود :

— أفعل بسرعة .. وفى صمت .. وسنكون مجموعات صغيرة للإغارة على العدو .. إننا نستطيع أن نستغل فرصة الظلام جيدا .. إنه يشعر بالضياع فى الظلمة .. ولكننا نعرف الجزيرة جيدا .. ونعرف مسالكها .. ونستطيع أن ننزل به أكبر قدر من الخسائر خلال الليل ..

وانتقل الجنود إلى مواقعهم الأخرى ..

ثم بدأت عملية التسلل ..

الرجال يتحركون كالأشباح فوق صخور الجزيرة .. لا همسة .. لا كلمة .. حتى يواجهوا مجموعة من جنود العدو .. فيقضوا عليهم .. بالرشاشات والقنابل اليدوية .. حتى تنفد الذخيرة ..

ويبدأ الهجوم بالسلاح الأبيض..

وكل جندى يمسك بسلاحه ويتقدم فى حزم وإصرار ..

إذا لم يكن أمامه إلا أن يكون قاتلا أو مقتولا .. فليكن قاتلا . وقاتلا .. وقاتلا .. حتى يلقى مصرعه .. ليكن عزاؤه عن الحياة .. هو إنهاء حياة أكبر عدد ممكن من العدو الذى سيضيع هذه الحياة .. سيثكل أمه .. وييتم أطفاله ..

لم يعد يهم كل هذا .

لقد أحس كل منهم .. منذ بداية الهجوم .. أن الموت قدره .. فلماذا لا يفعل كل ما يستطيع من التنكيل بعدوه .. قبل أن يقتل ..

وبهذا المنطق تحرك الجنود ..

أشباح فى الظلام تحمل الموت للعدو .. أينما تجده .. لم يعد يشغله أبدا الخوف على نفسه .. لم يعد يفكر فى الأمن والسلامة .. وإنما يفكر .. فى أفضل طريقة لاستثمار ما تبقى فى عمره .. من لحظات .. وما تبقى فى يده من ذخيرة ..

وحمل الموت إلى العدو من كل اتجاه ..

لم يكن العدو يعرف فى الظلمة .. أين هو بالنسبة لخصمه .. كان يجده ينبت بالموت فى يده .. من كل اتجاه .. وفى كل لحظة ..

وأحس العدو بمذبحة الظلمة المروعة .

لم يقبع خصمه فى مخابئه .. مدافعا .. ولكنه خرج فى الظلمة يشيع الموت فى أنحاء الجزيرة المظلمة ..

وخلال ذلك .. وقبيل العاشرة .. بدأت بشائر قوات الدعم تصل إلى الجزيرة .. وصل أحد اللنشات قرب الشاطئ .. ونزلت منه مجموعة تتجه إلى مواقعنا فى أحد القوارب .. واكتشف العدو وجودها .. فأسرعت بوضع الخوذ .. على الصخور .. وبدأ العدو .. يصوب إلى الخوذ نيرانه .. ودارت القوة حتى وصلت إلى موقع القيادة .. وأبلغت ببداية وصول الإمدادات ..

وبدأت مقدمة القوات فى النزول .. وبدأ العدو فى ضرب اللنش بإحدى

طائراته .. وتعرض للغرق .. ولكن القوة الصغيرة استطاعت أن تنقذ جهاز اللاسلكى .. وتسبح به حتى تصل الشاطئ وتحمله إلى مقر القيادة ..

وعاد الاتصال بين قيادة قوة الجزيرة والقيادة العليا .. وأبلغتها أن العدو قد نزل بما يقرب من كتيبة مظلات حوالى خمسمائة جندى .. وأكدت القيادة العليا .. أن الطائرات قد تلقت التعليمات بتقديم العون وضرب قوات العدو وبدأت الإمدادات تشارك فى الهجوم الليلى على العدو ..

وأحس العدو بخطورة الموقف فأطلق المشاعل المضيئة .. وتحول الليل إلى نهار .. وبدأت المجموعات الصغيرة تنسحب .

وقال شريف وهو ينظر إلى ساعته فى قلق :

ـــ الساعة جاوزت الحادية عشرة .. ولا أثر لطائراتنا ..

ورد محمود فى هدوء :

ـــ اصبر ..

ثم هز رأسه فى شيء من الأسف :

ـــ حاولت أن أجعل رجالنا يحيطون بالعدو حتى لا ينتشر فى الجزيرة ويظل متجمعا فى بقعة واحدة .. لكى تستطيع طائراتنا تصيده بسهولة .. ولكن يبدو أنه تسرب فى كل أنحاء الجزيرة .. فأنا أسمع ضربه من كل مكان ..

وفجأة سمع أزيز ..

وأرهف شريف ومحمود آذانهما ..

وهمس شريف فى قلق :

ـــ طائراتنا !! ..

وقال محمود مؤكدا :

ـــ أجل ..

وبدأت الطائرات تحصد العدو المنتشر فى أنحاء الجزيرة .. وسرت موجة فرح .. بين قواتنا ..

ذهب عنهم الإحساس باليأس .. الذى أصابهم عندما بدأ الهجوم على الجزيرة .. ووجدوا العدو يقذف إليهم بمئات الجنود .. ويدك مواقعهم بطائراته دكا ..

وبدأ الهدوء يسود .

وعمت الظلمة الجزيرة ..

وبدأت الأجساد تحس بتعب اليوم يحل عليها ..

واسترخى محمود فى موقعه فى الخندق ..

وأحس أنه على استعداد لأن يدفع عشر سنين من عمره .. الذاهب هباء .. من أجل رقدة مريحة .. من أجل إغفاءة ..

قال شريف متسائلا :

ـــ أتراهم سيهدأون ؟؟ ..

ورد محمود :

ـــ ليفعلوا ما يشاءون .. نحن فى انتظارهم .. وكما قلت لك ليس أمام أى منا سوى أحد أمرين .. قاتل .. أو مقتول .. وأعتقد أننا قتلنا منهم عددا لا بأس به ..

ورد شريف :

ـــ لا أكتمك القول أنى كنت أشعر باليأس .. كنت أشعر أننا سنضيع فى شربة ماء .. وأننا سنباد عن آخرنا .. ولكن عندما خرجنا إليهم .. وسمعت صرخاتهم الفزعة المرتاعة ورصاصنا يستقر فى رءوسهم وسناكينا تستقر فى صدورهم عادت السكينة إلى نفسى وملأ الأمل جوانحى ..

ولم تطل السكينة كثيرا ..

حتى سمع فى الجو أزيز هيلكوبتر ..

وكان ضوء الفجر قد لاح ..

واستطاع محمود أن يرى طائرات الهليوكوبتر تحوم فى محاولة للهبوط ..

وتساءل شريف :

ـــ أينزلون مزيدا من الجنود ؟؟ ..

وقال محمود وهو يحقق النظر فى الطائرات :

ـــ بل يحملون قتلاهم وجرحاهم .. انظر إلى الصناديق الكبيرة المعلقة فى الطائرات ..

وبدأ العدو فى حمل جرحاه وقتلاه ..

وقبيل السادسة بدأت الهليوكوبتر تتقدم فى أفواج هابطة على المواقع المصرية .. تحصدها بمدافعها الرشاشة .. تحاول أن تقضى على كل ما بها من مقاومة حتى لا يعود من بها مرة أخرى إلى عمليات اشتباك مروعة كالتى قام بها الشياطين فى ظلمة الليل ..

وردت القوات المصرية على الطائرات بوابل من النيران .. مصممة على مواصلة القتال لآخر طلقه فى المدافع وآخر نفس فى الصدور ..

لقد أصر الرجال على التشبث بالأرض الصخرية .. التى ملأهم الإحساس وقتذاك .. أنها باتت أثمن من كل شىء ..

أثمن من حياتهم ..

وخلال ذلك كانت الإمدادات البحرية تتحرك فى اللنشات .

عرف القائد البحرى المقدم حسنى وهو فى موقعه فى خليج السويس .. ما يحدث فى الجزيرة الصغيرة التى انقض عليها العدو يحاول أن يفترسها بطائراته ومدافعه وجنوده .. وصل الدوى إلى مسامعه .. وعرف من جهاز اللاسلكى أن أبطال الجزيرة يقاومون .. وأنهم يصرون على الفناء فى أرض الجزيرة .. ليجعلوا من صخورها مقبرة لهم ولأعدائهم ..

وأصدر أوامره للنشات بالتحرك .. قفز فى أحدها ..

أحس الرجل أنه قلق فى موقعه .. وأنه سيكون أكثر ارتياحا لو انطلق مع القوة ليشارك جنود الجزيرة مصيرهم ويشد أزرهم ..

انطلقت اللنشات تشق الماء نحو الجزيرة ..

وأحست بها طائرات العدو .. وصممت على أن تمنع الدعم من الوصول إلى

الجزيرة .. حتى لا تزيد من متاعب قواتها ..

وهبطت الطائرات نحو القوارب المندفعة فى الماء .. وبدأ اللنش القائد يسير فى خط متعرج محاولا تفادى مدافع الطائرة .

وارتفعت الطائرة ثم عادت تهبط من جديد ..

وأطلق حسنى ستارا من الدخان يحجب اندفاع سرب اللنشات عن مدافع الطائرات المغيرة ..

وواصلت اللنشات السير تحت نيران الطائرات .. تحاول تجنب القصف الجوى بالسير المتعرج تارة وستار الدخان تارة .

واستمرت معركة المطاردة .. بدأت مدفعية اللنشات المضادة للطائرات تشتبك مع طائرات العدو المنقضة .. ودخلت إحدى طائرات الميراج مرمى مدفعية لنش القيادة .. وبسرعة صوب مدفعجى اللنش مدفعه نحو الطائرة المنقضة على اللنش .. وبطلقة واحد .. أصاب الطائرة .. وإذا بها تسقط مشتعلة فى الماء أمام الرجال .. وصرخ المدفعجى فرحا .. ولم يشعر بصرخة انطلقت من اللنش .. كانت صرخة قائده بعد أن أصابته إحدى الشظايا .. واستمرت المعركة .. عادت الطائرات تضرب اللنش حتى أشرف على الغرق ونفدت ذخيرة مدافعه ..

وقفز حسنى إلى الماء .. مع ما بقى من الرجال .. وبدأ السباحة نحو الجزيرة والطائرات تحوم من حولهم .. تضرب اللنش الغارق .. تتحول إليهم لتحصدهم وهم فى مشوارهم اليائس نحو الجزيرة .. وتمتم حسنى قائلا وهو يضرب الماء بيديه :

ـــ أنذال .. المفروض أن يقدموا العون لغرقى القطع البحرية ..

وهتف أحد الرجال بجواره وهو يجاهد سابحا فى اليم :

ـــ القانون الدولى والأخلاق تمنع مهاجمة الغرقى .. ولكنهم جبناء أنذال .

وواصل حسنى السباحة وهو يحس بالإعياء والدماء تنزف من جرحه .. حتى استطاع أخيرا بلوغ الشاطئ ..

ووضع قدميه على أرض الجزيرة .. مثقل الخطا .. لاهث الأنفاس .. وأبصره .. خلف الصياد يقف على الشاطىء فى أسى وشرود وهو يرقب جنود البحرية المصابين الذين قذف بهم الموج إلى الشاطئ ..

واندفع إليه ليعاونه على السير ..

وقبل أن يمد إليه يده خر على صخر الجزيرة .. وانحنى عليه خلف محاولا حمله.. فوجده قد أسلم الروح ..

صمم على مشاركة أبطال الجزيرة مصيرهم .. فمات على أرضها وضمه الصياد إلى صدره .. تمنى لو يمنحه روحه وهمس به والدموع تنهر من عينيه فى صمت ..

ـــ يا ولدى .. يا حبيبى .. مصر لن تضيع .. لن تضيع وأنتم حماتها .

واستمرت المعارك فى الجزيرة من خور إلى خور .. ومن خندق إلى خندق ..

وشارك الصيادون فى المعركة.اقتحموا مياه الجزيرة ينقلون الذخيرة إلى القوات المقاتلة ويحملون الجرحى بعيدا عن مناطق الضرب .. وبقى بعضهم بجوار جنود البحرية مستعملين قوارب الصيد فى التنقل بينهم ..

واندفع محمود وشريف يقودان مجموعات المقاومة ..

وانطلق الرجال من خنادقهم يواجهون العدو بمدافعهم الرشاشة .. يحصدونه .. ثم يموتون ..

يقتلون .. ويقتلون .. حتى تصيب أحدهم رصاصة تصرعه ..

ليكن الواحد منهم .. بعشرة .. أو عشرين ..

وأحس محمود بالرجال من حوله يتساقطون .. بعد أن يحصدوا العدو بالعشرات ..

ولجأ إلى الكوخ الحجرى بجوار الفنار .. ممسكا بأحد المدافع فى يده .

وواصل العدو تقدمه .. وأرسل أحد الجنود المصريين الذين فرغت ذخيرتهم فسقطوا أسرى ليفتش الكوخ ويطلب ممن فيه ـــ إذا كان فيه أحد ـــ التسليم ..

وذهب العسكرى إلى محمود ..

وقال له محمود هامسا فى حزم :

ــ قل لهم إن المبنى خال ..

وعاد العسكرى لينبئهم بخلو المبنى .. وتقدمت القوة .. وخرج إليهم محمود ليحصدهم بالرشاش حتى آخر طلقة .. واستطاع أحدهم إصابته برصاصة فى جانبه .. فأحس أن قواه تخور .. والدنيا تغيم من حوله وسقط وهو يتمتم :

ــ هل صددنا الهجوم .. هل أنقذنا الأرض .. ليتنى أعرف قبل أن أموت .. ليس الموت مخيفا .. ولكنها مرارة الهزيمة ..

(١٥)

عمليـة بتر

استطاعت قوة الجزيرة .. أن ترد العدو عنها .. بعد يوم من القتال المرير وأمام إصرار عجيب على الصمود لم يجد العدو إزاءه مفرا من الانسحاب ..

بدأت قواته تضع الألغام والأشراك الخداعة والقنابل الزمنية ..

وأخذ يغادر الجزيرة حاملا قتلاه وجرحاه ..

وعادت قواتنا تلم الجرحى والقتلى ..

وأقبل شريف على محمود يفحصه مرتاعا ..

كانت الدماء تسيل من جرح فى جانبه .. ولكن عروقه كانت تنبض بالحياة ..

بل لقد أحس بيد شريف تمسك بيده ففتح عينيه وسألفى إعياء ..

ورد شريف :

ـــ جلا العدو عن الجزيرة ..

ـــ كيف ؟؟.

ـــ لم جرحاه وقتلاه .. ورحل ..

وندت عن محمود تنهيدة ارتياح وأغمض عينيه فى إعياء وتمتم قائلا :

ـــ الحمد لله ..

وحمل محمود إلى الفنار .. حيث بدأت عمليات الإسعاف الأولية توطئة لنقل المصابين إلى المستشفى ..

وأخذت القوات فى تفتيش الجزيرة ..

لم تجد من العدو سوى الدماء الغزيرة فوق الصخور .. وبقايا أدوية

وضمادات إسعاف .. وبدأت عملية التنسيق بين قوات الجزيرة — ما تبقى منها — وبين قوات الإمدادات استعدادا لأى هجوم جديد ..

ونقل محمود ضمن أفواج المصابين إلى مستشفى المعادى

كانت نعمت قد قرأت آخر أنباء المعركة تتوسط صدور الصحف :

« بعد قتال مرير دام ٣٦ ساعة اضطر العدو إلى الانسحاب من شدوان .. »

« صحفى أمريكى يعرض صورة للأعمال البطولية الرائعة للجنود المصريين فى الجزيرة الصخرية فى البحر الأحمر » .

« القتال الذى بدأ على الجزيرة صباح الخميس لم يتوقف إلا مساء أمس .. بعد أن عجز العدو عن البقاء فى الجزء الذى نزل فيه .. اضطر إلى الانسحاب » .

« طائراتنا تقصف المواقع التى تمكن العدو من النزول عليها » .

« القاذفات المصرية تهاجم مواقع العدو فى أعماق سينا » .

« الطائرات اقتربت من مواقعه على ارتفاع منخفض ودمرت تجمعاته » .

« عند منتصف الليل ضربت طائراتنا مواقع العدو فى العريش » .

ومنذ أن بدأت الأنباء تذاع عن المعركة .. وهى تجلس مشدودة .. والراديو الصغير فى يدها .. تدير المؤشر بين المحطات تحاول التقاط أنباء المعركة ..

وقرأت البيان العسكرى أكثر من مرة ..

« قام العدو فى الساعة التاسعة من صباح الخميس بهجوم جوى عنيف على جزيرة شدوان التى يبلغ طولها ١٦ كيلومترا ويتراوح عرضها بين ثلاثة وخمسة كيلومترات .. ويوجد بها فنار مدنى لإرشاد السفن ليلا منعا من اصطدامها بالشعب المرجانية ..

وقد قامت قواتنا بوضع عدد محدود من أفراد قواتنا البحرية والبرية لحراسة الفنار .. وقد اشتركت أعداد كبيرة من طائرات العدو فى مهاجمة موقع الفنار الذى يقع فى جنوب الجزيرة وكذلك مساكن الموظفين الذين يقومون بإدارة الفنار .. واستمر العدو » .

وتواصل نعمت قراءة البيان حتى تصل إلى آخره ..

« وقد كان للبطولة التى أبداها جنودنا فى القتال المتلاحم بالسلاح الأبيض الأثر الأكبر فيما تكبده العدو من خسائر فادحة اضطرته للتخلى عن فكرة البقاء فى الجزيرة التى راودته وأعلنها عند بدء هجومه ؟ ..

وكانت خسائرنا طوال القتال يوم الخميس وخلال الليل وطوال يوم الجمعة حوالى ٨٠ فردا بين شهيد وجريح ومفقود بما فيهم المدنيون الذين كانوا يديرون الفنار ..

وإن القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية تعتبر معركة جزيرة شدوان التى دامت ٣٦ ساعة متصلة فى قتال متلاحم رمزا للصلابة والجرأة والفداء الذى وصل فى الجزيرة إلى أقصى حد » ..

وتذكرت نعمت قول محمود ببساطة « قد يموت عسكرى .. أو يجرح آخر .. وقد تفنى الداورية بأكملها » .. وتحس بأن قواها تخور .. وتعاود قراءة السطور لعلها تجد شيئا عنه .

أين هو .. من كل هذا ؟ ..

٣٦ ساعة فى قتال متلاحم رمزا للصلابة والجرأة والفداء .

إنه بغير شك موجود فى كل هذا ..

ولكن إلى أين انتهى ؟ ..

أين هو من الثمانين شهيدا وجريحا ومفقودا ؟ .. وفجأة وصل إلى مسامعها صوت سرينة عربات الإسعاف ..

وقفزت من مكانها .. واندفعت إلى الاستقبال .. فى هلع .

وفى اضطرابها الشديد لم تعرف ماذا تفعل ..

هل هناك كشوف للجرحى .. إنهم كثيرون يدفع بهم على النقالات الواحد بعد الآخر .. ومنظرهم أليم موجع .. البعض تبدو وجوههم كقطعة فحم والدماء تنشع من الأربطة .. والآهات .. والأنات ..

أيمكن أن يكون بينهم ؟؟ .

كان يسخر منها دائما .. ويقول إن عمر الشقى بقى .. وإنه تعود دائما أن يعود سليما ..

و لم تلمحه بين الوجوه المتدافعة على النقالات ..

واندفعت إلى الداخل ..

ولقيت الدكتور رشاد منهمكا فى فحص الجرحى ..

وقبل أن تصل إليه هتف بها :

ـــ المقدم محمود عبد الله فى الداخل .. عند الدكتور عبد المجيد ..

وأحست بشيء يدمى فى باطنها .. وأصابها دوار .. وحاولت جهدها أن تتماسك حتى لا تسقط ..

ووقفت لحظة حتى تتمالك قواها ، ثم اندفعت إليه متسائلة :

ـــ ماذا به ؟؟ .

ـــ إصابة فى جانبه ..

وسألت وهى تزدرد ريقها فى جزع :

ـــ هل ؟؟!!

وهز رشاد رأسه وقال مقاطعا :

ـــ لست أظنها خطيرة ..

وكانت تريد أن تعرف المزيد .. وأن تفعل شيئا ..

ولكنها لم تكن تملك سوى الصمت والانتظار .. والحركة العصبية ..

تروح .. وتغدو .. تجلس ثم تقف .

تحاول أن تفعل شيئا له معنى .. ولكنها تحس أنها مشلولة التفكير عاجزة عن التصرف ..

ولا تملك إذا ما طلب منها شيء إلا أن تقول فى شرود :

ـــ حاضر .. بعدين ..

وبين آونة وأخرى تدفع باب الغرفة .. وتنظر فى جزع .. ثم تسأل أحد المساعدين أو إحدى الممرضات :

ـــ إزاى الحال ؟؟ ..

ويأتيها الرد مختصرا .. غير مفيد :

ـــ ماشى ..

وأخيرا أنتهت العملية .. وبدا محمود تحت الأغطية شاحب الوجه مرهقه مغمض العيني يشيع الألم فى ملامحه ..

وعضت على شفتيها تكتم النواح فى باطنها .. وسارت فى صمت تتبعه حتى غرفة الإنعاش ..

ومضى الوقت بطيئا ..

حاولت أن تتشاغل بعمل شىء ..

لم تعرف ماذا فعلت .. فعلت أشياء بلا وعى .. ثم عادت ترقب الجريح الراقد فى غرفة الإنعاش .. ترقب صدره يعلو ويهبط .. من وراء القفص الشفاف ..

وسمعت صوتا فى الخارج يسأل فى جزع :

ـــ المقدم محمود عبد الله من فضلك ؟

ورد عليها أحد الأطباء :

ـــ الزيارة ممنوعة يا فندم ..

ـــ أنا زوجته ..

ـــ تفضلى ..

وبعد لحظة بدت سامية .. بتقاطيعها الجادة الصارمة .. ووقفت ترقب الجسد المسجى .. والدموع متحجرة فى عينيها .

وسألت فى خوف :

ـــ كيف حاله ؟ ..

ولم يكن سواها بجواره .. ولم تعرف ماذا تقول ! .

صمتت لحظة ثم أجابت :

ـــ ربنا يرعاه ..

والتفتت إليها سامية .. و لم يبد عليها أنها قد استطاعت أن تميزها .. إما بسبب الضوء الخافت .. أو لأنها نسيتها ..

وسألت سامية :

ـــ من الدكتور الذى أجرى العملية ؟

ـــ الدكتور محمود عبد المجيد ..

ـــ أين هو ؟؟ .

ـــ فى غرفة العمليات ..

واقترب أحد المساعدين يحاول طمأنتها :

ـــ الإصابة غير خطيرة .. والعملية ناجحة بإذن الله ..

ثم أشار نحو الباب قائلا :

ـــ تفضلى يا فندم فى غرفة الاستراحة .

واتجهت سامية خارج الغرفة وهى ترمق نعمت بنظرة جانبية محاولة أن تعرف من تكون ؟ .. وخرجت نعمت وراءها .

وكان الممر أكثر ضوءا .. واقتربت نعمت من سامية محيية :

ـــ صباح الخير يا فندم ..

وميزتها سامية .. ردت عليها التحية بغير مودة :

ـــ صباح الخير ..

ثم أردفت متسائلة :

ـــ حضرتك حضرت العملية ؟؟ ..

وهزت نعمت رأسها بالنفى ..

وعادت سامية تسأل :

ـــ ألم يقل الدكتور شيئا ؟ ..

ـــ قال إن الاصابة غير خطيرة ..

وتمتمت سامية فى قلق :

ـــ ربنا يستر ..

وأشارت نعمت إلى غرفة الاستراحة قائلة :

ـــ تفضلى يا فندم استريحى ..

وردت سامية وهى تبحث حولها فى قلق :

ـــ ألا يوجد تليفون .. أريد أن أطمئن داليا .. كانت تريد الحضور معى .. ولكنى خشيت عليها من الصدمة ..

وأشارت نعمت إلى حجرة مجاورة :

ـــ اتفضلى .. يوجد تليفون فى هذا المكتب .

واختفت سامية فى الحجرة .. وعادت نعمت مرة أخرى إلى حجرة الإنعاش ..

دفعت الباب وأطلت على الوجه الشاحب .. ما زالت أنفاسه تتردد .. ولكن وجهه باهت .. كالقماش الأبيض ..

لو تستطيع أن تفعل شيئا .. تمنحه بعض دمها لترد لوجهه لون الحياة .. بدل هذا الشحوب المروع ..

وتركت الغرفة ..

بعد أن نبهها رشاد إلى غرابة وقفتها الذاهلة المرتاعة قال فى لهجة شبه زاجرة :

ـــ وبعدين يا نعمت ؟ ...

وخرجت نعمت .. اندفعت من هذا الممر إلى ذلك المكتب .. تفعل أشياء لا مبرر لفعلها .. وتقول أشياء لا معنى لها ..

ومرة أخرى تعود مندفعة إلى الغرفة فى عصبية ..

وفى هذه المرة وجدت الدكتور عبد المجيد يغادر الغرفة .. فسألته فى لهفة :

ـــ كيف الحال يا دكتور ؟؟ ..

ـــ الحمد لله ..

ثم تلفت حوله متسائلا :

ـــ يقولون إن مدام عبد الله حضرت ؟

وردت نعمت :

ـــ أجل .. كانت هنا الآن ..

واتجهت نعمت مع الدكتور عبد المجيد إلى غرفة الاستراحة .

وأقبلت سامية على الدكتور متسائلة فى لهفة وجزع :

ـــ كيف الحال يا دكتور ؟؟ ..

ـــ الحمد لله .. جت سليمة ..

ـــ أليس هناك خطر ؟؟ ..

وعاد الرجل الطيب يكرر قوله :

ـــ سليمة بإذن الله ..

ـــ لماذا إذن تبقونه فى غرفة الإنعاش ؟

وضحك الطبيب :

ـــ إذا كان هذا يقلقك .. فسنخرجه الآن !! ..

وهتفت نعمت بغير وعى ..

ـــ لا .. لا .. يا دكتور .. لا داعى لذلك ..

ونظرت سامية إلى نعمت .. نظرة غير صديقة .. ثم قالت للطبيب :

ـــ إذا لم يكن هناك داع لإبقائه .. لماذا لا يخرج .. لقد أفزعنى أن أجده فى غرفة الإنعاش .. ولا أريد أن أصدم داليا برؤية هذا المنظر ..

وقال الدكتور عبد المجيد فى هدوء :

ـــ نحن نضعهم هناك فترة بعد العملية .. من باب الطمأنينة .. ولكن حالته حسنة وسآمر بنقله إلى غرفته ..

وتمنت نعمت ألا يتعجلوا فى إخراج محمود .. كان وجهه الشاحب يقلقها

ولكنها أحست أنها لا تملك من الأمر شيئا .. وأقلقتها نظرة سامية غير الصديقة و لم تستطع إلا أن تتشاغل بالأشياء غير المفيدة التى تتظاهر بعملها ..

ونقل محمود إلى غرفته ..

كان قد بدأ يفيق من إغفاءة البنج ..

كانت نظراته ضائعة .. يحملق فى لا شىء ..

وسارت نعمت بجواره فى صمت ..

فرضت نفسها على خدمته فرضا .. لم تعبأ بنظرات سامية التى لا تحمل الكثير من المودة ..

إنه مريض .. وهى فى خدمة المرضى ..

وإذا سألتها زوجته سؤالها السخيف الذى سألته فى المرة الأولى .. ولماذا هى فى خدمة هذا المريض بالذات .. ستقول لها إن هذا هو واجبها إنه بطل .. ويجب أن يكون الجميع فى خدمته ..

واستطاعت عينا محمود الخابيتان أن تميزاها .. تركزت إحدى نظراته عليها .. ثم ضاعت وراءها .. ورفع عينيه إلى زوجته .. استقر عليها برهة .. ثم أغمضها فى إعياء ..

وقال الدكتور المساعد :

ـــ أرجوكم .. دعوه يستريح ..

وبعد برهة .. أقبلت داليا مع عمها المهندس إبراهيم عبد الله ..

و لم تعرف نعمت كيف ستلقاها داليا .. وتحفظت فى لقائها ..

وقفت ومدت يدها ..

ولكن الفتاة ارتمت عليها تعانقها باكية وهى تردد :

ـــ بابا ..

وضمتها نعمت فى حنان إلى صدرها ..

وضعت فى ضمتها كل ما اختزنته من حنان ولهفة .. وأجابت وهى ترد

الدموع فى عينيها ..

ـــ بابا .. كويس يا داليا ..

ولم ترتح سامية لما فعلته ابنتها ..

لم تجد هناك معنى لهذه المودة بينها وبين نعمت ..

وقالت سامية تحاول أن تمسك زمام الأمر بيدها :

ـــ العملية نجحت والحمد لله .. والإصابة كما قال الدكتور عبد المجيد الذى أجرى العملية .. ليست خطيرة .. وقد خرج من غرفة الإنعاش لأن حالته حسنة ..

قالت سامية كل شىء .. ولم تترك فرصة لنعمت أن تقول لداليا شيئا .. ثم مدت يدها فجذبت داليا من ذراعها قائلة :

ـــ تعالى .. وألقى عليه نظرة .. ولكن لاتحدثى صوتا حتى لا تقلقيه ..

ودخلت الابنة وأمها إلى الغرفة المظلمة ووقفت داليا تنظر إلى الوجه الشاحب المغمض العينين فى لهفة وجزع ..

وفتح محمود جفنيه فى تثاقل وإعياء ..

ونظر إلى داليا نظرة خابية .. دون أن يعرفها ..

وقالت داليا :

ـــ بابا .. أنا داليا ؟ ..

وحملت النظرة معنى . وعلت الشفتين شبح ابتسامة .. عرف الأب ابنته .. وبسط كفه فمدت كفها تطبق على كفه ..

وبعد لحظة أغمض عينيه ..

وجرت الأم ابنتها للخارج قائلة :

ـــ كفى .. لا داعى لأن ترهقيه ..

وفى الخارج وقفت نعمت تتحدث مع إبراهيم .. كانت به ملامح أخيه .. جسمه أقصر وأضأل .. ولكن بينهما الكثير من الملامح المشتركة التى تؤكد أنهما

أخوان ..

وأحست نعمت أنها غريبة .. وأن عليها أن تنصرف ..

ولكن داليا تعلقت بها وسألتها فى مودة :

ـــ أما زلت تعملين هنا ؟ ..

ـــ أجل ..

ـــ علمت أنك ذهبت إلى الجبهة ؟ .

وسألت نعمت فى دهشة قائلة :

ـــ كيف علمت ؟؟!! ..

وأحست نعمت أنها سألت سؤالا غبيا . فقد يكون محمود هو الذى أنبأها.

ولكن داليا ردت فى ذكاء :

ـــ سألت عليك هنا ذات مرة فقالوا لى إنك فى الجبهة ..

ـــ أجل أمضيت هناك أكثر من أسبوعين ..

ولم يبد أن المناقشة قد تركت أثرا طيبا فى نفس سامية ..ولكن داليا لم تعبأ بها وهتفت فى إعجاب :

ـــ يا بختك .. لقد كنت أعجب بك دائما كصحفية .. ولكنى الآن أشد إعجابا بك فى عملك العسكرى .. ليتنى أستطيع أن أكون مثلك ؟! .

وقطعت سامية الحديث :

ـــ التفتى إلى دروسك أولا .. ثم كونى ما تشائين ..

وأحست نعمت أن عليها أن تنصرف .. حتى لا تزيد من ضيق سامية فقالت فى أدب :

ـــ عن إذنكم ..

وردت داليا :

ـــ إلى أين ؟ ..

ـــ لدى بعض الواجبات التى لا بد أن أؤديها ..

ــ ولكن ألن نراك هنا ؟ ..

ــ طبعا ..

ــ سنراك كثيرا ؟؟

وردت نعمت ببساطة :

ــ إنى أعمل هنا ..

ــ ونحن سنكون هنا بجوار أبى ..

وتمتمت سامية :

ــ عسى ألا تطول المدة ..

وقال إبراهيم :

ــ لا داعى لتعجل خروجه ..

وردت نعمت :

ــ ربنا يرعاه .. ويخرجه سالما ..

وذهبت نعمت تتشاغل بأمورها .. وعندما عادت .. كان الجريح وحده .. وفى أول لقاء .. وقفت نعمت بجواره .. تمسك كفه فى رفق وحنان ..

ضغط كفها بكل ما يملك من قواه الخائرة ..

ورفع جفنيه المتثاقلين .. وحاول أن يبل شفتيه بريقه الجاف .. وارتسمت على وجهه شبح ابتسامة ..

وهمست نعمت :

ــ إزيك ؟!!

ورد محمود فى صوت خافت :

ــ عدت إليك ..

ــ بالسلامة ..

وهز رأسه رافضا إجابتها ثم تمتم بصوته الخائر :

ــ لم تكن تنفعنى السلامة فى لقائك .. الجرح هو الذى نفعنى ..

وأحست نعمت بالدموع تكاد تطفر فى عينيها وتمتمت قائلة :

ـــ بعد الشر ..

وضغط على يدها فى حب وتمتم قائلا :

ـــ تنطقينها كأمى .. كلكن مصريات .. أحبك .. كما أحببتها ..

وربتت كفه قائلة :

ـــ لا تجهد نفسك ..

وهز محمود رأسه رافضا نصيحتها واسترسل يقول فى صوته الخافت المتقطع :

ـــ عدت بجرحى .. أسلم سبيل إليك .. سددت على كل السبل .. فلم يبق أمامى سواه ..

وصمت لحظة ثم أردف :

ـــ مريض .. فى مستشفى .. لا خوف منه ولا حرج .. يرجو أن يبقى معك إلى الأبد ..

وردت نعمت وهى تضغط على كفه :

ـــ لا تقل هذا .. ستشفى وتخرج ..

وأحرم من لقائك ؟ ..

ـــ بل سنلتقى دائما ..

ـــ دقائق .. فى الممر كأننا نسرق ؟؟ ..

ـــ لا تجهد نفسك الآن .. عندما تستريح .. سنتحدث كثيرا ..

ـــ أجل .. كثيرا .. كثيرا .. ألست باقية معى ؟؟ ..

ـــ أجل ..

وبدا عليه الإعياء وأغمض وربتت نعمت كفه وهمست :

استرح الآن ..

وتركت الغرفة .. والدموع معلقة فى مقلتيها ..

وبقيت نعمت معه ..

عاد إليها بجرحه .. أسلم السبل — كما قال — إليها..
سدت كل السبل أمامه .. فعاد جريحا .
وكان أشقها على نفسها ..
لم يكن السبيل سهلا ..
ولم تكن الإصابة كما قال الطبيب غير خطيرة ..
كان قد نزف كثيرا .. وتلوث الجرح .. وحدثت له كل المضاعفات ..
وبقيت معه .. لم يغمض لها جفن خلال الليالى العصيبة التى مربها ..
وأقبلت ابنته تلوذ بها فى ساعات الجزع ..

وسلمت سامية بعونها .. ففى ساعات الخطر لا يسأل الإنسان كيف يأتيه العون .. ولا من يعينه على الخطر .. حتى يصل إلى بر الأمان . ..

ورغم ما أصاب نعمت من جزع .. ورغم كل ما كانت تضمره من مشاعر اللهفة والخوف والقلق .. فقد حاولت دائما أن تتصرف بحكمة .. وأن تتعامل مع الموقف الدقيق .. بعقلها .. ممسكة بزمام قلبها حتى لا يفلت منه الزمام ...

لقد عاد إليها بجرحه .. أسلم السبل .. وعليها رغم كل ما بها — أن تحافظ على سلامته .. سلامة السبيل ..

وأن تجعله — كما قال — مريضا فى مستشفى ..

ورغم كل ذلك .. لم تكد راية الخطر تنزل .. و لم يكد فجر السلامة يتسلل من ليل الخوف المروع المجهول .. حتى بدأ جو التوتر يسود .. وأخذت سحب الجفوة تخيم ..

فى ساعات الهول .. والجزع يمسك بالخناق .. لم يكن أحد يسأل من يفعل ماذا .. ولا كان أحد وسط عاصفة الخطر .. يسأل .. من أين جاء طوق النجاة .

فلما زال الخطر وهدأت العاصفة ..
بدأ السؤال لماذا ؟؟!!
وسلمت به الابنة بأحاسيس الحب .. والود .. والخير وعرفان الجميل ..

وضاقت به الزوجة .. كشبح يهدد وجودها ..
نزلت راية خطر .. ورفعت راية خطر أخرى .. راح الخوف على حياته .. وأقبل الخوف على الرباط الذى يشده إليها ..
وإذا كانت قد كسبت حياته .. فهى لا تريد أن تفقد حياتها معه ..
بعد هدوء العاصفة ..
بدأ السؤال لماذا .. ولماذا .؟ .
لم ترتح سامية إلى نعمت فى أول مرة .. عندما دخل محمود المستشفى بحصوة فى الكلى ..
و لم ترتح إلى وجودها فى أول لقاء هذه المرة ..
ولكن خلال عاصفة الخطر .. جب القلق الأكبر .. القلق الأقل .. فلم تكد تهدأ .. حتى أخذ القلق الأقل يكبر .. حتى صار مخيفا ..
لماذا تبقى بجواره ؟ ..
ولماذا يفعل هذا .. ولماذا تفعل ذاك ؟
لماذا يبتسم .. ولماذا يهش لها ؟ ..
من تكون هى .. حتى تأخذ لنفسها هذا الحق أو ذاك .. و لم تعد الجفوة بخافية .. وبدأ التوتر يسود الجو ..
وأخذت نعمت .. تتجنب الصدام .. وتنأى بنفسها عنه .
وضاق محمود فى فراشه .. بكل هذا .
ضاق بالتوتر من جانب زوجته .. وبمحاولة البعد من جانب نعمت ..
حتى أسلم السبل .. بات مستعصيا !!
وفى ذات يوم .. قبيل الظهر .. انفجر الموقف .. بين الزوجين ..
بدأته سامية بما نسميه « البرطمة » و « التلقيح » .
و لم يكن فى الغرفة سواهما .. كانت داليا خارج الغرفة و لم تكن نعمت موجودة ..

وحاول محمود تجاهلها .. وتشاغل بتقليب مجلة فى يده .

ولكن سامية بدأت تتساءل فى عصبية وضيق :

ـــ هذا غير معقول .. تحشر نفسها فى كل شىء .. من تظن نفسها ؟! ..

وصمت محمود ..

وأردفت سامية .. وكأنها تصر على تفجير الموقف :

ـــ مياعة .. وقلة أدب ..

ولم يجب محمود ..

واستطردت سامية ولهجتها تزداد عنفا :

ـــ أنا سأعرف كيف أوقفها عند حدها .. سأقطع رجلها من هنا ..

وزفر محمود زفرة قصيرة حادة وألقى المجلة من يده .. وتساءل فى غضب مكبوت :

ـــ من هى ؟؟ ..

ـــ الزفتة .. اللى أسمها نعمت ..

وأطلق محمود تنهيدة أطول .. ثم قال فى لهجة منذرة حاول ألا يفجر فيها غضبه المكبوت :

ـــ اسمعى يا سامية أرجوك لا داعى للفضائح ..

ـــ أنا الذى أعمل الفضائح .. أم أنتما ؟ ..

وعاد محمود يقول منذرا بعصبية الغضب المكبوت :

ـــ قلت لك اعقلى ..

وردت سامية صارخة :

ـــ بل لن أدعها تقرب الغرفة ..

ورد محمود فى إصرار :

ـــ بل ستأتى فى كل وقت ..

ـــ إذا كنت تصر على مجيئها فلن آتى أنا !! ..

ــ كما تشائين ..

ــ تفضلها على ؟؟ ..

ورد محمود فى هدوء :

ــ أجل ..

وصرخت سامية :

ــ معقول هذا ؟؟ ..

ــ أجل ..

وأقبلت داليا على صوت الصياح تتساءل فى جزع :

ــ ماذا حدث ؟؟!! ..

وقالت سامية :

ــ أنا لم أعد أحتمل ..

ورد محمود :

ــ ولا أنا ..

ــ إذن لن أبقى معك لحظة ..

وقذف محمود بكل ما فى صدره من غضب :

ــ فى ستين داهية ..

ــ انتهينا .. اعتبر كل ما بيننا انتهى !

وحاولت داليا التدخل قائلة فى جزع والدموع تكاد تطفر من عينيها :

ــ مش معقول ؟؟ ..

وأقبلت إحدى الممرضات ..

واندفعت سامية إلى الخارج فى انفعال .. ووراءها داليا .

وقبيل الغروب .. أقبلت نعمت ..

كان محمود قد بدأ مغادرة الفراش .. وساعدته الممرضة على ارتداء الروب .. وجلس فى الشرفة يتناول الشاى ..

وبدت صفحة النيل ملساء .. تنعكس عليها أشعة الشمس الغاربة وفى الأفق بدت بعض الأهرامات المدرجة .. والمداخن والنخيل ..

وأحس محمود بالهدوء يعاوده .. عقب انفعال الظهيرة .

لقد خلا إلى نفسه طوال بعد الظهر .. لم يزره أحد .. ليقطع عليه خلوته ..

لم ترجع زوجته .. ولم تأت نعمت ..

لم تعد الحياة محتملة مع سامية ..

لم يكونا يلتقيان إلا للحساب والعتاب .. ثم يفترقان على خصام ..

وهو لم يكن أبدا البادىء بطلب الانفصال .. إنها هى التى تهدد به دائما .. وفى كل مرة يتركها .. حتى تهدأ ..

ولكن فى هذه المرة .. سيكون حاسما ..

لقد باتت الحياة معها غير محتملة ..

ووضع فنجان الشاى على المنضدة ..

ونظر إلى الساعة .. وتساءل فى قلق :

لماذا لم تأت نعمت ؟ ..

منذ أن انصرفت فى الصباح بعد حضور سامية .. لم يسمع أحد لها صوتا.

أيمكن أن تكون سامية قد نفذت تهديدها .. وطلبت منها أن تكف عن الحضور ..

مجنونة ؟!! .. هل يمكن أن تفعل هذا ؟ ..

وفتح باب الغرفة .. وأطلت نعمت بوجهها .. ودارت بعينيها فى الغرفة تبحث عنه .. حتى وجدته فى الشرفة فهتفت باسمة :

ـــ ما هذا .. شاى فى الشرفة مرة واحدة ؟!! ..

وأحس محمود أنه لم يحدث شىء مما يخشاه .. ورد عليها قائلا :

ـــ اتفضلى ..

وتلفتت حولها متسائلة :

ـــ أين المدام .. وأين داليا .. أمعقول أن تتركك وحيدا ؟

وأحست نعمت بهبة نسمة باردة لم تفلح أشعة الشمس الغاربة فى تخفيف لسعتها فقالت فى قلق :

ــ الدنيا برد .. من الأفضل أن تعود إلى الفراش ؟ ..

ــ ولكننى لا أشعر بالبرد ..

ــ أرجوك .. لسنا على استعداد للمضاعفات .. قم ..

ونهض محمود إلى الغرفة فاستقر فى الفراش ..

وجلست نعمت على مقعد بجواره .. ونظرت إلى ساعتها فى قلق وتساءلت :

ــ لم تحضر مدام سامية بعد الظهر ؟

ورد محمود فى تبرم :

ــ أحسن ..

وسألت نعمت فى تشكك :

ــ أحدث بينكما شىء ؟؟ ..

ــ لقد طلبت الانفصال ..

ــ لماذا ؟؟ ..

ــ مجنونة .. لقد باتت لا تحتمل .

ــ ماذا فعلت ؟ ..

ــ قالت إنها لن تدعك تأتين إلى هنا .

وأطرقت نعمت برأسها وحاولت أن تتمالك وتمتمت قائلة :

ــ أنا آسفة ..

ــ أنت لم تخطئى .. لقد كان عليها أن تشكرك .. بدل هذه الغيرة الحمقاء ..

ــ بل كان يجب على أن أنسحب منذ مدة .. بمجرد أن زال عنك الخطر ..

ورد محمود فى إصرار :

ــ لن تنسحبى أبدا .. لا يمكن أن أحرم منك .. حتى فى مرضى ..

وتنهدت نعمت ثم قالت فى هدوء :

ـــ لقد بت الآن أفضل .. ويجب علينا أن نتصرف بعقل .

ـــ أكثر من هذا ؟ ..

ـــ أجل .. يجب أن نتصرف .. بالطريقة الواجبة .. لقد نسينا أنفسنا ..

ـــ إننا لم تفعل ما يستحق ثورتها ؟

ـــ إن من حقها أن تغار عليك ! ..

ـــ لقد ضقت بها وبغيرتها .. لقد ضقت بكل شيء . ولقد قررت أن أنهى كل شيء ..

وردت نعمت فى شبه توسل :

ـــ أرجوك .. لا أريد أن أكون سببا فى هذا .. !!

ـــ لست السبب .. لقد ضقت بها وبعصبيتها وانفجاراتها الدائمة ..

ـــ ولكنى أنا السبب هذه المرة ..

وصمت محمود ثم تمتم قائلا :

ـــ ليتك تكونين السبب فعلا .. لماذا لا نكون أشجع من هذا .. ونواجه مصيرنا بشيء من الحزم ؟ .. نحسم أمرنا معا .. لماذا لا نختار طريقنا بعد أن أخطأنا الطريق .. لقد كنت أفضل ما فى حياتى .. هل تتصورين أنى سعدت بالجرح .. لأنه مهد الطريق إليك ؟ ..

وضغطت نعمت على شفتيها تحاول أن تكتم انفعالها ..

كانت تحس بالرغبة فى البكاء .. ولكنها جاهدت لكى تطويه فى باطنها وردت فى صوت هادئ :

ـــ نحن لا نملك التصرف بهذا الانفعال ..

ـــ إنه سبيلنا الوحيد .. ويجب أن نسلكه ..

وأحست نعمت بالأمور تختلط عليها .

أيمكن أن يكون الأمر كذلك ؟ ..

أيمكن أن يكون هو على حق ؟ ..

لقد أخطأت طريقها مع عبد القادر .. وقررت الانفصال ..
وأخطأ هو طريقه إلى زوجته .. وقررا الانفصال ..
ولقد باتت خير ما فى حياته .. وبات خير ما فى حياتها .. وبات طريقهما واحدا .. فلماذا تحجم عن سلوكه ؟ ..
ونهضت فجأة تهم بالانصراف ..
لقد كرهت ضعفها ..
وسألها فى دهشة :
ـ إلى أين ؟؟ ..
ـ عندى نوبة مرور .. ولابد أن أنتهى منها ..
ـ وستعودين ثانية ؟ ..
ـ سيكون الوقت متأخرا .. وسأعود إلى البيت ..
ـ لماذا ؟؟ ..
ـ عادت أمى من الإسكندرية .. والمفروض أن أبيت معها .
وأطلق محمود زفرة يائسة ثم قال :
ـ أمرك ..
ومدت يدها تشد على يده قائلة :
ـ تصبح على خير .
ورفع يدها إلى شفتيه وهمس :
ـ سأراك فى الصباح ..
ـ إن شاء الله ..
وفى الصباح أقبلت على الغرفة ..
وجدت داليا وحدها فى الخارج ترتب الزهور فى الإناء الزجاجى ..
لقيتها فى ترحاب وعانقتها داليا فى لهفة ..
سألتها نعمت :

ـــ كيف حال بابا ؟؟..

ـــ بخير .. لقد سأل عنك ..

ـــ وأين ماما ؟ ..

ـــ لم تأت ..

ـــ خير ؟؟ ..

وصمتت داليا وحاولت أن تكتم انفعالها ثم قالت فى لهجة يشوبها التردد :

ـــ كنت أريد أن أحدثك على حدة ..

وأوجست نعمت خيفة مما يمكن أن تقول الفتاة .. ولكنها ردت :

ـــ تعالى !! ..

وجرتها من يدها إلى إحدى الغرف الخالية .. وجلست على الأريكة بجوارها وأمسكت يدها فى حنان وسألتها :

ـــ ماذا حدث ؟؟ .

وتنهدت داليا وقالت بصوت مختنق بالبكاء :

ـــ ماما وبابا يريدان الانفصال !! .

ـــ لماذا ؟؟ ..

ـــ من أجلك ..

ـــ من أجلى أنا ؟؟ ..

ـــ أجل .. تصورى .. إن ماما عصبية .. وبابا يعاملها بجفاء ، لقد أساءت ماما فهم طيبتك وحنانك ، أساءت فهم طبيعتك الخيرة .. ولقد حاولت أن أقنعها .. إنى أحبك وأجد فيك المثل الأعلى .. ولكنى عجزت عن أن أنقل إليها مشاعرى نحوك .. وعجزت عن أفهمها حقيقتك .. ولست أدرى ماذا أفعل .. لماذا يحدث كل هذا .. لماذا تتعقد الأموربهذا الشكل ؟ ..

وتنهدت نعمت وربتت على كتف داليا قائلة فى حنان :

ـــ لا تحملى هما .. هذه أمور تحدث دائما بين الأزواج .. إنها زوبعة فى

فنجان .. والمفروض أن تغار الزوجة .. وأن يضيق الزوج بغيرتها .. أو يغار هو وتضيق هى به .. إنها على حق .. وهو على حق .. إن الظروف هى التى خلقت هذا الموقف المعقد .. ولكن كل شىء سينتهى على خير .. سيبقى أبوك وهو أهم ما فى الأمر .. وسيعود إلى البيت .. ويواصل حياته الطبيعية مع أمك .. أنا لا أشكل سوى شىء عارض فى حياتهما .. أوجدتنى الظروف فى حياتـه .. وسأذهب بانتهاء الظروف ..

وأجابت داليا .. وهى تطبق على كفها :

ــ إنك مخلوقة نادرة ..

وأطلقت نعمت زفرة أخرجت بها بعض ما يزخر فى صدرها من مشاعر الأسى ..

وردت فى صوت خافت :

ــ أبوك مخلوق نادر .. وهو يحتاج إلى الحنان والرعاية .

وهزت داليا رأسها فى حيرة وردت :

ــ لست أدرى .. لماذا يوجد هذا التوتر بينهما دائما ؟ ..

ــ أنت تستطيعين أن توفقى بينهما .. لقـد كبرت .. وبت أقـدر على فهمهما ..

ونهضت نعمت قائلة وهى تتجه إلى الممر :

ــ لنذهب إليه حتى لا يقلق ! ..

ــ أجل .. لا أعرف كيف أشكرك .. لقد أرحتنى .. كنت دائما أشعر أنك مخلوقة مثالية ..

وضحكت نعمت وأجابت :

ــ لا تملئينى غرورا فأنا بشر ..

ودخلت نعمت وداليا على محمود ..

وبدا وجهه مشرقا وهو يرى البسمتين على شفاههما ..

وتبادل الثلاثة حديثا معتادا .. لم يطرق أحدهم فيه أحداث الأمس ..

وبعد برهة استأذنت نعمت وغادرت الغرفة ..

وقبل الظهر .. ذهبت نعمت إلى مدير المستشفى .. وأنبأته برغبتها فى ترك الخدمة والعودة إلى الصحافة ..

وفى نفس اليوم . اتصلت بزوجها .. وأنبأته بأنها ستعود إلى المجلة .. وطلبت منه أن يعود إلى البيت ..

وفى حديث تليفونى قصير أنبأت سامية ..أنهاآسفة على كل ما حدث .. وأنها تركت خدمة المستشفى ورجتها أن تعود إلى زوجها ..

تصرفت نعمت فى حزم وبغير شعور ..

تاجر يشهر إفلاسه .. ويصفى بضاعته .. ويترك السوق ..

وافتقدها محمود .. سأل عنها .. فأنبئ بأنها تركت المستشفى .. ذهل .. طلبها فى التليفون .. ردت عليه .

سألها :

— لماذا فعلت هذا ؟؟ ..

— كانت العملية تحتاج إلى بتر .. فقمت به ..

— أنت قاسية .. ألا تشعرين كم قسوت على ؟ ..

— قسوت على نفسى أكثر ..

— ألن أراك ؟ .

— ليس الآن ..

— أتحرميننى من لقاء وداع ؟ ..

— أحرم نفسى ..

— لقاء واحد !!..

— لا تعذبنى ..

— أهنت عليك إلى هذا الحد ؟! ..

ــ أنت خير ما فى حياتى .. وستبقى هكذا ..

وبصوت يخنقه البكاء قالت :

ــ مع السلامة ..

ثم وضعت السماعة ..

الخـاتمة

حاولت نعمت بعد عملية البترالتى قامت بها .. أن تبتلع مواجعها .. وأن تواصل حياتها فى هدوء وكأن شيئا لم يكن ..

عاودت حياتها الأولى فى المجلة وفى البيت .. لم يتغير شىء فى الظاهر .. كل شىء وجدته كما هو .. عادت تمارس عملها وحياتها كما تعودت أن تفعل من قبل .. وعندما كانت تسأل لماذا تركت الجيش .. لم تتعد إجابتها .. أن عملها فى الجيش كان مجرد تجربة .. إنها استفادت منها كثيرا .. ولكنها كانت تشعر دائما أن عملها الصحفى هو الأصل وأنها لا بد عائدة إليه ..

وفضلت العمل فى قسم التحقيقات .. رغم محاولة الأستاذ زكى نائب رئيس التحرير أن يعيدها إلى رئاسة قسم المرأة التى كانت قد احتلتها إحدى الزميلات ..

لم تحس بحماس .. لما كانت تقوم به من قبل .. صور وآخر تسريحات الشعر .. وعلاج السمنة .. وكيف تحتفظين بزوجك .. وكيف تحافظين على نعومة بشرتك ..

كانت تشدها أنباء المعارك الدائرة على القنال ..

شىء ما .. يرسب فى أعماقها .. يربطها بهؤلاء الرابضين على خط النار .. ويواجهون الموت بغير إحساس به ويمارسون الشجاعة كجزء من حياتهم الطبيعية .. كشرب الشاى .. والاستماع إلى الراديو ..

« ما شعرت مرة وأنا أنفذ أمرا بالهجوم .. أنى أحتاج إلى شجاعة » .

يسمون القتال « شغل » ..

« عندنا شغل .. فاهم يعنى إيه شغل » ..

ويقبلون عليه .. ببساطة .. وكأنهم فى طابور تدريب .. وتوالت أنباء

سلاح الطيران المصرى يقوم بخمس هجمات على العدو خلال ٢٤ ساعة .. القاذفات المصرية اقتربت من أهدافها على ارتفاع منخفض دقت مواقعه على عمق ١٦٠ كيلومترا وأصابت مقر الحاكم العسكرى فى العريش ..

وحدات الكوماندوز توغلت فى خطوط العدو إلى عمق ١٩٥ كيلومترا شرق القناة وضربت مركز القيادة بين الشيخ زويد ورفح بالصواريخ وأوقعت به خسائر فادحة ..

اشتدت الضربات على العدو ..

وبدأ العدو بدوره محاولاته فى نقل المعركة إلى الداخل .. باستخدام الطيران على أوسع نطاق بغرض تشتيت جهدنا القتالى على القناة وتوزيع قواتنا من أجل الدفاع فى الداخل .. وتحويل حرب الاستنزاف ضده إلى حرب استنزاف ضدنا ..

توالت الغارات على التل الكبير والخانكة ودهشور ..

تصاعد ضرب المناطق الاستراتيجية .. وضرب التجمعات العسكرية فى القاعدة وضرب المدنيين بهدف التأثير على الروح المعنوية للجماهير .. أو كما اعترف ديان « بهدف ضرب مقاومة الشعب وإحداث الأثر النفسى الذى يزعزع الثقة » بحيث تحطم إرادة الشعب التى عجزت الهزيمة العسكرية عن تحطيمها ..

فى ١٥ فبراير ضرب العمال فى مصنع أبو زعبل ..

وفى ١٧ ابريل ضرب التلاميذ فى مدرسة بحر البقر ..

وذهبت نعمت تصحبها آلة التصوير إلى الموقعين المضروبين .

أبصرت القذائف قد بقرت بطن الأرض وأخرجت أحشاءها .. الجدر منهارة والأسقف منقضة بأسياخ الحديد تبرز بين كتل الأسمنت كأنها الهياكل العظمية .

طافت بالعمال فى المستشفى .. الدمار فظيع .. ولكن الجزع قليل .. ضرب العدو المصنع .. حطم الجدران .. ولكن لم يستطع أن يحطم عزيمة البشر .. تصرف العمال فى الموقع المضروب بشجاعة رائعة .. ووعى عجيب ..

وسجل ضرب المصنع .. أن المصرى قادر على المواجهة فى الداخل .. قدرته على المواجهة فى جبهة القتال ..

أبصرت نعمت المواجهة فى كلتا الجبهتين .. وأخذت تسجل فظاعة الدمار .. وروعة المقاومة ..

ذهبت إلى بحر البقر ..

أجساد الأطفال مختلطة ببقايا الألواح والسبورة..أحضرت معها جزءا من السبورة كتب عليها عنوان الدرس .. وبسم الله الرحمن الرحيم .. ومعها فردة حذاء صغيرة وقطعة ملابس ممزقة لوثتها الدماء ..

ملأت نفسها المرارة .. والأسى ..

تحول بناء المدرسة .. إلى مقبرة للأطفال الأبرياء ..

صبت الفانتوم جحيمها .. على العيدان الخضر .. جلسوا أمام السبورة .. يتعلمون « زرع » و « حصد » .. وزرع العدو فيهم قنابله المدمرة .. وحصد أرواحهم الطاهرة ..

وتذكرت نعمت القوات تعبر القناة .. وتضرب .. وأصواتها تعلو « الله أكبر » وعلى الجانب الآخر فى القناة .. أصوات تردد النداء برجع الصدى « الله أكبر » ..

ومحمود يقول « اقتل .. فلم تعد هناك وسيلة للتعامل مع أهل الغدر سوى القتل » ..

وتمنت وهى تبصر بقايا العيدان الخضر مختلطة بالأنقاض لو عادت إلى الجبهة مرة أخرى .. لو شاركت فى القتال .. لو تعاملت كما قال محمود مع العدو بالقتل .. وليس بأسلوب القلم والورق ..

أحست أنها عاجزة .. بالقلم ..

وتمنت لو استطاعت أن تمسك بدلا منه بندقية .. أو مدفعا ..

وسلمت الموضوع والصور .. وبقايا جثث الأبرياء .. فردة الحذاء .. وقطعة

السبورة .. وأوراق الكراريس الملوثة بالدماء ..

وقال لها عبد القادر وهو يقرأ الموضوع ويقاوم دمعتين تحاولان أن تجدا طريقهما إلى عينيه :

ــ عمل رائع .

وهزت رأسها وانطلقت منها ضحكة قصيرة ملؤها المرارة والسخرية :

ــ وددت لو استطعت أن أفعل شيئا غير الكتابة ..

ــ مثل ماذا ؟..

ــ أمسك المدفع وأضرب .. أثأر .. أنتقم ..

ــ هل تظنين أن عملك هذا . لا يرقى إلى مستوى الضرب بالمدفع ؟ ..

ــ كيف ؟؟

ــ ليس المطلوب من كل منا أن يمسك بمدفع ويضرب .. لو فعلنا هذا .. لما وجد الذين يحاربون على خط النار .. لقمتهم .. بعض منا يجب أن يصنع رغيف العيش . والبعض لابد أن يصلح صنابير المياه .. وكل منهم يرقى فى أهميته إلى مستوى حامل المدفع .. المهم أن يعمل عمله جيدا .. وأنت قد أديت عملك بأمانة وإخلاص .. إن الموضوع الذى كتبته يمكن أن يكون له أثر أمضى من طلقة مدفع فى صدر العدو .. إن موضوعك سيترجم ويرسل مع الصور إلى وكالات الأنباء الخارجية ..

ومرت الأيام ونعمت تحاول أن تقنع نفسها بما قال عبد القادر .. ولكنها لا تستطيع أن تدفع عن نفسها الحنين إلى الجبهة .. وجلست ذات يوم تنصت مع زملائها إلى خطبة عبد الناصر فى عيد العمال .. وعلا صوت عبد الناصر يهتف فى إصرار :

« إن أمامنا طريقا طويلا وصعبا حتى نخلع من هذه الأرض العربية عدوا لن يرحل منها إلا إذا خلعناه » ..

واندفع أحد المحررين من خارج الغرفة يصيح غاضبا :

ـــ هذه مؤامرة ؟؟ ..

وتساءل البعض فى دهشة :

ـــ ماذا حدث ؟؟..

ـــ اسم عبد العزيز رزق كتبه الخطاط واسمى مجموع بنط ١٢ ..

ورد سكرتير التحرير فى برود :

ـــ لم يكن الخطاط موجودا ..

ـــ المقال عندكم من بدرى .. لماذا لم تطلب من الخطاط أن يجهز له العنوان ؟؟ ..

ـــ لم يكن مفروضا أن ينزل هذا العدد ..

ـــ ولكنه كان موجودا فى الماكيت ..

ـــ فعلا كان موجودا ..

ـــ إذن لماذا لم يجهز ؟؟ ..

ـــ لأنه تأجل للعدد القادم ..

ـــ لماذا ؟؟ ..

ـــ لكى يفسح مجالا للتحقيق العسكرى ..

ـــ وماذا حدث ؟؟..

ـــ تأخر التصديق على التحقيق العسكرى فطلب نائب رئيس التحرير إنزال موضوعك فى آخر لحظة ..

وصاح المحرر :

ـــ هذه فوضى .. أنا عارف أن هناك مؤامرة ضدى ..

وصرخ فيه أحد المحررين :

ـــ مؤامرة إيه وزفت إيه .. دعنا نسمع الخطبة .. أو اخرج بره ..

واندفع المحرر يبرطم خارج الغرفة ..

وعاد صوت عبد الناصر يهتف :

ـــ حتى الآن لم يعبئ العرب كل قواهم أو نصف قواهم .. لابد أن تقوم جبهة شرقية من كل الدول العربية فى الشرق وجبهة عربية من كل الدول العربية فى الغرب ..

وعلق أحد المحررين قائلا :

ـــ إذا كان الأمريكان قد عملوا جبهة واحدة مع الروس ضد النازى .. ألا يقوم العرب بعمل جبهة واحدة ضد إسرائيل ؟

ودخل حامد الفراش ينبئ نعمت بأن الأستاذ زكى نائب رئيس التحرير يطلبها .. وتركت المكتب وذهبت إلى الأستاذ زكى ..

سألها وهو يقلب أوراقا فى يده :

ـــ غدا ستوزع النياشين على الأبطال والشهداء .. أتحبين أن تغطى الموضوع ؟؟ ..

وبغير تفكير ردت نعمت :

ـــ أجل ..

ـــ سآمر بإعداد المصور ليخرج معك فى الصباح ..

وفى الصباح خرجت نعمت بعربة الجريدة مع المصور ..

وصلت إلى مكان الاحتفال ..

جلست مع الصحفيين .. فى جانب المنصة .. تلقت تحية الزملاء وردتها .. ثم دارت بعينيها فى أرجاء المكان ..

وأصابتها رعدة .. وأحست بأنفاسها تتلاحق ..

وجدته يجلس فى مقدمة الصفوف .. ينظر إليها فى صمت نظرة جامدة .. لاتعبر عن شيء .. وكأنه لايراها أو كأنها لا تعنى لديه شيئا مميزا ..

واضطربت .. ازدردت ريقها .. وحولت عينيها عنه بسرعة .. وتشاغلت بالحديث مع المصور .. قالت كلاما فارغا .. كان ذهنها يضطرب فى رأسها .. وقلبها يضطرب بين ضلوعها .

فكرت فى أن تعدو ..

لم تحاول خلال تلك الفترة أن تتصل به ..

و لم يحاول هو أن يتصل بها ..

و لم تعرف لماذا ؟ ..

لقد كرهت أن ينتهى كل ما بينهما بمثل هذه القطيعة ..

كرهت أن يتحولا إلى خصمين .. أو يتحولا إلى لا شىء ويصبح كل منهما فى نفس صاحبه .. وكأنه ما كان ..

ولم تعرف لماذا لم يحاول الاتصال بها ؟ ..

أهى الكبرياء الجريحة ؟ ..

أيمكن أن تكون مشاعره قد انتهت فجأة ؟ ..

أيمكن أن يكون الحب قد انقلب إلى كراهية ؟ ..

وملأها إحساس بالحزن ..

كانت نظرته قاسية .. قاتلة ..

لم يتجهم و لم يبتسم .. نظر إليها كأنها شىء لا يعنيه ..

وبرغمها خطفت نظرة أخرى ..

ثبتت عينيها على عينيه لحظة .. أشارت برأسها .. مع محاولة ابتسامة ..

رد برأسه .. وظلت نظراته التى لا تنم عن شىء .. مثبتة .

عادت مرة أخرى تحدث المصور ..

لم تعرف ماذا تقول له ..

أنقذتها بداية الحفل ..

القرآن الكريم .. ثم المناداة على أصحاب الأوسمة من الأبطال وأقارب الشهداء ..

واستلم وسامه ..

شد على يد القائد وحيا التحية العسكرية وعاد إلى مكانه ..

وتلته أسماء أخرى ..

وبعد برهة سمعت اسم صلاح ..

وأبصرته يتقدم ليتسلم وسامه وتوالت الأسماء ..

الكعب يضرب الكعب الآخر ..

واليد ترفع بشدة إلى الرأس بالتحية .

ثم يستدير إلى الخلف ويعود إلى مكانه ..

ونوديت أسماء الشهداء ..

خرجت الأمهات والآباء والأرامل .. يتشحن بالسواد يتسلمن الأوسمة ..

وسمعت اسم عبد العزيز ..

وتلفتت حولها ..

من الذى سيتسلم وسامه ؟؟!!

وأبصرت سعدية .. تضم إلى صدرها رضيعا..

تقدمت مع عم إبراهيم البقال ..

قال العجوز يقدمها :

ـــ أرملة الشهيد .

وتقدمت بجسدها المنتصب وعينيها الواسعتين تمسك الرضيع بيد وتتسلم الوسام باليد الأخرى ..

وعادت إلى مكانها مع عم إبراهيم ..

اتجهت نعمت إليها .. مدت إليها يدها مصافحة .. جلست بجوارها وهى تهمس :

ـــ مبروك يا سعدية ..

وعرفتها سعدية .. شدت على يدها فى ترحاب :

ـــ الله يبارك فيكى ..

قالت نعمت :

ــ لِمَ لمْ تتصلى بى ؟ ..

ــ لم يكن هناك حاجة (وأشارت إلى الرضيع على صدرها) لقد أبقيته
ترين .. أليس هذا أفضل ؟؟

وتمتمت نعمت :

ــ بالطبع ..

ــ قلت لى إنه قد عزم على أن يأتى ليتزوجنى .. وليطلب منى أن أبقى
الطفل ..

ــ أجل هذا هو ما حدث ..

ــ لبيت رغبته .. واحتفظت به .. وعرف عم إبراهيم بكل ما حدث واعترف
الحى كله بأنه زوجى .. وبأن الوالد ابنه .

وضمت سعدية الرضيع إلى صدرها وتمتمت :

ــ سيكون رجلا كأبيه ..

ونودى على آخر اسم ..

وأقبل صلاح يحيى نعمت فى شوق ..

قال لها ضاحكا ..

ــ نسيتينا ؟؟!! ..

ــ أبدا . . . لقد أمضيت معكم .. أفضل أيام عمرى ..

ــ أمى قالت لى إنك ذهبت إليها ..

ــ وأسفت لما حدث ..

وتنهد صلاح ثم قال محاولا أن يأخذ الأمر بخفة :

ــ يعنى !! ..

ــ المفروض أن تعود إليهم ..

وأطلق زفرة قصيرة ساخرة ورد قائلا :

ــ ليس مهما ..

ــ كيف ؟؟ ..

ــ تزوجت أمى عبد الرحيم أفندى كاتب المحامى .. لم يعد أحد فى حاجة إلى ..

وأحست نعمت أنها قد نكأت جراحه .. و لم تعرف ماذا تقول ..

سألته .. تحاول أن تبعده عن الجرح الذى نكأته ..

ــ وخطيبتك ؟؟ ..

ورد صلاح :

ــ تزوجت ..

وأحست نعمت بأنها من حيث لا تقصد نكأت جرحا آخر .

واستطرد صلاح وهو يضحك فى استخفاف ساخر ..

ــ لهفها زميل .. عنده شقة .. أهم مؤهلات الزوج فى أيامنا هذه ..

و لم تعرف نعمت بماذا تجيب .. هل تشاركه الضحك .. وهى تشعر أنه يحمل فى طياته المرارة والأسى ..

و لم يترك لها فرصة الرد .. استرسل يقول :

ــ وفرت علىّ تعب القلب والرجاء .. الحياة هنا باتت مزعجة .. الجبهة أريح مكان .. لقد أخذنا عليه .. نضرب مرة .. ونضرب أخرى وملء أنفسنا الإيمان بأننا يوما ما .. سنثب على الضفة الأخرى .. لنحرر الأرض .. ونستعيد كبرياءنا ونسترد كرامتنا..ونؤكد للعالم أننا شعب لا يذل ..إننا نعيش بهذا الأمل.. وهذا اليقين .. إنى ما زلت أعمل مع المقدم محمود .. بات عصبيا .. لا يطيق كلمة ، ولكنه أفضل من غيره .. عن إذنك ..

ومد يده محييا .. وقبل أن تستدير هتف قائلا :

ــ سننتظر زيارتك ..

ثم استدرك قائلا بعد أن ابتعد :

ــ فى الجبهة ..

ودارت نعمت بعينيها تبحث عن محمود وبنفسها خوف من أن يكون قدانصرف.
ولكنها وجدته مقبلا عليها ..
مد محمود يده محييا وما زالت النظرة الجامدة تطل من عينيه :
ـــ كيف الحال ؟؟ .

وتركت يدها فى يده .. وردت :
ـــ كيف حالك أنت ؟
وعلت شفتيه ابتسامة مرة :
ـــ الحمد لله ..
وصمت لحظة ثم أردف :
ـــ الذى لا يحمد على مكروه سواه ..
ـــ مبروك الوسام ..
ـــ الله يبارك فيكى ..
وهمست نعمت :
ـــ تبدو كانك تكرهنى !.

ـــ ليتنى أستطيع ..
ـــ تمنيت ألا أؤلمك ..
ـــ لم يكن ألما .. كان قتلا ..
ـــ لا تقل هذا .. أرجوك .. إنك تقتلنى ..
ونظر محمود فى عينيها برهة ثم همس :
ـــ هل تذكرين ما قلته لك أن العمر لحظة ..
وهزت رأسها وهى تحاول ابتلاع الدموع التى توشك أن تطفر من عينيها
واستطرد محمود يقول هامسا :
ـــ يضيع فى لحظة .. أو يتبلور فى لحظة .. هذه اللحظة تأبى أن تجىء .. إنى
أعيش .. آكل وأشرب .. وأنام .. وأصحو .. وأخوض القتال .. أقتل ..

وأصاب .. ثم يجعلون منى بطلا .. ولكنى أحس بعمرى يتسرب بين يدى .. يذهب سدى .. وكأنه الماء بين الأصابع ..

وهمست نعمت :

ــ عمرك لن يذهب سدى .. أنت أعز الناس على هذا البلد .. أنت ذخيرة مصر الجريحة .. أنت السند .. وأنت الخلاص ..

ولم يبد الرضاء على وجه محمود .. وتمتم قائلا :

ــ المهم أنت .. ماذا أكون بالنسبة لك أنت ؟ .. أما زلت خير الناس فى نفسك ؟

ــ وأكثر ..

ــ كم حاولت أن أنساك .. وأن أكرهك .

وتساءلت نعمت فى جزع :

ــ لماذا ؟

وقبل أن يرد محمود استطردت هامسة بصوت ملؤه الحنين .

ــ إنك لم تغب عن ذهنى لحظة .. إنك باق فى قلبى .. كأخلد ما يكون البقاء .. قريب إلى نفسى .. كأعز ما تكون القربى ..

وضغط محمود على يدها وعلت شفتيه الابتسامة المشرقة وهمس :

ــ كم كنت فى حاجة إلى هذا اللقاء .

ــ سنلتقى دائما .. دائما ..

ــ إنى الآن أفضل ..

واختفى كل منهما فى الزحام ..

صوته يتردد فى مسامعها .. « إنى الآن أفضل » ..

وصوتها يتردد فى مسامعه .. «سنلتقى دائما .. دائما » ..

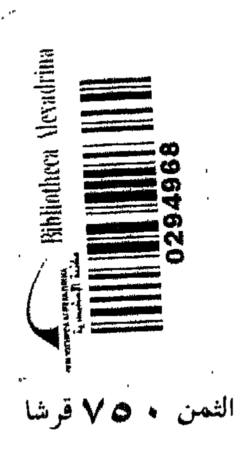
مايو ١٩٧٣ **يوسف السباعى**

تمت

رقم الإيداع : ٣٩٥٠ / ٨٨

الترقيم الدولى : ١ — ٠٤٠٧ — ١١ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ٧٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه